الكتاب في العالم

تأليف
الدكتور محمد ماهر حماده

مؤسسة الرسالة

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣-٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ برقيا: بيوشران

استهلال

ان الحمد لله نحمده ونستغفره ونستهديه ونستعينه ، ونصلي على نبيه ونبينا محمد ﷺ النبي الامي الذي هو مصباح الانسانية الاول الذي قادها الى النور واخرجها من الظلمات . ونسأله جلت قدرته ان يأخذ بايدينا لما فيه خيرنا في الدنيا والآخرة وان يجعل اعمالنا خالصة القصد ، منزهة الغرض وبعد : يسر كاتب هذه السطور ان يقدم الى المثقفين في عالمنا العربي ، والى المهتمين بالفكر الانساني وتطوره والمكتبات وتقدمها ، والكتب ودراستها ، هذه الدراسة الاولية لتطور الكتاب العالمي مخطوطاً ومطبوعاً ، وكله امل وثقة ورجاء في الله العلي القدير ان يقع هذا الكتاب موقع القبول ، ويرجوه تعالى ان ينفع به .

وان المؤلف يقدم شكره اولاً وآخراً الى مولاه العلي القدير الذي مازال يلحظه بعين رعايته ويمده بسبب من عنده ، ويرجوه ان يديم عليه نعمة الصحة والامن انه سميع قدير . كما يريد ان يتقدم بالشكر لكل من ساعده ، في اعداد هذا الكتاب ، بشكل من الاشكال ، وان يتولى الله جزاءه ومكافأته . وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

الرياض : ٨ صفر الخير ١٤٠٢ هـ
٤ كانون الأول ١٩٨١ م

الدكتور محمد ماهر حمادة



المقدمة

هناك تلازم بين المكتبة والكتاب ، كما وان هناك تلازماًبين الكتاب والفكر والحضارة بشكل عام . والواقع ان الكتب هي اوعية المعرفة ، وهي السبيل الاكثر شيوعاً لحفظ التراث الفكري الانساني العام . ولايمكن تخيل مكتبة بدون كتب . ومن هنا نبعت اهمية الكتب واهمية دراستها .

وتشمل دراسة الكتب عناصر عدة تجتمع كلها لتشكل الكتاب :

فهناك أولاً الكتابة وتطورها وأنواعها وأشكالها والمراحل التي مرت بها حتى وصلت إلىٰ ما وصلت إليه .

وهناك المواد التي استعملت في الكتابة عبر العصور والدهور ، ومقدار صلاحيتها للبقاء ومقاومة عوادي الزمن .

وهناك ايضاً اللغات التي كتبت بها تلك الكتب وكيف كتبت وماماثل ذلك من امور .

وهناك طريقة كتابة الكتاب هل هي باليد ، كتابة ، اونقشاً ، ام هي بالآلة تصويراً وطباعة وماماثل .

وهناك اخيراً المضمون الفكري للكتاب وهو العنصر الاكثر اهمية في الموضوع .

ولاحاجة للتنويه بأهمية الموضوع وصلته بالفكر الانساني والتحضير الانساني العام ، فالموضوع واضح الاهمية وتكشف دراسته عن تطور الفكر الانساني وردود فعله من اجل حفظ هذا الفكر ونشره والاستفادة منه .

ولقد بدأ الانسان يسجل معارفه على الحجارة وجدران الصخور وعلى الطين الطري وعلى سعف النخيل وعلى الاخشاب وعلى اوراق البردى والرق وجلود

الحيوانات ؛ ثم اخترع الورق الذي كان انتشار استعماله في الكتب ثورة كبرى ذات نتائج بعيدة المدى في تطور صناعة الكتاب وفي نشر المعرفة الانسانية . ثم اتت المخترعات الحديثة من تصوير والكترون واشرطة ممغنطة وغير ممغنطة وبطاقات وكتب الكترونية وكلها تعزز من اهمية الكتاب ودوره في تاريخ الفكر الانساني والحضارة الانسانية .

وان دراسة تطور الكتاب من هذه الزاوية يكشف مدى التطور العظيم والتقدم الممتاز الذي حققته الانسانية في مجال حفظ المعرفة ونشرها ، ويدل على مدى تقدم هذا الشعب في هذا المضمار او تخلفه .

ولقد سرنا في دراستنا هذه على نسق تاريخي مبتدئين من اقدم العصور ومنتهين مع مطالع القرن العشرين . ولقد ركزنا انتباهنا على العالم ، وبشكل خاص البؤر الحضارية الكبرى التي اثرت فيما عداها من الاماكن .

ولقد بحثنا نشوء اللغة بشكل عام وارتباطها بالتسجيل والكتابة ، ودرسنا تطور لغات الجنس البشري وكتاباتها حتى وصلنا الى اختراع الالفبائية التي درسناها بشيء من التفصيل لاهمية ذلك بالنسبة للعالم ككل .

بعد ذلك درسنا تطور الكتاب والكتابة في العصور القديمة في كل من بلاد الرافدين ومصر وبلاد اليونان والرومان .

ثم درسنا تطور الكتاب في اوربا ابان العصور الوسطى الاوربية وبينا العوامل التي اثرت في هذا التطور .

انتقلنا بعد ذلك الى دراسة الورق واختراعه وانتشاره ثم درسنا اختراع الطباعة الثابتة والمتحركة اولاً في الشرق الاقصى ثم في اوربا .

ودرسنا بعد ذلك انتشار الطباعة في العالم واشهر الطابعين والعوامل التي اثرت في الطباعة والظروف الفنية والاقتصادية للطباعة في اوربا بشكل خاص ونتائج اختراع الطباعة .

ولم نغفل الطباعة وانتقالها الى العالم الجديد القارة الامريكية فدرسنا دخول الطباعة اليها وانتشارها فيها وما تم في هذا الحقل من انجازات .

ثم نوهنا بتقدم الطباعة وانتشارها في عدد من دول اوربا وامريكا

وذكرناالاختراعات التقنية التي جرت في هذا الحقل وادت الى ترقية صناعة الكتاب . ولم نهمل اطلاقاً ، خلال ابحاثنا ، التلازم بين التقدم الحضاري الفكري وبين تقدم صناعة الكتاب وانتشاره .

وختمنا بحثنا بالوقوف عند مطالع القرن العشرين ولم نتعرض للتطورات الحديثة التي تمت في هذا الحقل في مطلع القرن العشرين وذلك لاهميتها القصوى وضخامتها ولانها تحتاج إلى حيز أكبر بكثير مما يقدمه هذا العمل المتواضع .

ولم نتعرض لما جرى في هذا المجال في العالم العربي الاسلامي ، لان الموضوع مهم كل الاهمية ، بل اكثر اهمية من ان يكون فصلاً في كتاب عام عن الموضوع ، كما وان حجم الكتاب الحالي لايساعد كثيراً على اضافة اشياء اخرى اليه . ونرجوا ، بعون الله ، ان نوفق لاصدار كتاب يدرس تاريخ الكتاب وتطوره ، مخطوطاً ومطبوعاً ، في العالم العربي الاسلامي .

ونعود فننوه ان الموضوع اهم واضخم بكثير من ان يفيه حقه كتاب من الكتب مهما كان جيداً وواسعاً . ولولا ندرة الكتب العربية الباحثة في هذا الموضوع لما تجرأ المؤلف على طرق هذا الموضوع الصعب الشائك المعقد . ولاندعي ان كتابنا هذا جمع فأوعى ، وانما هو محاولة اولى نرجوا أن تكون سبباً في فتح الباب للتأليف في هذا المجال وفي اثارة الهمم وتلقيح الافكار . وهذا ما يهدف اليه المؤلف من هذا الكتاب ، وسيشعر المؤلف انه نال جزاءه كاملاً عن هذا الكتاب ، اذا وصل الى علمه انه بكتابه هذا قد اثار همم الآخرين للخوض في هذا الموضوع الهام .

الفصل الاول

اختراع الكلام والكتابة وأهمية التدوين في حياة البشر

يعتبر اختراع الكتابة الحد الفاصل بين عهدين : عهد ماقبل التاريخ والعهد التاريخي . والواقع لقد اصبح الانسان بالكتابة انساناً حقيقياً . ويميز العلماء والمؤرخون في تاريخ الانسانية بين عهدين : العهد الذي لم تصلنا سجلات مكتوبة عنه ، وهو عصر طويل موغل في القدم ، وتصلنا المعلومات عنه من البقايا المادية لشعوب تلك الفترة ؛ والعهد التاريخي الذي يبدأ عادة في اوائل الالف الثالثة قبل الميلاد حيث بدأت تصلنا سجلات مكتوبة استطعنا ان نتعرف بواسطتها على حياة تلك الشعوب .

ولكن هذا لايعني ان انسان ماقبل التاريخ لم يكن يجيد التفاهم مع اقرانه ، بالعكس نجد ان هذا الانسان تمكن أن يطور نظاماً ممتازاً للتخاطب والاتصال بالاخرين من ابناء جنسه . هذا ويوجد في تاريخ البشرية اختراعات ذات اهمية خاصة في حياة الانسان وتطور حضارته ونجاحه وتقدمه ، وان اختراع الكلام ، او بالاحرى تطوير الكلام ، هو واحد من تلك الاحداث التي صنعت التاريخ ، لان ذلك جعل بالامكان اشتراك اعداد كبيرة من البشر في مجموعات اجتماعية ، ولذا لم يكن تطوير الكلام نتاجاً انتجته غريزة الانسان الاجتماعية فقط ، ولكنه كان ايضاً عاملاً مهماً في تطور ونمو تلك الغريزة . ويعلق على الكلام واختراعه واهميته توساس استل Astle بقوله : [ان اعظم ماامتلكه الانسان هو الكلام ، وان اكثر الفنون فائدة هو فن الكتابة ؛ فقد ميز الاول الانسان عن المخلوقات المتوحشة ، وميزه الثاني عن البرابرة المتوحشين غير المتمدنين] (١) . وقد عبر عن نفس الفكرة بشكل اقوى بريستد Breasted حيث قال : [ان اختراع الكتابة وايجاد اسلوب

(١) Ullman, B.L. Ancient Writing and its influence. N.Y. , Cooper Square Publishers, 1963. P.4

للتسجيل على الورق له تأثير اقوى من اي انجاز عقلي احرزه الانسان في رقي الانسان ورفعة في سلم الحضارة . أنه ذو اهمية اكبر بكثير من جميع المعارك التي جرت ومن جميع الدساتير التي صدرت] (١) .

ولما كان تصورنا لاوائل الاشياء لايزيد أبداً عن حدس وتخمين ، فلخيالنا ان يرسل لنفسه العنان في تصور بداية الكلام . يجوز ان تكون اول صورة بدت فيها اللغة ـ ويمكن تعريف اللغة انها اتصال عن طريق الرموز ـ [يقصد بالرموز الاصوات والاشارات والتعبيرات والرسوم والكتابة] صيحة حب بين حيوان وانثاه ، وانك لترى في صيحات النذير والفزع ، وفي مناداة الام لصغارها ، وفي الزقزقة والنقنقة التي يعبر بها الحيوان عن فرحه بصوته او باتصاله بعشيره من الجنس الآخر واجتماعه افراداً لتبادل الاصوات من شجرة الى شجرة ، انك لترى في هذا كله الخطوات التمهيدية التي يجهد الحيوان في اجتيازها لكي يصل الانسان الى الذروة العليا ذروة الكلام .

لقد وجدت فتاة حوشية تعيش مع الحيوان في غابة بالقرب من شالون في فرنسا ؛ فلم يكن لها من كلام الا صرخات ودمدمات كريهة الوقع على المسامع . وان الاصوات الحية التي تنبعث في الغابات قد لاتكون ذات معنى لآذاننا التي تحضرت ، ولكنها ، مع اصوات الحيوانات واصوات الطبيعة ـ كصوت الرعد والمطر . . . ـ هي الاساس الذي استند اليه تطور الكلمات والالفاظ واللغة الملفوظة في الانسانية كلها .

ويظهر ان الاشارات كانت لها الاهمية الاولى وللكلام المنزلة الثانية في تبادل المعلومات وايصالها وتبادل الافكار في العصور الاولى . واننا لنلاحظ انه اذا ما اخفق الكلام في الاداء وثبت الاشارات الى الطليعة . ففي القبائل الهندية في امريكا الشمالية ، التي تستعمل من اللهجات ما لايقع تحت الحصر ، يجيء العروسان من قبيلتين مختلفتين فيتبادلان الافكار ويتفاهمان بالاشارات اكثر من الكلام . وكان التفاهم بالاشارات من الاهمية في بعض اللغات الهندية بحيث

---

(١) Ibid.

تعذر على افراد قبيلة اراباهو ARAPAHO ان يتحدثوا في الظلام . وحتى في ايامنا هذه فان الاشارة لاتزال تستعمل اكثر بكثير مما يتخيل المرء . فرجل الشرطة يستعمل الاشارة من اجل توحيد وتنظيم حركة مرور السيارات وهو قابع في مركزه على ركن من اركان الشارع . كذلك تستعمل الاشارة في كثير من الالعاب الرياضية .

ولقد اتى الكلام ، كوسيلة من وسائل الاداء استعملها الانسان ، بعد الاشارة ، وهو يتدرج من صوت يطلق للتحذير حتى يصل الى نظام للكلام معقد كل التعقيد يستعمل الوف الكلمات ويساعده عدد من النغمات . ويبدو ان الانسان البدائي استعمل الاصوات المطلقة والصيحات قبل استعماله نظاماً كلامياً .

وربما كانت أول الألفاظ الإنسانية صيحات تعبر عن العواطف كما هي الحال عند الحيوان . ثم جاءت ألفاظ الإشارة مصاحبة للإشارة بالجسم لتدل على الاتجاه ، ثم تلت ذلك أصوات مقلِّدة جاءت في أوانها المناسب لتعبر عن الأشياء والأفعال التي يمكن محاكاة أصواتها . ولاتزل كل من لغات الأرض تحتوي على فئات من هذه الألفاظ التي تحاكي بأصواتها الأشياء والأفعال ، على الرغم من الاف السنين التي مضت مليئة بالتغيرات والتطورات التي أصابت اللغة ؛ مثل : زئير ، همس ، تمتمة ، قهقهة ، أنين ، زقزقة . . . الخ .

ولكن الانسان البدائي لم يحصر نفسه في دائرة المفردات والاشياء الحسية والجزئية فقط ، ولكنه تمكن ، بعد فترة ، ان ينتقل الى مرحلة فكرية متطورة فاوجد الاسماء الكلية اي انه قام بعملية عقلية متقدمة هي عملية التعميم والتجريد . فلولا هذه الاصوات الغريبةالتي نسميها اسماء كلية لانحصر الفكر في الاشياء الجزئية التي يذكرها الانسان او يدركها عن طريق الحواس ، وخصوصا حاسة البصر . واغلب الظن انه لولا هذه الاسماء الكلية لما استطاع الفكر ان يدرك الانواع باعتبارها متميزة عن الاشياء الجزئية ، ولا ان يدرك الصفات متميزة عن اشيائها التي تتصف بها ، ولا ان يدرك الاشياء مجردة عن صفاتها . انه لولا الكلمات التي هي اسماء لانواع لاستطاع الانسان ان يفكر في هذا الرجل او ذاك ، ولكنه لم يكن ليستطيع ان يفكر في [الرجل] بشكل عام ، لان العين لاترى

الرجل العام المجرد ، بل ترى رجالاً مختلفين فحسب . فالعين ترى الاشياء الجزئية لاالانواع . ولقد بدأت الانسانية عندما فكر الانسان الاول في ايجاد لفظ هو اول رمز صوتي يدل على طائفة من اشياء متباينة كاسم منزل الذي ينطبق على المنازل كلها ، او لفظ انسان الذي يدل على افراد الانسان في كل زمان ومكان . ومنذ ذلك الحين انفتح امام التطور العقلي للانسان طريق جديد ليست له نهاية يقف عندها ، ذلك لان الكلمات للفكر بمثابة الالات للعمل ، والانتاج يتوقف الى حد كبير على تطور الالات .

ولاتحسبن لغات الشعوب الفطرية بدائية بالضرورة ، اذا اردنا بكلمة [بدائية] في هذا السياق اي معنى من معاني البساطة في التركيب . نعم ان كثيراً منها بسيط في الفاظه وبنائه ، لكن بعضها معقد البناء كثير الكلمات مثل لغاتنا ، بل هو ارقى في التكوين من اللغة الصينية ؛ ومع ذلك فتكاد اللغات البدائية كلها تحصر نفسها في حدود الحسي والجزئي ، وهي بصفة عامة ، فقيرة في الاسماء الكلية والمجردة . فسكان استراليا البدائيون الاصليون يطلقون اسماً على ذيل الكلب ، واسماً آخر على ذيل البقرة ، ولكن ليس في لغتهم كلمة تدل على [ذيل] بصفة عامة . واهل تسمانيا يطلقون على كل نوع من الشجر اسماً ، ولكن ليس عندهم كلمة واحدة تدل على الشجرة بشكل عام . وكذلك هنود تشكتاو Chactaw يطلقون اسماً على السنديانة السوداء ، وآخر على السنديانة الحمراء ، وثالثاً على السنديانة البيضاء ، ولكنهم لايعرفون كلمة واحدة تدل على السنديانة بصفة عامة ، ثم بالطبع ليس لديهم كلمة تدل على الشجرة بشكل عام . ولاشك ان اجيالاً من الناس تعاقبت قبل ان يستطيع الانسان ان ينتهي من اسم العَلَم الى الاسم الكلي المجرد . وفي قبائل كثيرة لاتجد الفاظاً تدل على الالوان مجردة عن الاشياء الملونة ، كلا ولاتدل عندها كلمات على مجردات مثل : نغمة ، جنس ، نوع ، مكان ، غريزة ، عقل ، كمية ، خوف ، امل . . . فمثل هذه الالفاظ المجردة تتكون وتتزايد ـ فيما يبدو ـ مع تقدم الفكر ، لان بينها وبين الفكر علاقة السبب والمسبب ، وهي بعد تكوينها تصبح ادوات تعين على دقة التفكير ، ورموزاً تدل على الحضارة .

ان الالفاظ لم تكن وسيلة للتفكير الواضح فحسب ، بل كانت سبيلاً لاصلاح التنظيم الاجتماعي كذلك ، لانها ربطت بين الاجيال المتعاقبة ربطاً عقلياً وثيق العرى ، بأن هيأت اهم وسيلة اصلح للتربية من جهة ، ولنقل المعارف والفنون من جهة اخرى . فبظهور اللغة برزت اداة جديدة تصل الافراد بعضهم ببعض بحيث يمكن للمذهب الواحد او العقيدة الواحدة ان تصب افراد الشعب في قالب واحد متجانس وفتحت طرقاً جديدة لنقل الاراء وتبادلها ، وزادت عمق الحياة زيادة عظيمة ، كما وسعت نطاقها ومضمونها .

واعظم هذه المزايا التي لالفاظ اللغة ـ بعد توسيعها للفكر ـ هي التربية . فالمدنية ثروة زاخرة تجمعت على الايام من الفنون والحكمة والوان السلوك والاخلاق ، ومن هذه الثروة الغزيرة يستمد الفرد في تطوره غذاء لحياته العقلية ، ولولا ان هذا التراث البشري يهبط الى الاجيال جيلاً بعد جيل لماتت المدنية موتاً مفاجئاً ، فهي مدينة بحياتها الى التربية .

لم تكن التربية البدائية تنتفع بالكتابة البدائية الا قليلاً ، او لم تكن تنتفع بها اطلاقاً . ولقد قويت ذاكرة الانسان البدائي بسبب انعدام المخطوطات التي تساعدهم على حفظ مايريدون الاحتفاظ به ، فتراهم يحفظون ويعون ثم ينقلون ما حفظوه ووعوه الى ابنائهم بتسميعهم اياه ، وهم يحفظون ويعون ويسمّعون كل ما يرونه مستحقاً ان يحتفظ به فيما يتعلق بحوادث تاريخهم وفي نقل تراثهم الثقافي . ولاشك ان اختراع الكتابة قد صادف معارضة طويلة من قبل رجال الدين على اعتبار انها في الارجح ستؤدي الى هدم الاخلاق وتدهور الانسان . فتروى اسطورة مصرية انه لما كشف الاله تحوت للملك تحاموس عن فن الكتابة ، أبى الملك الطيب ان يتلقى هذا الفن لانه يهدم المدنية هدماً وقال في ذلك : ان الاطفال والشبان الذين كانوا حتى الان يُرغمون على بذل جهدهم كله في حفظ ما يتعلمونه ووعيه ، لن يبذلوا مثل هذا الجهد اذا ادخلت الكتابة ، ولن يروا انفسهم في حاجة الى تدريب ذاكرتهم .

ونعود وننوه ان الانسان البدائي استعمل ، الى جانب الصوت والرموز والكتابة ، وسائل اخرى ووسائط اخرى لايصال افكاره واخباره للآخرين ، منها

استعمال الحصا من اجل العدد ، او تعيين شجرة عليها شرخ معين كمكان لاجراء المحاكمة ، حتى وصل الامر الى استعمال الاعلام بين السفن لايصال المعلومات والاخبار في البحر من والى السفينة القائدة لبقية السفن . هذا وان الاعلام نفسها تشكل نظاماً مجرداً كل التجريد من انظمة الاتصال الرمزي ، وهي تمثل كثيراً من الافكار المجردة كالملكية والوطنية والسلطة والسمعة والرتبة . . . وذلك حسب حجمها ولونها او وضعها على سارية المركب . كذلك تكون الاشارات الضوئية نظاماً ممتازاً للاتصال سواء في البر ام في البحر . ان مثل هذه الاشارات تستطيع القيام بالاتصال بالآخرين ، ولكنها محدودة الاستعمال والفائدة ، ذلك ان كل واحدة منها تعني شيئاً واحداً محدداً ، واذا جمعنا اثنين منهما او اكثر لم يعد بالامكان فهم المقصود وربما حصل عكس المطلوب . ومالم يكن المرسل والمستلم ، في نظام ارسال المعلومات هذا ، مطلعين تمام الاطلاع على المقصود من هذه الاشياء فان من المستحيل الوصول الى نتيجة ، ولكن عندما تكون كل اشارة او حركة تمثل كلمة محددة او صوتاً محدداً ، فعندئذ يكون عندنا قاعدة صلبة لايجاد لغة مكتوبة .

وليس في وسعنا اكثر من التخمين اذا اردنا ان نبحث نشوء الكتابة واصلها . فيجوز انها كانت نتيجة تفرعت عرضاً عن صناعة الخزف ، وذلك بأن نشأت عن رغبة الناس في اثبات [العلامات التجارية] على ما يصنعونه من آنية خزفية .

ويجوز ان تكون زيادة التجارة بين القبائل قد اقتضت اصطناع مجموعة من العلامات المكتوبة ، وان تكون اولى رموزها صوراً غليظة اتفق عليها الناس لتدل على السلع التي يتبادلونهافي تجارتهم وعلى ما يقوم بينهم من حساب ، لانه ما دامت التجارة قد وصلت قبائل يتكلمون لغات مختلفة ، بعضها عن بعض ، فلابد من اتخاذ وسيلة للتدوين والتفاهم يفهمها الطرفان المتعاملان معاً . ولعل اولى محاولات الانسان البدائي للاتصال عن طريق الكتابة كانت مجرد علامة بسيطة : سهم ليدل على الاتجاه الذي جرت فيه حفلة صيد . وفي وسعنا ان نفترض ان قد كانت الارقام بين اول طائفة من الرموز المكتوبة ، وانها في معظم الحالات كانت تتخذ صورة خطوط متوازية تمثل الاصابع ، ولاتزال تستعمل كلمة ارقام في اللغة

الانكليزية التي تدل على ذلك الاصل المخطوط عندما يراد التعبير عن العدد [فكلمةFigure تعني بالانكليزية شكلاً مخطوطاًاو رقماً] . ثم لاتزال كلمات مثل خمسة في اللغات الانكليزية والالمانية واليونانية ترتد الى اصل لغوي معناه [يـد] . وتشير الارقام الرومانية بصورتها الى اصابع اليد ، فالعلامة الدالة على خمسة [V] تصور يداً مفتوحة ، والعلامة التي معناها ، والعلامة الدالة على عشرة [X] تتركب من علامتين من علامات الخمسة تقابلتا عند زاويتيهما .

وكانت الكتابة في بدايتها ـ كما لاتزال عند اهل الصين واليابان ـ ضرباً من الرسم اي كانت ضرباً من الفن . كما انها كانت عاجزة عن ايصال المقصود بوضوح فاستعملت منها مايسمى الادوات التذكيرية . فكما ان الانسان كان يستخدم الاشارات حين كانت تتعذر عليه الكلمات ، كذلك استخدم الصور ، الى جانب الادوات التذكيرية لينقل افكاره عبر المكان وخلال الزمان . فكل كلمة وكل حرف مما نستعمله اليوم كان فيما مضى صورة ، كما هي عليه الحال الآن في العلامات التجارية وفي التعبير عن ابراج السماء . والصور الصينية البدائية التي سبقت الكتابة كانت تسمى [كوروان] ومعناها الحرفي [صور الاشارات] .

وكان كثير من القبائل يستعمل الى جانب الكتابة التصويرية ، الادوات التذكيرية . فبعض القبائل كان يستعمل عصياً محزوزة لتذكرهم بشيء او ليبعثوا بها رسالة . وكانت هذه العصي تستعمل في بقاع كثيرة لتسجيل ما مضى من ساعات اليوم ، او لعد كمية المحصول . هذا وان وجود حزين في المجموعة تعني الحاجة الى عدد محدد من الرجال او النساء لجني المحصول او للقيام بعمل حربي . بعد ذلك اكتشف ان خيطاً فيه عقد افضل من غيره كاداة للتذكر ، فقد كان هنود البيرو يحتفظون بمدونات طويلة من الاعداد والافكار ، بان يعقدوا حبالاً مختلفة الالوان بالعُقد والعُرى ، ولابد انه نظام متقن تمكن ان يحفظ ويراقب اعمال وسجلات شعب عجيب لايعرف القراءة ، وبلغ من اهميته وتغلغله في حياة الشعب ان الغزاة الاسبان لم يتجرؤا على الغاء طريقة حفظ السجلات هذه في البيرو وربما القي شيء من الضوء على اصل هنود امريكا الجنوبية اذا عرفنا ان هذه العادة نفسها سادت بين سكان الارخبيل الشرقي واهل بولينيزيا والصين .

وهناك قصة تقول ان الملك داريوس عقد مع رجاله خيطاً فيه ستون عقدة . وقد تقرر ان تحل عقدة واحدة كل يوم ، واذا لم يعد الملك بعد ان تحل العقدة الاخيرة كان للرجال ان يرجعوا لاوطانهم . ولايحدثنا التاريخ ما اذا كانت العقدة الستون قد حلت ام لا ؟[1]

هذا وان هذه الاشارات والادوات التذكيرية لاتزال تحيط بنا من كل جانب مثل اشارات الطريق واشارات الوقوف والسير والخاتم حول الاصبع والعلم واشارة [V] للدلالة على النصر وعلامات التنقيط واحجار الشطرنج . ومن الممكن عمل لائحة مكثفة من هذه الادوات التي هي قسم اساسي من حياتنا اليومية .

الكتابة الاولى :

ان نمو الكتابة والكتب قضية وعملية تطورية . ان الاتجاه الذي بدأ مع رسوم الكهوف الاولى حتى وصل الى احدث الادوات الالكترونية اتجاه طويل ولكنه مستقيم وذو معنى ؛ فقد قادت كل خطوة بشكل منطقي الى الخطوة التالية ؛ فقد اتى اول الامر الكلام ثم الكتابة والان الاتصال الالكتروني ، وكل واحد من هذه المنجزات كان معجزة في حد ذاته .

ولقد بدأت الكتابة الاولى تصويرية اي تصور الشيء المراد ايصال فكرته او اخباره الى الاخرين .

لقد خلف سكان كهوف العصر الحجري الاول في اوربا وشمال افريقيا على جدران كهوفهم رسوماً وصوراً واضحة ودقيقة دقة مدهشة لبعض الحيوانات التي كانت موجودة آنذاك في اماكن عيشهم ، ولكنها انقرضت الآن ، مثل البيزون وغزال الرنة والحصان البري والماموث . لقد كانت اوائل الرسوم فجة ومن الصعب تمييز المقصود منها ، ولكن الاعمال المتأخرة فيها اعمال فنية حقيقية . وقد تمكن الفنان البدائي ان يرسم الحيوانات وهي في حالة حركة وعمل ، تمثلها وهي

---

(١) Rider, A. D. Ahistory of books and libraries Metuchen, N.J., The Scarecrow Press, 1976, P. 3

تركض او تقاتل او تأكل او تموت . . . ان هذا التطور غاية في الاهمية اذ تمكن فنانو الكهوف ان يجعلوا الصور تقص القصص وتسرد الحوادث . فهنا صورة فرس جموح ، وهذه صورة بيزون يركض وهكذا [1] . ولقد استعمل الرسام البدائي الوان الارض وشحوم الحيوانات في الوان سوداء وبيضاء وحمراء وصفراء لرسم صور واقعية وحقيقية للحيوانات وللبشر . وان الرسوم التي وجدت في كهوف الصحراء الكبرى في شمال افريقيا ويعود تاريخها الى ٤٠ الف سنة قبل الميلاد تمثل مشاهد اجتماعية ومشاهد عمل تضم كثيراً من الناس . ولايدرى ما اذا كانت هذه الرسوم الجدارية في الكهوف مجرد تعبير فني ام ان لها معنى دينياً أو طقسياً [2] . لقد كانت هذه السجلات تدل على انها ذات اهمية في حياة هذه الشعوب ، ولكن الشيء المهم لنا نحن في هذا الصدد هو أن بشر ذلك العهد الموغل في القدم لم يتركوا صوراً فنية دقيقة لحيوانات ذلك العهد وكائناته الحية فقط ، ولكنهم استعملوا ما يمكن تسميته بمقابل مبسط لها ـ ملخصات مختصرة ـ يمكن اعتبارها ، حتى في ايامنا هذه ، بديلاً ذكياً لكلمة [ماموث] او غنرة . وبكلمة اخرى لقد افتتحوا عصر الكتابة بدون ان يكونوا واعين لذلك وبدون ان يدركوا القوة العظيمة التي افتتحوا عهدها في تاريخ العالم .

ولكن الذي لاشك فيه انه مرت الاف من السنين قبل ان يدرك الانسان ، الذي استعمل في بقاع كثيرة من الارض تصوير الاشياء كاسلوب للتسجيل والتدوين ، قبل ان يدرك اهمية ما خلقته يداه بهذه الكتابة التصويرية . ومما لاشك فيه فقد وجدت بدايات لاحصر لها في اماكن كثيرة من ارجاء العالم استعملت فيها الكتابة التصويرية وسيلة للتسجيل بشكل مستقل عن بعضها بعضاً . فقد استعمل هنود شمال امريكا الكتابة التصويرية اكثر من مساعد للذاكرة . فان سجل الشتاء او وصف الشتاء الذي حفظه هنود داكوتا من سنة ١٨٠٠ الى سنة ١٨٧٠ م كان عبارة عن سلسلة من ٧١ صورة رسمت على جلد

---

(١) Ogg, Oscar. The 26 letters. N.Y., The Thomas y., Crawell., 1961. P.20

(٢) Johnson, E.D. Communication... 4 the ed. Metuchen, N.J. Scarecrow Press, 1973. P. 12 – 13

ثور ، وكانت كل صورة تمثل اكثر الحوادث اهمية في شتاء سنة من السنين ، وكانت كافية لتذكير حافظ تاريخ القبيلة بما حدث وان يصف تاريخ القبيلة في تلك السنة[1] . ولقد ادخل تحسين على هذه الطريقة وذلك عن طريق الصورة القصة او الصورة الرسالة وتمكن الهنود بهذه الطريقة من تبليغ رسائل حب ، او ايصال تقرير عن رحلة صيد او حتى معاهدة بين القبائل .

وبالحقيقة لايزال يوجد في العالم حتى في ايامنا هذه شعوب لاتزال تعيش في حضارة العصر الحجري ، او انها تطورت بعض التطور بحيث انها قد خطت الخطوة الاولى فحسب في سبيلها من العصر الحجري الى عصر المعادن . ولاتزال هذه السجلات التصويرية مستعملة عند شعوب مختلفة كهنود امريكا واسكيمو القطب الشمالي وبعض القبائل في جنوبي افريقيا وكثير غيرهم من الشعوب البدائية . ولكن كثيراً من سجلاتهم هذه قد اختفت دون ان تترك اثراً ، او انها لم تتطور عن المرحلة البدائية الفجة .

ولكن هذه السجلات التصويرية تطورت في بعض الاماكن الى انظمة كتابية حتى بالمعنى الحديث لكلمة كتابة . لقد وجدت بقايا لاحصر لها في اوربا من العصر الحجري الحديث والعصر البرونزي تمثل اسلحة وادوات اخرى مصنوعة من العظام او الحجارة او المعدن وقد نقشت عليها رموز تصويرية . هذا وان بعض هذه الرموز يمثل تماماً الاشياء الاصلية المنقوش عنها . ولكن وجد هناك كثير من الرموز التي لايمكن تفسيرها ؛ وهذه ، ان لم تكن مجرد زينة ، يمكن اعتبارها اشارات ورموزاً ابتعدت كل البعد عماتمثله من اشياء بحيث اصبح من الصعب التعرف عليها ، على الرغم من انها كانت ذات معنى محدد عند البشر الذين اوجدوها . لقد وجدت مثل هذه الاشارات والرموز في جميع بقاع البحر المتوسط من شبه الجزيرة الايبرية الى وادي النيل . ويبدو ان بعض هذه الرموز كان مجرد طواطم او علامات المالك .

---

(١) IBid. P. 14

لقد كانت السجلات التصويرية البدائية تستعمل كمساعد للذاكرة او لتبليغ اقتراحات اكثر من ان تكون اشارات دقيقة محددة لما تمثله ، ومن هذا النوع لغة هنود جنوبي الاسكا . فقد رسم احد الهنود هناك على قطعة من الخشب شخصاً انسانياً ماداً ذراعيه بشكل يمثل فكرة [العدم] او [عدم امتلاك شيء] ، الى جانب رسم آخر يمثل انساناً رافعاً يده الى فمه في هيئة الاكل . وجميع الرسم يوحي بفكرة عدم وجود شيء في المنزل ليؤكل(١) .

كيف تطورت هذه السجلات التصويرية حتى اصبحت كتابة حقيقية ؟ لايمكن اعطاء جواب تام ودقيق عن هذا السؤال ، لان ظروف هذه الخطوة العظيمة من خطوات التقدم الانساني لاتزال مختفية وسط مجاهل عصور ما قبل التاريخ . ولكن طبيعة القصة كلها واضحة كل الوضوح بشكل عام ، وينبع ذلك من أقدم النماذج التي عثر عليها للكتابة الحقيقية والتي درست دراسة علمية جيدة جادة . لقد اتضح من شكل وتفسير الاحرف التي استعملت في كتابة هذه السجلات الموغلة في القدم ، ان الانسان القديم الذي تمرن مدة على استعمال السجلات التصويرية قد استغل التشابه بين بعض الاشارات التصويرية وبين بعض الاغراض والافكار ، فحاول التعبير عن الثانية برموز مبسطة من الاولى . وهكذا تطورت الرموز التصويرية تدريجياً الى ما يمكن تسميته رموزاً فكرية او رموزاً تمثل افكاراً كلية مشتقة من اشياء مادية . ولقد ابدى الذكاء الانساني مقدرة في تطوير نظام يمثل الافكار المجردة بشكل مكتوب تصل الى حد المعجزة .

ولقد انتشرت الكتابة التصويرية في بقاع كثيرة من العالم واستعملها اقوام كثيرون ومتباعدون كل التباعد . وهناك خاصة مشتركة بين جميع الكتابات التصويرية التي وجدت في انحاء العالم وهو تشابهها العام فيما بينها . فقد ظهر الرمز الدال على العدم والذي ذكرناه آنفاً في الكتابات التصويرية التي استعملتها قبائل المايا في اليوقاتانMayas of Yucatan ، وهي قبائل هندية تسكن امريكا الجنوبية ، كما ظهر نفس الرمز في الكتابة المصرية الهيروغليفبة . كما وان الكتابات

---

(١) Ullman. op. cit. P. 6

التصويرية تشترك في خاصة اخرى شائعة هي تقليدها للاشارات التي كانت شائعة بين الاقوام البدائية لايصال الافكار .

قد ثبت بشكل قاطع ان اقدم الكتابة كان تصويرياً ، ولاشك ان الانتقال من تصوير الشيء ذاته الى تصوير الفكرة التي يمثلها الشيء او تصوير الافكار المجردة قد استغرق وقتاً طويلاً ، ولكن ذلك تم على الغالب اما بواسطة الخيال المبدع ، او بواسطة تجميع الرموز التي تدل على اشياء مادية واستعمالها من اجل التعبير عن فكرة او شيء مجرد . وهكذا فالرمز الدال على [الاذن] امكن استعماله ايضاً للدلالة على [السمع] ورمز [الشمس] امكن استعماله من اجل [اليوم] وهكذا . ولانزال نجد في كتاباتنا اثاراً من الكتابات التصويرية ، مثل السهم الدال على الاتجاه .

ولقد ظلت الكتابة التصويرية مستعملة دون انقطاع من اقدم عصورها حتى الان . ومع مرور الزمن فقد جنحت الكتابة التصويرية لان تصبح اكثر اصطلاحية في اشكالها حتى لقد اصبح التعرف عليها اكثر صعوبة . وتعتبر الكتابة الصينية الممثل البارز لهذا النوع من الكتابة في هذه الايام . ولكن الكتابة التصويرية واجهت ، من اقدم عهودها ، عقبات خطيرة وكان لها حدود لم تتمكن من تخطيها . لقد زادت الحاجة الى خلق مزيد من الرموز التي تدل على الافكار الجديدة والاشياء المجردة التي نمت وتطورت مع ازدياد النشاط الانساني وزيادة تعقيده ، ومع النمو المتواصل للافكار . وهذا ما عجزت عنه الكتابة التصويرية . وعلاوة على ذلك ، فقد اصبح من المستحيل تعلم الاشارة والرموز التصويرية المتزايدة باستمرار حتى لشخص خصص كل حياته لذلك .

ولذلك تم الانتقال الى مرحلة ثانية هي مرحلة الكتابة التصويرية الفكرية . وهي تمتاز ببساطتها ووضوحها ، وهي تطور لآخر مراحل التصويرية . ومع ذلك فقد كان على المرء عندما يريد ان يعبر عن الاشياء المجردة ، مثل الشجاعة ، ان يمثل هذه الاشياء بشكل اكثر اتقاناً ودقة وتعبيراً . ففي الكتابة المصرية القديمة كانت صورة النسر تمثل النسر نفسه ، ولكن عندما اراد المصريون ان يستعملوا نفس الصورة للتعبير عن فكرة الالوهية او فكرة الروح

منحوه وجه انسان وجسدوا به هذه الفكرة . ورمز الماء مع رمز الفم يعني العطش ، كما ان جمع رمز العين والماء يعني البكاء . ولكن بقيت هذه الكتابة عاجزة عن التعبير الدقيق عن الافكار وبدأت الشعوب التي استعملت هذه الكتابة تحاول التخلص من الصعوبات التي اوجدها اتباعهم الكتابة التصويرية بنوعيها . ذلك ان اقدم السجلات المكتوبة التي وصلتنا يبدو فيها واضحاً الانتقال من الكتابة التصويرية التي تمثل فيها الرموز الافكار ، الى الكتابة الصوتية حيث تمثل الرموز الاصوات .

بدايات الكتابة الصوتية :

ولقد تطلب انجازالانتقال من الكتابة التصويرية الى الكتابة الصوتية عدة الاف من السنين ، وذلك بسبب معارضة طبقة رجال الدين التي احتكرت هذا الامتياز ، وطبقة الحكام التي ساعدتها في ذلك ، لان الكتابة الصوتية اسهل ويمكن ان تصبح هذه الكتابة اداة في يد الجماهير ، وهذا ما لاتريده الطبقة الممتازة التي احتكرت العلم والثقافة لنفسها .

ان من السهل ان نرى كيف تم الانتقال من الكتابة التصويرية الى الكتابة الصوتية . لقد اقترنت اغلب الرموز التصويرية في اساليب الكتابة التصويرية القديمة مع اصوات الكلمات الملفوظة التي اعطيت لتسمية الاشياء التي تمثلها الرموز . ولقد كان من الطبيعي ان يمثل صوت الكلمة فذلك اسهل من استعمال الرمز ، وذلك عند شعورنا ان مثل ذلك اصبح مرغوباً فيه . اننا نفترض ان مثل هذا التغيير بدأه بعض الكتاب القدامى عندما ووجهوا بكتابة بعض الاسماء الاجنبية ، او بكتابة اسم احد انباء جلدته وليس لديه رمز يمثله . لقد استطاع ان يحل هذه المشكلة افضل حل وذلك باستعماله المقاطع الصوتية التي تمثل الاسم الشاذ الغريب . فمثلاً مر مع الكاتب اسمManhattan وليس لديه للتعبير عنه سوى الرموز التصويرية وليس بينها رمز يدل عليه ، ولذلك استعمل في كتابته ثلاثة رموز ؛ وهي رمز الانسانMan ورمز القبعةHat ورمز العشرةTen . واذا امكن استعمال رمز الانسانMan في هذه الكلمة ، امكن استعماله في كل كلمة

فيها صوت يمثله ذلك الرمز مثل كلمةHuman ,Mandate هكذا كانت البدايات الاولى للكتابة الصوتية التي وجدت بشكل فج بدائي في اقدم السجلات المكتوبة . ولكن القضية التطورية سارت شوطاً ابعد واعقد . فالرمز المكتوب الذي امكن استعماله ليمثل صوت كلمة كاملة يمكن استعماله مع مضي الزمن ليمثل رمز تلك الكلمة او صوتها . وهكذا فرمز كلمة [رجل] التي تمثل باحرفها الثلاثة رجلاً من الرجال امكن استعمالها ليس فقط لصوت رجل ، وانما امكن استعمالها ايضاً ، مع تطور الكتابة الصوتية المستمر ، لتمثل صوت رج ، ومن ثم لتمثل صوت حرف الراء .

وهكذا اصبح الرمز يسمى بموجب الصوت الاولى من الكلمة التي يمثلها الرمز . فان رمز الفم في اللغة والكتابة المصرية القديمة هوO . وتعني في اللغة المصرية كلمة روRO الفم ، ولذلك اصبح الرمزO يمثل الصوتR . ورمز الثور في الفينيقية هوD ويسمى الثور في الفينيقية الفAleph واصبح الرمزD هو Aويسمى الف . هذا وان تسمية الرموز بهذه الطريقة كانت خطوة قريبة كل القرب من الألفبائية .

الكتابة المصرية :

ان الحضارة المصرية القديمة تتعاصر مع حضارة سومر ، ولايزال البحاثة والمؤرخون مختلفين حول اسبقية حضارة مصر او حضارة سومر . ونحن هنا لايهمنا هذا الجدل ، وانما يهمنا القول ان المصريين القدامى وسكان بلاد الرافدين القدامى [السومريون في جنوبي البلاد والاكاديون في شمالها] اوجدوا في كل من مصر وبلاد الرافدين اولى الحضارات الانسانية . ولقد كانت الكتابة في كلا البلدين احد الانجازات الحضارية الكبرى لتلك الشعوب . هذا وان اقدم النصوص المكتوبة في كلا البلدين يعود تاريخها الى الربع الاخير من الالف الرابع قبل الميلاد .

لقد وصل قدماء المصريين الى حد الاستطاعة ان يكتبوا كتابتهم بنجاح تام بطريقة تصويرية ومن ثم صوتية ، او بالطريقتين معاً . ويبدو ان اقدم النماذج في الكتابة المصرية كانت تصويرية ، تعبر عن الشيء برسم صورة له . فكانت كلمة

بيت مثلاً[وهي في اللغة المصرية بد] يرمز لها بشكل مستطيل ذي فتحة في احد طوليه . ولما كانت بعض المعاني مجردة الى حد يصعب معه تصويرها حرفياً ، فقد استعيض عن التصوير بوضع رموز للمعاني ، فكانت بعض الصور تتخذ بحكم العادة والعرف للتعبير عن الفكرة التي توحي بها لاعن الشيء المصور نفسه . فكان مقدم الاسد يعبر عن السيادة [كما في تمثال ابي الهول] ، وكان الزبنور يعبر عن الملكية وفرخ الضفدع عن الالاف . وقد سميت هذه اللغة الهيروغليفية ـ وهي كلمة يونانية مركبة من كلمتين الاولى مقدس والثانية ينقش ـ هذا وان الغاية الرئيسية من كتاباتهم هذه هي ايجاد اداة فعالة وناجعة ليخلدوا على الاثار والمعابد منجزات واعمال ملوكهم ، ولقد اكتشف بعد فترة قصور هذه الكتابة عن تمثيل الافكار المجردة ، ولذلك سارت عملية التطور خطوة كبيرة الى الامام ، ولكن في نفس الاتجاه العام للكتابة . ذلك انه اصبح بامكان الكاتب المصري ان يعبر عن المعاني المجردة التي عجز اول الامر عن تمثيلها ، وذلك برسم صور للاشياء تشبه اسماؤها مصادفة الالفاظ التي تعبر عن المعاني . من ذلك ان صورة المزهر لم تكن تعني المزهر نفسه فحسب ، بل كان معناها ايضاً طيب او صالح ، لان نطق اسم المزهر في اللغة المصرية ـ نِفِر ـ شبيه بنطق اللفظ الذي يعبر عن معنى طيب او صالح ـ نُفِر ـ ونشأت من هذا الجناس اللفظي ، اي من الالفاظ المتفقة في اللفظ والمختلفة في المعنى ـ تراكيب غاية في الغرابة ـ من ذلك ان فعل الكينونة كان يعبر عنه في لغة الكلام بلفظ خو بيرو . وقد عجز الكاتب المصري ، اول الامر ، عن ايجاد صورة يمثل بها هذا المعنى الشديد التجريد ، حتى اهتدى اخيراً الى تقطيع الكلمة الى ثلاثة مقاطع خو ـ بي ـ رو ، ثم عبر عن هذه المقاطع الثلاثة بصور الغربال [الذي يعبر عنه بلغة الكلام بلفظ خو] وبالحصيرة [بي] وبالفم [رو] . وسرعان ما جعل العرف والعادة ، اللذان يخلعان القدسية على كثير من السخافات ، هذا الخليط العجيب من الحروف يوحي بفكرة الكينونة . وعلى هذا النحو عرف الكاتب المصري مقاطع الكلمة والصورة التي ترمز لكل مقطع ومجموعة الصور التي ترمز لكل لفظ ، فكان الكتاب يقطعون الكلمة مقاطع ويبحثون عن الالفاظ المشابهة لهذه المقاطع نفسها في النطق ، والمغايرة لها في

المعنى ، ويرسمون مجموعة الاشياء المادية التي توحي بها اصواتها ، حتى استطاعوا اخر الامر ان يعبروا بالعلامات الهيروغليفية عن كل ما يريدون . فلا يكاد يوجد معنى من المعاني لايستطسعون التعبير عنه بعلامة او بمجموعة من العلامات .

ولم يكن بين هذا وبين اختراع الحروف الهجائية الا خطوة واحدة . لقد كانت العلامة الدالة على البيت تعني اولاً كلمة بيت - بر - ثم اصبحت رمزاً للصوت - بر - ، ثم لهذين الحرفين اياكانت حركاتهما وفي أية كلمة جاءتا . ثم اختصرت الصورة واستخدمت للدلالة على الباء ايا كانت حركتها وفي أية كلمة كانت . واذا كانت الحركات لاتكتب عقب الحروف بل تهمل تماماً فان هذه الصورة تمثل حرف الباء . وعلى هذا النمط عينه اصبحت العلامة الدالة على اليد [وتنطق باللغة المصرية دُت] تعني دُ ، دَ ثم اصبحت هي حرف د . وكذلك صارت العلامة الدالة على الفم [رُ ، رَ] ثم اصبحت حرف الراء والعلامة الدالة على الثعبان هي حرف ز ، وعلامة البحيرة [شى] هي حرف ش ... وهكذا .

لقد استعمل المصريون رموزاً كثيرة جداً ، بلغ عددها حوالي ٣٠٠٠ اشارة ، اثناء تطويرهم لمثل هذا الاسلوب الصوتي من الكتابة مما سبب لهم كثيراً من الاضطراب . لقد استعملوا حوالي عشرين رمزاً للحرفA وحوالي ثلاثين للحرفH ، وهكذا . وقد بلغ مجموع هذه الرموز ما بين المائتين الى الاربعمائة ، وكان من الممكن استعمالها كلها صوتيا مع حوالي [٩٠] رمزاً اساسياً تستعمل في المساعدة على اثبات هوية الكلمات . ولقد قضت العادة ان يستعمل بعض هذه الرموز في المناسبات الخاصة . وعلى الرغم من وجود رموز مختلفة يمكن استعمالها لكتابة احرف A,M,N، إلا أنه استعمل شكل موحد من انواع الرموز لكتابة اسم الالة آمون . وكذلك خصص لكتابة اسماء الملوك عدد من الاحرف الصوتية اعتبرت مفضلة لذلك . ولكن استعمال بقية الرموز خضع لرغبات واذواق الكتاب المتعددي النزعات والمشارب .

ولم يتخذ المصريون لهم كتابة قائمة كلها على الحروف الهجائية وحدها ، لحكمة في ذلك او لغير حكمة ، بل ظلوا حتى آخر عهود حضارتهم يخلطون بين

حروفهم وبين الصور الدالة على الرموز وعلى الافكار ، وعلى مقاطع الكلمات . ومن اجل ذلك صعب على العلماء ان يقرأوا الكتابة المصرية . ولكن من السهل علينا ان نتصور ان هذا الخلط بين الكتابة بالطريقة المعتادة وبطريقة الاختزال ، قد سهل عملية الكتابة للمصريين الذين كانوا يجدون فسحة من الوقت لتعلمها .

ولتسهيل عملية تعلم وحفظ الاربعمائة رمز هيروغليفي ومعانيها المقطعية واستعمالاتها على شكل حروف هجائية نشأ شكل سريع سهل من اشكال الكتابة ، استخدم في الكتابات العادية واحتفظ بالطراز الاول منها ليستخدم في النقوش المقدسة على الآثار . واذا كان الكهنة وكتبة الهياكل هم اول من مسخ هذه الكتابة الهيروغليفية على هذا النحو فقد اطلق عليها اليونان اسم الكتابة الهيراطية [المقدسة] ، ولكن سرعان ما عم استعمالها في الوثائق العامة والتجارية والخصوصية . ثم نشأ على يد الشعب نفسه نمط آخر من الكتابة اكثر من النمط الثاني اختصاراً واقل عناية ، ولذلك سمي بالكتابة الديموطية [الشعبية] . ولكن المصريين كانوا يصرون على ان لاينقشوا على آثارهم الا الرموز الهيروغليفية الفاخرة الجميلة ، ولعلها اجمل نمط من الكتابة عرف حتى الآن .

الكتابة في بلاد الرافدين :

سكن في جنوبي بلاد الرافدين ، من عصر موغل في القدم ، قوم عرفوا بالسومريين . ولايعرف بالضبط اصلهم ، الا ان المقطوع به انهم ليسوا ساميين . ولقد اوجدوا حضارة متقدمة ووجد لديهم لغة مكتوبة وسجلات ومكتبات وادب متطور وعلوم وكل مظاهر الحضارة . ولن نبحث هنا اصل السومريين ولا منجزاتهم الحضارية ، وانما يهمنا هنا اسلوب الكتابة الذي طوروه . وعلى الرغم من ان بعض البحاثة ذكر ان السومريين هم الشعب الذي يوصف انه اقدم من اوجد عملية الكتابة بمعناها الحقيقي [١] ، الا انه وجد بحاثة آخرون يشكون ما اذا كان السومريون هم الذين اخترعوا الكتابة في بلاد

(1) Encyclopedia of library and information Science. Ed. by, V.4 . P.1

الرافدين (١) . ومهما يكن من شيء فالكل مجمعون على انهم طوروا فن الكتابة عندهم بطريقة خاصة ادت الى ظهور الكتابو المسمارية . ولقد اشترك في تطوير فن الكتابة في بلاد الرافدين السومريون ومن بعدهم البابليون ومن ثم الاشوريون . لقد تمكن السومريون والبابليون من ايجاد وتطوير نظام للرموز الصوتية ، ولكن هذه الرموز اتجهت نحو ان تكون مقطعية . وهكذا وجد اشارة مستقلة مكتوبة لكل من المقاطع التالية كا ، كو ، كي . . . الخ . وتوصف الكتابة السومرية انها كتابة متعددة المقاطع ، فقد ارتبطت جميع الصور السومرية مع الكلمات التي كانت تقرأ بواسطتها . فقد كان الجبل يلفظKur . وهكذا فالرمز المخصص للجبل كان يقترح بالضرورة صوتKur . والرمز المخصص للماء يقرأa ، والرمز المخصص للفمKa . ان هذه الاصوات المختلفة قد اشتركت اشتراكاً وثيقاً مع صور الاشياء التي كانت تدل عليها . ان الطريقة الوحيدة لكتابة اسم ليس له ما يمثله من قبل هو ان نحشد سوية رمزين او ثلاثة رموز بحيث ان الصوت المركب الناتج يمكن ان يمثل اما اسم الشخص او الفكرة الخاصة التي نريد التعبير عنها . وهكذا اذا اراد الكاتب ان يمثل اسم شخص ولنفرض انه كوراكاKuraka فان عليه ان يكتب الرمز الدال على الجبل والرمز الدال على الماء والرمز الدال على الفم ، وينسى فوراً ما تمثله هذه الرموز من اشياء مادية .

وتعتبر الكتابة من اروع ما خلفه السومريون . ويبدو هذا الفن عندهم فناً عظيماً راقياً كل الرقي صالحاً للتعبير عن الافكار المعقدة كالتجارة والشعر والدين والادب . والنقوش الحجرية اقدم ما عثر عليه من نقوش ، ويرجع تاريخها الى حوالي ٣٠٠٠ ق.م . وتبدأ الالواح الطينية في الظهور حوالي ٢٨٠٠ ق.م ، ويلوح ان السومريين بدأوا يجدون منذ ذلك الوقت في هذا الكشف ما ترتاح اليه نفوسهم ويفي باغراضهم . ولقد كان من حسن حظنا ان سكان وادي الرافدين لم يكتبوا بالمداد السريع الزوال على الورق السريع العطب القصير الاجل ، بل كتبوا على الطين الطري ونقشوا عليها ما يريدون نقشه بسن آلة حادة كالاسفين أو

---

(١) Chiera, Edward. They Wrote on Clay... ed. by G.Q. P. 26, Cameron. Chicago, Phoenix Books, 1957. P. 50

باستعمال قلم من الغاب ذي رأس مثلث الشكل يدعىStylus . وان من اهم نتائج استعمال الطين الطري كمادة كتابية لدى السومريين هو الكتابة المسمارية . فقد اتت كلمة مسماريةCuneiform من مقطعين لاتينيين الاولCuneus والثاني Forma اي شكل الاسفين . ولقد بذل اوائل الكتبة قصارى جهدهم لجعل صورهم المكتوبة على الطين الطري مشابهة للموضوعات الاصلية التي تمثلها تلك الصور ، ولكن ، مع ذلك ، زالت عبر العصور تلك الصور ولم يعد الكتبة يمثلون سوى الرموز التي تطورت عن الصور القديمة . ولقد فقدت غالبية هذه الرموز كل شبه يربطها بسابقاتها التي اشتقت منها ، ولكن اصبح لها قيم صوتية لاعلاقة لها بالرموز الصورية التي كانت تمثلها .. وكان الكتاب السومريون جد مهرة واستطاعوا ان يحتفظوا بفضل كتاباتهم ولوحاتهم الفخارية بالسجلات وان يدونوا العقود ويكتبوا الوثائق الرسمية ويسجلوا البيوع والممتلكات والاحكام القضائية ، وان يخلقوا من هذا كله حضارة لم يكن القلم فيها اقل قوة من السيف . وكان الكاتب اذا اتم ما يريد كتابته جفف اللوح الطيني في النار او عرضه لحرارة الشمس فجعله بذلك مخطوطاً ابقى على الدهر من الورق ، ولايفوقه في طول العمر الا الحجر وحده . وكان نشأة هذه الكتابة المسمارية وتطورها اعظم ما للسومريين من فضل على الحضارة العالمية . وتقرأ الكتابة السومرية من اليمين الى اليسار . والبابليون ، فيما نعلم ، هم اول من كتب من اليسار الى اليمين . ولعل الكتابة في سطور كانت نوعاً من العلامات والصور التي جرى بها العرف والتي كانت تنقش او تصور على الاواني الخزفية السومرية البدائية . واكبر الظن ان الصور الاصلية قد صغرت وبسطت خلال القرون وبسبب الرغبة في سرعة كتابتها . حتى اصبحت شيئاً فشيئاً علامات تختلف في شكلها اختلافاً تاماً عن الاشياء التي كانت تمثلها ، فصارت بهذا رموزاً للاصوات لاصوراً للاشياء . وكما قلنا سابقاً ، فان الكتابة السومرية متعددة المقاطع . وهنا يستطيع المرء ان يتخيل العدد الكبير من المقاطع المزدوجة التي كانت تمتلكها تلك اللغة في مفرداتها ، ولكن ، مع مرور الزمن ، ركز الكتاب على استعمال رمز واحد من هذه الرموز المزدوجة والمتضاعفة اكثر من البقية ، حتى اصبح هذا الرمز هو وحده الممثل لذلك الصوت .

ويغلب على الظن ان الانتقال من الكتابة الى الادب تطلب عدة قرون .
فقد ظلت الكتابة قرونا عدة اداة تستخدم في الاعمال التجارية لكتابة العقود والصكوك وقوائم البضائع التي تنقلها السفن . . . ولعلها كانت ايضاً اداة لتسجيل الشؤون الدينية ومحاولة الاختفاظ بالطلاسم السحرية والاجراءات المتبعة في الاحتفالات والمراسم والاقاصيص الدينية والصلوات والتراتيل حتى لاتبيد ولا يدخل عليها المسخ والتغيير . ومع هذا لم يحل عام ٢٥٠٠ ق.م حتى كان عدد كبير من دور الكتب العظيمة قد انشيء في المدن السومرية . فقد كشف دهسرزاك في مدينة تللو مثلاً ، وفي انقاض ابنية معاصرة لحكم غوديا مجموعة مؤلفة من ثلاثين الف لوح موضوعة بعضها فوق بعض في نظام انيق منطقي دقيق . وبدأ المؤرخون السومريون منذ عام ٢٠٠٠ ق.م يكتبون ماضيهم ويسجلون حاضرهم ليخلفوه لمن يجيء بعدهم .

وتعتبر الكتابة المسارية هذه ثورة في عالم الخطوط والكتابة بالنسبة للكتابة التصويرية القديمة ، ولكنها كانت نوعاً مبسطاً من الكتابة المبسطة ومقطعية ويحتاج تعلمها الى عدد من السنين تخصص لدراستها واتقانها .
ولقد حيرت الكتابة البابلية العلماء فظلوا مئات السنين عاجزين عن حل رموزها . وكان نجاحهم في حلها آخر الامر عملاً من أجل الاعمال في تاريخ العلم .

ولقد ثبت من الابحاث المتواصلة التي جرت ، ومن دراسة اللوحات البابلية ان اللغة البابلية القديمة لغة سامية نشأت من تطور لغتي سومر وأكاد ، فكانت تكتب بحروف سومرية الاصل ، ولكن مفرداتها اختلفت عنها على مر الايام ، حتى استلزم هذا الاختلاف بين اللغتين السومرية والبابلية وضع معاجم وقواعد في النحو والصرف يستعين بها العلماء والكهنة من الشبان على تفهم اللغة السومرية [الفصحى] والكتابات السومرية الكهنوتية . ومن اجل هذا نرى نحو ربع الالواح التي عثر عليها المنقبون في المكتبة الملكية في نينوى معاجم في اللغات السومرية والبابلية والاشورية وكتباً في نحوها وصرفها . والعلامات في اللغة البابلية كالعلامات في اللغة السومرية لاتدل على حروف وانما تدل على مقاطع ،

ذلك ان البابليين لم يضعوا لها حروفاً هجائية مستقلة ، بل ظلوا طوال عهدهم قانعين بطائفة من المقاطع يرمزون لها بنحو ثلاثمائة علامة من العلامات . فكان بامكانهم ان يمثلوا برمز واحد خرفاً صوتياً وآخر ساكناً مثل المقطعBa او معكوسة Ab .

وقد كان حفظ هذه الرموز المقطعية عن ظهر قلب ودراسة قواعد الحساب والتعاليم الدينية المنهج المقرر في مدارس الهياكل حيث كان الكهنة يلقنون الناشئة ما هو جدير بالدرس والمعرفة .

ولم يواصل البابليون والاشوريون من بعدهم تطوير كتابتهم حتى تصبح هجائية ، ويبدو انه لايمكن اتهامهم بانهم كانوا عاجزين عن مواصلة تطوير كتابتهم حتى تصل الى نهايتها المنطقية التي هي الهجائية ، بل يبدو انهم رفضوا ان يدخلوا اية تغييرات اخرى على كتاباتهم وذلك بروح المحافظة من جهة ، ولخوفهم من قطع صلتهم بتراثهم القديم الموروث العزيز على قلوبهم مما جعلهم يرفضون اي تغيير . فقد كانوا يعرفون جيداً ان بامكانهم ، مع بعض التغييرات القليلة ان يوجدوا نظاماً هجائياً ،لانه وجد بين ظهرانيهم كتاب اتوا من بلاد اجنبية . ولكن البحاثة رفضوا ان يتخلوا عن تقاليدهم القديمة واستمروا عليها .

وكان البابليون ، كاسلافهم السومريين وخلفائهم الاشوريين ، يكتبون على الواح من الطين الرطب بقلم ذي طرف شبيه بالمنشور الثلاثي او الاسفين ، فاذا امتلأ اللوح كتابة حفظوه او حرقوه فكان بذلك مخطوطاً غريباً طويل البقاء . واذا كان المخطوط رسالة نثر عليها التراب الناعم ووضعت في مظروف من الطين وبصمت بخاتم مرسلها الاسطواني . وكانت الالواح الطينية المحفوظة في جرار مصنفة ومرتبة على رفوف تملأ عدداً كبيراً من المكتبات في هياكل الدولة البابلية وقصورها ، ولقد ضاعت هذه المكتبات ، ولكن واحدة من اعظمها وهي مكتبة بورسيا قد نسخت وحفظت في مكتبة اشوربانيبال ، وكانت الواحها البالغ عددها ٣٠٠٠٠ لوح اهم مصدر استقينا منه معلوماتنا عن الحياة البابلية .

هذا وقد اوجد السومريون والبابليون والاشوريون حضارة رائعة وخلفوا آداباً رفيعة في حد ذاتها ، واصبحت الآن اللغة الاشورية والكتابة الاشورية مهمة

كل الاهمية لفهم بعض اللغات السامية الاخرى التي تشابهها كل المشابهة ولاسيما اللغة العبرية ، واصبح علم الاشوريات في كثير من المعاهد علماً مهماً كل الاهمية ويدرس لذاته وابعدت عنه الدراسات العبرية .

الكتابة الصينية :

لقد بدأت الكتابة الصينية تصويرية ، ولكن هذه الكتابة وصلت في حدود سنة ١٠٠٠ ق.م الى درجة من التطور المنهجي بحيث اختفت نهائياً العناصر التصويرية منها ، ثم تمركزت في شكل الكتابة المقطعية التي ظلت ثابتة على حالها حتى ايامنا هذه . ولغة الصينيين تختلف عن سائر لغات العالم ، ذلك انه ليس لها حروف ولاهجاء ولانحو ولاتنقسم الى اسماء وافعال وحروف . فكل كلمة فيها قد تكون اسماً او فعلاً او صفة او ظرفاً بحسب سياقها وطريقة النطق بها . ولما كانت اللهجات الكلامية لاتحتوي على اكثر من ثلاثمائة او اربعمائة لفظ صوتي ذي مقطع واحد ، ولما كانت هذه المقاطع هي التي تستعمل للتعبير عن الاربعين الف حرف المستخدمة في اللغة الكتابية ، فان لكل واحد من هذه الالفاظ الصوتية [نغمات] تختلف من اربع الى تسع بحيث يختلف معناه باختلاف طريقة التغني به .

وكانت لغة الكتابة اكثر اختلافاً عن سائر لغات العالم من لغة الكلام ، وهي لاتزال تستعمل في التعبير عن اللغة الصينية ، ولذلك فان اللغة الصينية هي اقدم اللغات التي ينطق بها الناس في هذه الايام واوسعها انتشاراً . وكان الصينيون في بادئ الامر يعقدون عقداً في خيوط لينقلوا بها رسائلهم ، واكبر الظن ان حاجة الكهنة الى نقل الطلاسم السحرية وحاجة الفخرانيين الى تمييز آنيتهم بعضها عن بعض هي التي ادت الى الرموز التصويرية . وكانت هذه الرموز المصورة البدائية منشأ العلامات الستمائة ، وهي الرموز الاساسية في الكتابة الصينية . وقد سمي نحو مائتين واربعة عشر رمزاً منها [اصولاً] لانها عناصر اساسية . وجميع حروف اللغة الدارجة ، والحروف المستعملة في الوقت الحاضر ، رموز معقدة غاية التعقيد اثقل فيها العنصر التصويري البدائي بزيادات كثيرة يقصد بها تحديد معنى اللفظ

تحديداً واضحاً ، ويكون ذلك في العادة ببيان مايطرأ من تغيير على نغمته . ولم يكتف الصينيون بأن يجعلوا لكل كلمة ينطقون بها علامة ، بل انهم يجعلون لكل فكرة ايضاً علامة خاصة . فهذه علامة يرمز بها للحصان ذي البقعة البيضاء في جبهته . ولايزال بعض هذه الرموز بسيطاً بساطة نسبية : فالقوس فوق خط مستقيم [اي الشمس فوق الافق] معناهما الصباح . والشمس والقمر مجتمعين يمثلان [الضوء] . والفم والطائر معاً معناهما [الغناء] . والمرأة تحت سقف معناها [السلام] . والمرأة والفم والعلامة الدالة على الالتواء يتكون منها الرمز الدال على معنى [خطر] . والنزاع يعبر عنه بامرأة ذات فمين . والزوجة يعبر عنها بالعلامات الدالة على امرأة ومكنسة وزوبعة .

ولقد استطاع اهل هذه اللغة البدائية ـ من بعض الوجوه ـ ان يبقوها حية بمحافظتهم الشديدة عليها . والصعوبات الكامنة في هذه اوضح من مزاياها وفضائلها . ويقال ان الصيني يحتاج الى ما بين عشر سنين وخمسين سنة ليتعلم فيها جميع الاربعين الف رمز التي تتكون منها لغته . غير ان الصيني العادي يكفيه ثلاثة آلاف علامة أو أربعة آلاف ، وإن من السهل عليه أن يعرف هذا العدد بمعرفة اصولها سالفة الذكر . واوضح ميزة لهذه اللغة المكتوبة هي ان الكوريين واليابانيين يسهل عليهم ان يقرأوها كما يسهل ذلك على ابناء الصين . يضاف الى ذلك انها تجمع في نظام واحد من نظم الكتابة بين جميع سكان الصين الذين تختلف لهجاتهم اختلافاً يجعل التفاهم بينهم يكاد يكون مستحيلاً ، حتى الرمز الواحد يقرأ باصوات مختلفة وكلمات مختلفة في مختلف البيئات ، ذلك ان لغة الكتابة بقيت واحدة في جوهرها ، على حين ان لغة الكلام قد تفرعت الى ما ينوف على مائة من اللهجات . ومن اجل هذا كان في وسع الصيني غير الامي ان يقرأ الادب الصيني الذي ظل يكتب بهذه الحروف نحو الفي عام كاملة . ولذا كانت الكتابة الصينية عامل توحيد في عالم مختلف . ولذا حرص القوم عليها وتمسكوا بها اشد التمسك لئلا يؤدي التغيير الى تمزق الامة التي يحرصون على وحدتها اكثر من اي شيء آخر .

كتابات اخرى :

لابد من ملاحظة ان عملية تطور الكتابة اختلفت عبر الزمان والمكان . فبعض الكتابات لاتزال تصويرية ، وبعضها وصل الى مرحلة المقطعية ، وبعضها اصبح هجائياً . وهناك مناطق في العالم سارت فيها العملية التطويرية ابعد واسرع مماسارت في اماكن اخرى . كما وان كثيراً من الكتابات زالت من الوجود ، وبعضها اكتشف وبعضها اما زال او انه لازال غارقاً في الظلام ، كما وان كثيراً من الكتابات درست وحلت رموزها ، على حين لايزال هناك كتابات غامضة تنتظر من يحل رموزها وقد بذل العلماء والمؤرخون جهوداً جبارة في هذا السبيل ، ولايزالون .

ولقد حل وفهم معنى كثير من الكتابات القديمة التي اكتشفت ، وذلك عند وجود امثلة كثيرة من نفس النوع ، او وجد نصوص كتبت بعدد من اللغات والخطوط . فمثلاً كتب الحثيون الذين عاشوا في اسيا الصغرى وشمالي سورية ، وعاصروا المصريين والبابليين وتأثروا بهم ، لغتهم بالكتابة التصويرية وبالكتابة المسمارية التي استعاروها من البابليين . وقد تمكن العلماء من حل رموز الكتابة الاخيرة وحققت خطوات كثيرة في سبيل حل رموز الكتابة الاولى . كما وانه تم نجاح مماثل في حل الكتابات التي اكتشفت في كريت في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن على يد البحاثة الانكليزي سيرارثر ايفانس وغيره . ذلك ان كريت اصبحت في النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد مركزاً من مراكز الحضارة الرفيعة في البحر الابيض المتوسط ووصل اشعاعها الى ارض اليونان ومنطقة البحر الايجي . ولقد اوجد الكريتيون نظاماً مقطعياً للكتابة هو عبارة عن كتابة متصلة الحروفCursive وقد اسماها العلماء باسمLinear B ولقد جرت عدة محاولات لتفسير وقراءة نصوص هذه الكتابة ، ولكن لم يكتب لاحدها النجاح . ولكن تمكن في الخمسينات من هذا القرن عالم شاب من انكلترا هو مايكل فانتريس Micheal Ventris ان يحل رموز هذا الخط . فقد افترض هذا الباحث ان خط لانير بLinear B هو لغة اغريقية او على الاقل شكل قديم من اشكال الاغريقية . وقد كان استنتاجه صحيحاً وتمكن عن طريق تطبيق مبدأ الدراسة

الموازنة التحليلية ان يحل رموز هذا الخط القديم حلاً جيداً مقبولاً وكان ذلك سنة ١٩٥٢ م . كذلك لايزال يوجد كثير من الكتابات القديمة التي لم تحل رموزها وهي بانتظار البحاثة والعلماء . منها نص وجد في قبرص ، ونقش قديم يعود عهده للاتروسكين سكان ايطاليا القدماء قبل الرومان . ولقد طور شعب المايا من امريكا الوسطى اسلوباً كتابياً تصويرياً متقناً ، وقد امكن حل بعض الارقام والتواريخ ، ولكن لم يمكن حل وفهم نصوص اللغة نفسها .

لعل من المفيد ، قبل ان نختم هذا الفصل عن تطور الكتابة في العالم القديم حتى اختراع الحروف الهجائية ، ان نأتي بلمحة سريعة عن قصة كشف وحل رموز بعض هذه الكتابات القديمة كالهيروغليفية والمسمارية ، وهي قصة جديرة ان تروى وتعتبر من اروع القصص في العالم اثارة وأهمية .

ان الكشف عن تاريخ مصر القديم لهو اروع فصل في كتاب علم الآثار . هذا وان علم الآثار المصرية الحديث هو نتيجة ثانوية من نتائج الحملة الفرنسية الاستعمارية على مصر وحروب نابليون بونابارت في الشرق . فمن المعلوم ان نابليون بونابارت لما قاد الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م اصطحب معه طائفة من العلماء الذين كانوا يهتمون بمصر اهتماماً ظنه الناس آنذاك سخيفاً لامعنى له ، وكانوا يسعون لفهم التاريخ فهماً اوفى وافضل مما كان يفهمه المؤرخون آنئذ . وكانت هذه المجموعة من العلماء هي التي كشفت للعالم الحديث عن هياكل الاقصر والكرنك ؛ كما كان كتاب وصف مصر المحكم المفصل ١٨٠٩ ـ ١٨١٣ م الذي اصدره المجمع العلمي الفرنسي اول خطوة هامة خطاها العلماء في سبيل دراسة هذه الحضارة المنسية .

على ان هؤلاء العلماء ظلوا سنين طوالاً عاجزين عن قراءة النقوش الباقية على الآثار المصرية ؛ وليس ما بذله شامبليون احد هؤلاء العلماء من جد وصبر في سبيل حل رموز الكتابة الهيروغليفية الا شاهداً من شواهد كثيرة على الروح العلمي الذي امتاز به علماء تلك الحَملة . وعثر شامبليون آخر الامر على مسلة مغطاة بهذه الرموز المقدسة ، مكتوبة باللغة المصرية ، ولكن في اسفلها نقوشاً باللغة اليونانية عرف منها ان هذه الكتابة ذات صلة ببطليموس وكليوباترة .

وخطر له ان احدى العبارات الهيروغليفية الكثيرة التكرار والتي يحيط بها الاطار الملكي [الخرطوش] هي اسم الملك والملكة [بطليموس وكليوباترة] فهدته هذه الفكرة سنة ١٨٢٢م الى تمييز احد عشر حرفاً من الحروف المصرية . ولكن ذلك كان مجرد حدس ولم يكن يقيناً . وكان هذا الكشف اول دليل على ان مصر القديمة كان لها حروف هجائية ، وان كانت ممزوجة ومختلطة ببقية الرموز الهيروغليفية . ثم طبق هذه الحروف على رموز وجدها على حجر اسود عثر عليه جنود نابليون قرب مصب فرع رشيد . وكان على حجر رشيد هذا ، كما دعي منذ ذلك الوقت ، نقوش كتبت بثلاث انوع من الكتابات : اولاها الهيروغليفية ، وثانيها الديموطية ، وثالثتها اليونانية . وقد استطاع شامبليون بفضل علمه باللغة اليونانية وبالاحد عشر حرفاً التي عرفها من المسلة الاولى ، وبعد جهد متواصل استمر اكثر من عشرين عاماً ان يحل رموز هذا النقش كلها ، وان يعرف الحروف المصرية باجمعها ، وان يمهد السبيل للكشف عن عالم عظيم مفقود . وكان هذا الكشف من اعظم الكشوف في تاريخ علم التاريخ .

ولابد من التنويه الى ان شامبليون قد استفاد من جهود كل من اكريلاد السياسي السويدي [عام ١٨٠٢م] وتوماس يونج العالم الطبيعي الانجليزي صاحب الكفايات المتعددة [١٨١٤م] اللذين تمكنا من حل بعض رموز حجر رشيد ، فكان في ذلك عون للباحث الفرنسي على حل بقية الرموز .

اما قصة حل رموز الكتابة البابلية ، فلا تقل اهمية واثارة عن قصة حل رموز الكتابة الهيروغليفية . ذلك ان الكتابة البابلية ، كما سبق وقلنا ذلك ، حيرت العلماء زمناً طويلاً حتى تمكنوا من حلها . وتفصيل ذلك ان جورج جروتفند استاذ اللغة اليونانية في جامعة جوتيخن ابلغ المجمع العلمي في تلك المدينة سنة ١٨٠٢م انه ظل عدة سنين يواصل البحث في بعض مخطوطات مسمارية وصلت اليه من بلاد الفرس القديمة ، وانه استطاع آخر الامر ان يتعرف على ثمانية من الاثنين والاربعين حرفاً المستعملة في هذه النقوش ، وانه ميز ثلاثة من اسماء الملوك المدونة فيها . وظل الحال كذلك او مايقرب من ذلك حتى عام ١٨٣٥م حيث تمكن هنري رولنسن احد موظفي السلك السياسي البريطانيين في ايران ، وعلى غير علم

منه بما توصل اليه جروتفند ان يقرأ ثلاثة اسماء هي هستسبس ودارا وحشارشاي [اكزركس] في نقش مكتوب بالخط الفارسي القديم ، وهو خط مسماري مشتق من الكتابة البابلية ، وامكنه بفضل هذه الاسماء ان يقرأ الوثيقة كلها في آخر الامر . ولكن هذه الكتابة ، وان تكن مشتقة من البابلية ، الا انها لم تكن البابلية نفسها . وقد بقي على رولنسن ان يعثر على حجر رشيد بابلي كما عثر شامبليون على حجر رشيد مصر اي على نص واحد مكتوب باللغتين الفارسية القديمة والبابلية . وهذا ما عثر عليه في مكان يعلو عن سطح الارض بنحو ٣٠٠ قدم . وكان هذا النقش على صخرة يتعذر الوصول اليها عند بيهستون في جبال ميديا حيث امر دارا الاول الحفارين ان يسجلوا حروبه وانتصاراته بثلاث لغات هي الفارسية القديمة والاشورية والبابلية . وظل رولنسن ، يوماً بعد يوم ، يرقى هذه الصخرة معرضاً بذلك حياته لاشد الاخطار . وكثيراً ماكان يشد نفسه بحبل وهو ينسخ كل حرف من حروفها بعناية بالغة حتى لقد كان احياناً يطبع النقش على عجينة لينة . وبعد جهد دام اثنتي عشر سنة كاملة نجح في ترجمة النصين البابلي والاشوري [١٨٤٧م] . وارادت الجمعية الاسيوية الملكية ان تتثبت مما وصل اليه رولنسن وغيره من العلماء في هذه الوثيقة وفي غيرها من الوثائق ، فارسلت الى اربعة من علماء الآثار الاشورية اربع صور من وثيقة مسمارية لم تكن قد نشرت آنئذٍ ، وطلبت الى كل منهم على انفراد ان يترجمها منفصلاً عن زملائه الثلاثة الآخرين دون ان يتصل بهم او يراسلهم . فلما جاءت الردود وجدت كلها متفقة بعضها مع بعض اتفاقاً يكاد يكون تاماً . وبفضل هذا الكفاح العلمي المنقطع النظير اتسعت دائرة البحوث التاريخية بما دخل فيها من علم بهذه الحضارة الجديدة .

الفصل الثاني

الحروف الهجائية : اصلها واختراعها ونظرياتها واهميتها

لقد اتجهت اغلب انظمة الكتابة التي درسناها سابقاً الى ان تصبح أنظمة صوتية ، اي ان تصبح انظمة قادرة على ان تمثل اصوات اللغة الملفوظة . ولكن لو اريد للكتابة ان تصبح بحق مفيدة للنوع الانساني ، فقد كان من الضروري ان تبسط اساليب التعبير عن الاصوات بحيث يستطيع الفرد العادي ان يتعلم وان يستعمل هذه الاساليب بسهولة ويسر . وان عملية التبسيط هذه قد أدت وقد قادت الى ايجاد عدد قليل من الاحرف المكتوبة والمطبوعة ، وهي تشكل ما اصطلح على تسميته باسم الاحرف الهجائية .

يستعمل الآن في العالم حوالي خمسين نظاماً هجائياً مختلفاً . ويذكر العلماء ان الانسان استعمل مدى عصور التاريخ من اجل تسجيل وتدوين سجلاته حوالي ٢٠٠ نظام الفبائي مختلف[1] . هذا وان بعض الابجديات المعاصرة تستعمل لكتابة لغة واحدة مثل الالفبائية اليونانية ، وبعضها يستعمل لكتابة عدد من اللغات كالالفبائية العربية . واننا نستعمل يومياً احرف الهجاء بمنتهى السهولة وبدون جهد ؛ معتبرين ذلك منحة من المنح التي نستعملها بدون وعي منا لذلك كالهواء المحيط بنا مثلاً . فنحن لاندرك ان كل حرف من حروف الهجاء التي نستعملها قد مر بعملية طويلة وبطيئة من عمليات التطور استغرقت زمناً طويلاً .

والسؤال الآن : ماهي الألفبائية ؟ انها مجموعة من الرموز بشكل مجرد كل التجريد يمثل كل رمز صوتاً اساسياًمن اصوات لغتنا الملفوظة . ولكن هذا لايعني ان هذه المجموعة وصلتنا بهذا الشكل وانها كانت كاملة منذ اخترعت . بالعكس لقد مرت الحروف الهجائية في تطور بطيء استمر حوالي اربعة الاف سنة ولاتزال بعيدة عن الكمال . وبالحقيقة فان ايجاد ابجدية كاملة صوتية لدراسة الكلام

(١) Rider op. cit, P. 4

الانساني دراسة علمية يعتبرهدفاً غير قابل للتحقيق . ذلك ان احرف الهجاء اصبحت مستعملة بشكل يبدو معه أن من المستحيل او من غير الممكن تغييرها .

ويعتبر اختراع نظام هجائي للكتابة واحداً من اعظم الانجازات التي تمت في حقل الكتابات الانسانية حسب قول رونان(١) . ولكن السؤال المهم الآن : من اخترع الالفبائية وأين ومتى تم ذلك لأول مرة ؟ ان الجواب على هذا السؤال يقتضينا الغوص في اعماق التاريخ والرجوع الى الوراء الى اقدم العصور . ولن نستطيع ان نجمع اكثر من الادلة المبنية على الاستنتاج والتخمين . ولقد جرت دراسات كثيرة وعميقة للموضوع ، ولكن العلماء لايزالون مختلفين في كثير من النقاط ، وان يكن قد اتفقوا على الهيكل العام للموضوع . هذا ولدينا شاهد في كلمة الف باء يمكن ان يقود بحثنا في هذا المضمار . ذلك ان كلمة الف باء هي لاشيء اكثر من اسم الحرفين الاوليين الفا ، بيتاAlpha , Beta من ابجدية قدماء اليونان . واذا تعمقنا هذا الشاهد ووسعنا دائرة البحث لاحظنا ان حروف الابجديات السامية [كالفينيقية القديمة والعبرية والعربية وغيرها] لها اسماء ايضاً ، وان اسماء حروف هذه الابجديات السامية تشابه مشابهة مثيرة الاسماء اليونانية [في الابجدية العربية الف ، باء ، ثاء . . .] وهكذا ينبع الاستنتاج ويفرض نفسه علينا فرضاً وهو ان قدماء اليونان حصلوا على اسماء حروفهم الهجائية ، على الاقل ، من اصول سامية .

ولكن يبدو لنا ان من المستحيل ان يكون اليونانيون اخذوا اسماء الحروف دون الحروف الممثلة لتلك الاسماء ، ذلك ان اسماء الاحرف الهجائية كان لها معانٍ محددة لدى الساميين الذين استعملوها لاول مرة ، ولكن لم يكن لها معنى لدى اليونان الذين لم يتمكنوا حتى ان يلفظوا هذه الاحرف بشكل صحيح . ويبدو ان قدماء الاغريق الذين تعلموا استعمال الحروف الهجائية قد ارتبط لديهم ارتباطاً تاماً اسماءُ الحروف التي لامعنى لها مع الحروف ذاتها وتطابقت تلك الاسماء مع الحروف نفسها ، تلك الاحرف التي تعلموها من شعب اجنبي غريب عنهم .

هذا ، ولقد قام العلماء والبحاثة بدراسات دقيقة للنقوش القديمة ، وذلك لمعرفة مهد الابجدية واصلها . ولقد اكتشف العلماء في النقوش الفينيقية ادلة

(١) Ullman op. Cit, P. 11

كثيرة على وجود نظام أبجدي مؤلف من احرف هجائية . ولقد تطابقت اغلب هذه الحروف تطابقاً مدهشاً مع الاحرف الهجائية التي وجدت في اقدم النقوش اليونانية باعتبارها الاصول التي تحدرت منها الاحرف اليونانية . ولقد عزت التقاليد اليونانية أيضاً الى الفينيقيين شرف اختراع الكتابة واطلقت عليهم لقب [مخترعي الكتابة] . ولكي تكمل الصورة نقول انه في وقت ما من اوقات الماضي البعيد حصل سكان عدد من بقاع بلاد اليونان على الابجدية عن طريق الاتصال والاحتكاك بالفينيقيين المتجولين الملاحين .

هذا وان الالفبائية اليونانية ، اصبحت في مستقبل الايام السلف الذي تحدرت منه الألفبائية الرومانية والمعتبرة انها اصل اغلب الابجديات الاوربية المعاصرة . هذا وان اسلاف اليونان القدامى ، المستقرين على شواطىء اسيا الصغرى ، والمتمركزين في جزائر البحرالأيجي ، وفي البر اليوناني نفسه قد تركوا بعض الدلائل التي تشير الى احتمال استعمالهم نظاماً للكتابة اشتق من كريت . ولكن لما حلت الالفبائية في بلاد اليونان زالت جميع اساليب الكتابة الاخرى ولم يعد هناك اي دليل على وجودها . وكذلك ظلت جزيرة قبرص تستعمل نظاماً مقطعياً من اساليب الكتابة ، ولكن ذلك كان استثناءً . ويمكن القول بثقة تامة ان العالم اليوناني تعلم من الفينيقيين فن الكتابة ونشره في بلاده اولاً ومن ثم في العالم الغربي ثانياً . ذلك ان الفينيقيين الذين سكنوا شواطىء سورية الحالية كانوا ملاحين من الطراز الاول وكانت سفنهم مزودة باشرعة ارجوانية ويبلغ طول هذه السفن حوالي ٧٠ قدماً ، وهم اول من دار حول افريقيا ، وقد فعلوا ذلك قبل ان يحاول البحارة الاوربيون بالفي سنة . وكانت تجارة الفينيقيين تشمل العالم المعروف آنذاك وكانوا وسطاء في نقل البضائع من الصناع الى المستهلكين . وكانت مصر البلد المفضلة لدى الفينيقيين للاتجار معها وذلك بسبب وجود مناجم الحديد الموجودة في سيناء . وقد تأسس نظام حسابي من اجل التبادل التجاري ، ولكن الكتابة الهيراطية كانت مثقلة ومعقدة الى الحد الذي لم يستطع الفينيقيون النشطون تقبلها ، ولذلك برز من التفاعل هذا رموز سهلة سريعة من اجل تسجيل سجلات التجارة .

والان يواجهنا هذا السؤال المعقد : كيف ومتى ظهرت الابجدية الفينيقية ؟ ولقد ظل العلماء فترة طويلة وهم يتخبطون في دياجير ظلمات التاريخ . لقد وجدت آثار كثيرة تعود لذلك العصر ، وهي تحمل نقوشاً بالاحرف الفينيقية . ولكن هذه الاحرف هي احرف هجائية بشكل كلي ، وقد مرت في مرحلة تطور طويلة ، ولااثر لكتابة تصويرية او مقطعية بها . كيف امكن ان تتطور هذه الاحرف الساكنة بدون ان يكون لها اصول فكرية ؟ هل اخترع هذه الحروف فينيقي عبقري دفعة واحدة ! وهذا طبعاً فرض لايستقيم بحال من الاحوال . اذا اين يمكن ان نجد اصول الابجدية الفينيقية ذات الاثنين وعشرين حرفاً ؟

ان اول خطوة جدية في سبيل الاجابة على هذا السؤال قام بها ايمانويل دوروجيه ، وهو باحث فرنسي تقدم سنة ١٨٥٩م الى الاكادمية الفرنسية بمذكرة حاول ان يشرح بها كيف ان كل حرف من احرف الهجاء الفينيقية قد اشتق من حرف مطابق له من احرف الكتابة المصرية الهيراطية . ولقد مرت سنوات كثيرة بعد ذلك والناس معتبرون هذا التعليل نهائياً ومقبولاً ، ولكن ابحاث علماء لاحقين ، وهي ابحاث استندت الى نقوش حديثة اكتشفت مؤخراً ولم تصل الى يد الباحث الفرنسي ، وهي نقوش نقوش تحوي حروفاً هجائية متطورة اكثر من الحروف التي حصل عليها دوروجيه ، وقد نقضت نظرية الباحث الفرنسي كلياً واعادت فتح الباب امعالجة السؤال المطروح من جديد .

ولقد اقترح سيرارثر ايفانس في سنة ١٨٩٥م نظرية الاصل الكريتي للالفبائية الفينيقية . فقد قال ان من الممكن ان تكون الكتابة التصويرية الكريتية واحرف الكتابة اللينة المقطعية التي استعملها اهل كريت المتأخرون هي اصل الالفبائية الفينيقية . انه ليس من المستحيل ، طبعاً ، ان يكون اللاجئون الكريتيون الذين هربوا من الزلازل المدمرة التي اجتاحت جزيرتهم ودمرت حضارتهم في حدود سنة ١٢٠٠ ق.م قد حملوا معهم الى فلسطين نظامهم الكتابي الخاص بهم . ولكن الاحرف الكريتية لما تحل وتفهم رموزها حلاً كاملاً ومرضياً ، ومالم تغزر معلوماتنا عنها فان اقتراح الصلة بين هذه الرموز والالفبائية الفينيقية يبقى مجرد اقتراح ولااكثر .

ان روح المحافظة الدينية والحكومية في مصر ، والى حد كبير في بلاد الرافدين ، قد ثبتت اشكال الكتابة الهيروغليفية المصرية ، واشكال الكتابة المسمارية في بلاد الرافدين . وهكذا فان الحروف في احدث الاثار المصرية تتطابق عملياً مع نفس الاحرف التي وجدت على اقدم الأثار . ولكن لما بدأت الحروف الهجائية في الظهور ، لم تستطع القوى المحافظة ان تمنعها من الظهور . لقد اصبحت الكتابة ذات فائدة عامة ونفع عام ، واصبحت اداة التجار ورجال الاعمال الذين رفضوا ان يعانوا ازعاج تعقيدات نظم الكتابة القديمة . ان اولئك الذين استعملوا الالفبائية البدائية استعملوها بملء الحرية ، وذلك حسب رغبتهم وفائدتهم . ويجب ان نلاحظ ان شكل الحروف قد تغير عبر الازمان والامكنة ، وذلك اثناء انتقالها من بلاد الفينقيين الى بلاد اليونان ومنها الى روما القديمة ، ومن روما القديمة الى اوربا حتى عهد اختراع الطباعة حيث جرى تثبيتها في شكلها الحاضر ، مع شيء يسير جداً من التغيير منذ ذلك الومن حتى الآن .

ولقد اقترح بعضهم ان الكتابات المسمارية التي استعملها الحثيون القدامى في اسيا الصغرى والبابليون والاكاديون والسومريون في بلاد الرافدين وطوروها قد تكون الاصول الاولى للابجدية الفينيقية .ولكن المشكلة التي نواجهها اذا اردنا الافتراض ان الكتابة الحثية القديمة كانت هي اصل الابجدية الفينيقية هي انه لم يعرف شيء بعد حتى الان من معاني الاحرف الحثية ، ولذلك فان مثل هذه النظرية غير مقبولة كلياً . على حين ان نظرية الاصل البابلي للابجدية الفينيقة قد تبدو اكثر معقولية . ذلك ان الفينيقيين ، بموجب المأثورات الشعبية ، قد هاجروا من منطقة الخليج العربي الى الساحل السوري في اواسط الالف الثالثة ق.م في نفس الوقت الذي قاد فيه ابراهيم الخليل عليه السلام قدماء العبرانيين في هجرتهم من بلاد الكلدان الى ارض الكنعانيين .

ان الكتابة البابلية القديمة المقطعية لم تكن قد اختفت نهائياً ولم يكن قد حل محلها كلياً الخط المسماري وذلك زمن الهجرة الفينيقية حسب المأثورات الشعبية . ومن المفيد ان نلاحظ ان المهاجرين من الممكن ان يكونوا نقلوا معهم بعض المعرفة المتعلقة بالكتابة آنذاك .ولقد عرفنا من السجلات المصرية في وقت متأخر كل

التأخير ، في حدود ١٣٠٠ ق.م ، ان البابلية اصبحت لغة التخاطب الدبلوماسي الرسمي في العلاقات الدولية ، وهذا يعني ان البابلية كانت معروفة آنذاك في فلسطين وبين الفينيقيين ، على الصعيد الرسمي على الاقل . ولكن ذلك لايبرر الاستنتاج ان ذلك قد اثر على الفينيقيين فجعلهم يشتقون حروف ابجديتهم من الحروف البابلية . هذا اذا افترضنا ان البابلية استعملها الفينيقيون لغة التخاطب اليومية بينهم . لقد ظلت الفرنسية لغة التخاطب الدبلوماسي والراقي في اوربا سنوات طويلة ، ولكن هذا الاستعمال لم يؤثر قط في لهجات التخاطب ولغات مختلف شعوب القارة الاوربية .

وقد ذكر الكتاب الرومان القدامى ان الفينيقيين حصلوا على ابجديتهم من مصر ، وقد نادى بهذه النظرية عدد من الباحثين المحدثين ، ولكن لفترة ، ثم ثبت فساد هذه النظرية . ذلك ان الكتابة المصرية لها مئات العلامات ، والابجدية الصحيحة يجب ان يكون فيها لكل صوت علامة واحدة ، وكل علامة يجب ان تكون صوتاً واحداً بينما في الكتابة المصرية توجد علامات كثيرة لنفس الصوت . ومن القائلين بالنظرية المصرية دونان[1] . ولايمكن ان تكون مشتقة من الكتابة المصرية الديموطية لان هذه اتت بعد الابجدية .

هذا ولم يبق شيء من الثقافات القديمة التي نبعت في ذلك الشريط الساحلي الممتد على سواحل سورية من الشمال حتى حدود سيناء ، والذي سكنه الكنعانيون ، وهم الشعب الذي اسماه اليونان باسم الفينيقيين ومنه اشتقوا ابجديتهم . ولكن يبدو لنا انه وجدت ثقافة موغلة في القدم نبعت وتمركزت في الاقليم الواقع جنوب بلاد الفينيقيين ويصل بين بلادهم وبين مصر . واذا اتجهنا في بحثنا هذا الاتجاه نكون سائرين في الاتجاه الصحيح ، ذلك انه وجدت في السنوات الاخيرة ادلة تثبت وجود مثل هذه الثقافة ، التي ، رغم انها بدائية ، الا انها تمثل حلقة الوصل بين الفينيقيين ومصر ، ووجدت ايضاً نقوش وكتابات تقدم دليلاً قوياً عن اصل الابجدية الفينيقية .

فقد اكتشف سيرفلاندرز بيتري عالم المصريات الشهير سنة ١٩٠٥ م في شبه

(١) حداد ، جورج . المدخل إلى تاريخ الحضارة . دمشق ، الجامعة السورية ، ١٩٥١ م ص ١٢٤

جزيرة سيناء ، في الشريط الساحلي الواقع على ساخل البحر الاحمر جنوبي شرقي برزخ السويس بعض الادوات الحجرية المغطاة بنقوش مكتوبة باحرف يبدو انها هجائية . هذا ولم تعلم اهميتها تماماً الا سنة ١٩١٦ م . ولقد بلغ عدد النقوش حوالي خمسة عشر نقشاً استعمل في كتابتها حوالي ٢٢٥ حرفاً ، طرح منها جانباً حوالي ٣٠ حرفاً وذلك بسبب تآكلها وعدم وضوحها ، ولقد اكتشف في هذه النقوش ٢٥ حرفاً تتكرر باستمرار ، وهذا اعطى الانطباع ان هذه الحروف الفبائية . ولسوء الحظ فان جميع النقوش مختصرة كل الاختصار ، وندرة منها يمكن اعتبارها مجرد احرف . وهناك اتفاق شبه عام على ان لغة النقوش سامية . ولقد اكتشف في هذه النقوش اربعة احرف تكررت عدة مرات ، وتمكن آلان غاردنر . وهو باحث انكليزي متخصص في دراسة آثار مصر ، ان يقرأ هذه الاحرف وان يكتشف انها تشكل كلمة بعلة الالهة السامية المعروفة . ولقد جرت دراسات كثيرة حول هذه النقوش ولكن النتائج متباينة . فقد درسها سبرينغلينSprenglin ونشر سنة ١٩٣١م ترجمة وشرحاً لتلك النصوص ، وقد اعتبر عمله محاولة جديدة جداً وناجحة في هذا المضمار ، وبموجب دراسته هذه فان لغة النقوش سامية ، وهي تقدمات نذرية قدمها الى الالهة السامية شعب سامي كان يعمل في مناجم سيناء . ولكن وجد باحثون آخرون لم يوافقوا على هذا التفسير .

ومهما يكن فقد وجد في هذه النقوش بعض الرموز التي تشابه مشابهة تامة بعض الحروف في أقدم الكتابات السامية من جهة ، وتشابه كذلك بعض الرموز الهيروغليفية .

والذي يبدوا لنا هو أن حكام مصر وفراعنتها استأنفوا العمل في مناجم سيناء وجلبوا لها الأسرى والعمال من أرجاء العالم السامي . وخوفاً من هجوم البدو المتنقلين في سيناء على مصر فقد قام الفراعنة بتحصين سيناء لرد هجوم البدو ولحسن استغلال مناجم الفيروز في سيناء . ولقد قام بهذه المهمة عدد من الفراعنة على رأسهم امنمحت الثالث الذي جعل مركز سرابيط الخادم مستعمرة حقيقية من أجل استثمار الثروة المعدنية الموجودة هناك .

هذا وان حكم امنمحت الثالث كان في القرن الثامن عشر ق.م ، ولذلك يبدو من المعقول ان يكون تاريخ النقوش السينائية من اوائل القرن الثامن عشر

ق.م ، حيث بدأت مصر تستغل مناجم سيناء وتستخدم في ذلك عمالاً واسرى ساميين تحت اشراف موظفين مصريين . ولقد حدثت بعد ذلك اضطرابات خطيرة في مصر مما جعل مناجم سيناء تهمل .

كيف ظهرت الأبجدية في مثل هذه الظروف ؟

لابد لنا قبل ان نحاول الإجابة على مثل هذا السؤال من ان نذكر ان نظام الكتابة المصري في ذلك الزمن كان في حالة جيدة ومتطوراً في اتجاه نصف هجائي ، فقد وصل إلى حد تمثيل الفكرة باحرف تمثل رموز الأصوات للكلمات الملفوظة والتي تدل على تلك الفكرة ، ولكنه لم يصل الى حد تعيين حرف واحد وتخصيصه ليمثل صوتاً واحداً . ويمكننا ان نتخيل ان ماحدث في سيناء كان في تبسيط هذه الصيغة المعقدة وتخصيص علامة واحدة لكل صوت . هذا ويمكننا ان نتخيل الطريقة التي تمكن الساميون بواسطتها ان يتعلموا ويطوروا الحروف المصرية .

يبدو ان بعض الكتاب المصريين الذين عهد اليهم بامر تسيير الامور في مناجم سيناء وتسجيل الدخل والخرج في المناجم ، قد استعان ببعض الكتاب الساميين الأذكياء لتسيير الامور وذلك بأن علمهم فن الكتابة . ويبدو ان اولئك الساميين الاذكياء وجدوا نظام الكتابة المصري معقداً كل التعقيد ، ووجدوا ان بامكانهم التعبير عن نفس الافكار باحرف مختصرة فأوجدوا كتابة مبسطة مقتبسة من الكتابة الهيروغليفية . ولقد استعمل اوائل الكتاب نفس ادوات الكتابة المستعملة في مصر كالبردى والقلم الذي يشبه الفرشاة . وكانت طريقة كتابتهم للاحرف هي نفس الطريقة المصرية لكتابة الاحرف الهيراطية او الهيروغليفية ، ولكن اصاب هذه الاحرف تعديل وتغيير عندما بدأت تنقش على الصخر والحجر . ومن الاشياء المهمة في نقوش سيناء هو ان هذه النقوش تحوي حروفاً اكثر مماهو مستعمل في السامية الشمالية او السامية الجنوبية ، وهذا يقود الى الاستنتاج ان الفرعين الساميين اشتقا حروفهما من شكل اقدم من اشكال الابجدية السامية . ويجب ان تهمل النظرية القديمة القائلة ان الالفبائية السامية الجنوبية اتت من الفينيقية . ولقد تطابقت بعض الاحرف السامية مع مثيلاتها المصرية بسهولة تامة ، ولكن يجب ان نلاحظ ان الاحرف السامية لم تكن تمثل الاصوات

المصرية ، وإنما كانت تمثل قيماً صوتية اشتقت من السامية والكلمات السامية . ومن اجل تتبع واكتشاف الصلة بين الاحرف السامية والرموز الهيروغليفية يجب ان نبدأ من معاني الحروف السامية ، ذلك ان لاغلبيتها معاني واضحة محددة . وقد ازالت نقوش سيناء كل شك حول قيمة الاسماء في ايجاد الاشكال الاصلية للحروف . وعندما لايكون معنى الحرف واضحاً ، فاننا آنذاك فقط نجد صعوبة في معرفة الشكل المصري المناسب .

هذا وتقدم الرموز الهيروغليفية الفجة الموجودة في سيناء مادة انتقالية جيدة من اجل تأسيس وتتبع الصلة بينها وبين الاحرف السامية . ولكن لايصح القول ان اصل الفبائيتنا مصري ، ذلك ان الهيروغليفية مجرد رموز تصويرية اصطلاحية استعملها بذكاء احد الساميين ، وقد اخذ من الكتابة المصرية فقط القيمة الصوتية للحرف او الرمز مجرداً عما يعنيه في الاصل . وهذا يعني ببساطة ان صورة شيء ما اصبحت تستعمل لتصبح ممثلاً دائماً للحرف الاول من الكلمة التي يطلق عليها ذلك الشيء . وهكذا اصبح مخطط البيت يمثل الحرف (ب) وهو الحرف الاول من الكلمة السامية بيت .

هذا ولايزال العلماء مختلفين حول زمن اختراع الالفبائية . ولكن الاكتشافات الحديثة تجعل من الضروري ان يؤرخ الاختراع نفسه بتاريخ اقدم من تاريخ استعمال الاختراع . ولقد اكتشف في تل الجزر قطعة من الخزف حفر عليها ثلاثة احرف ، ويعتقد ان تاريخها يتراوح بين ٢٠٠٠ـ١٦٠٠ق.م . واحد الاحرف هو الشكل المربع لحرف (ب) ، ويبدو الحرف الآخر على شكل يد وربما يمثل كفاً .

ان اسلوب الكتابة هذا كان مجرد هيكل عظمي لحوالي ٢٢ حرفاً ساكناً . ولقد سخر المصريون حتماً عندما شاهدوا مستخدميهم في سيناء يكتبون بهذه الطريقة المختصرة ، ولكنهم لم يعلموا ان هؤلاء المستخدمين كانوا يضعون الاساس لاعظم اختراع في تاريخ الانسانية ، الا وهو اختراع الابجدية .

ويبدو ان هذه الابجدية البدائية التي ولدت في سيناء قد حملتها تيارات الهجرة المتلاحقة والتجارة المتصلة جنوباً بشرق الى شبه الجزيرة العربية وشمالاً الى

فلسطين . ولقد حدثت بين الفرعين اختلافات عميقة ، ولكن يبدو لنا ان الفرع الشمالي كان الاصل الذي اشتق منه قدماء الفينيقيين اقدم ابجدياتهم .

وعلى الرغم من ان هذه النظرية ، النظرية التي تقول بالاصل السينائي للابجدية الفينيقية ليست كاملة ولامتسقة التفاصيل ، الا انها اكثر النظريات التي طرحت حول هذا الموضوع معقولية . ومما لاشك فيه ان الفينيقيين قد طوروا اختراعهم هذا متأثرين بمؤثرات اخرى من مصادر مختلفة ، ولكن يبدو ان الاصل السينائي للابجدية الفينيقية معقول وثابت .

والحقيقة يعتبر اختراع النظام الهجائي ونشره وتطويره اعظم منحة قدمتها الحضارة السورية القديمة الى البشرية جمعاء .

ولقد حافظ اليونان على الاسماء السامية للحروف وعلى شكلها العام وترتيبها . وكانت الحروف تكتب ، في اقدم الكتابات الاثرية اليونانية من اليمين الى الشمال كما في الكتابة الفينيقية . واعترف اليونان بفضل الفينيقيين وبما نقلوه عنهم كما يبدو ذلك في قصة قدموس الذي إليه ينسب إدخال ستة عشر حرفاً إلى بلاد اليونان من فينيقيا . وإذا جردنا قصة قدموس من زخارفها الشعرية المتعددة ، فإنها تشير إلى أن المهاجرين من سورية أدخلوا إلى بلاد اليونان الأبجدية وفن التعدين وعبادة ديونيسيوس إله الخمر .

هذا وان اقدم نقش معروف تظهر فيه الابجدية الفينيقية يعود الى فترة تبعد اكثر من ستة قرون عن تاريخ نقوش سيناء . وهي فترة تقدم فرصاً عظيمة ووقتاً متسعاً من اجل كسب الخبرات في حقل الكتابة الابجدية ، وفيها فرص كثيرة يمكن لانظمة كتابية اخرى كالكريتية والحثية والبابلية ان تساهم في تطوير وتحسين الكتابة الابجدية . ان الفينيقيين شعب عملي وقد احتكوا اثناء تجارتهم وارتحالهم بمختلف الشعوب والحضارات ، ولذلك يبدو معقولاً تماماًان يكونوا استمدوا اشكالاً لحروفهم من شعوب متعددة . ولكن اذا كان هذا قد حدث فقد تم بذكاء وحسب حاجة الفينيقيين انفسهم ، وعدلوا في هذه الاشياء وطوروها حتى تناسب حاجاتهم واستعمالاتهم . ولكن المهم في الامر هو انه خلال هذه القرون الستة لم تتغير وظيفة رموز الاصوات الممثلة للكلام الانساني تغيراً كبيراً ، وانما بقيت كما

هي الى حد كبير . ان مبدأ الكتابة الفبائياً عاش وتطور بين عدد ضئيل من الشعوب السامية كانت تعيش في منطقة ضيقة من الارض ، واقل اهمية سياسية وعسكرية من غيرها ، على حين ان شعوباً قوية وكبيرة كالاشوريين والمصريين ظلوا يتابعون كتابة لغاتهم باساليبهم الكتابية المعقدة والحاوية على مئات الرموز .

ان اقدم نص فينيقي معروف استعملت فيه الحروف الهجائية ، يكشف عن تطور ملحوظ وعن نضج اصاب الابجدية ،ممايعطي الانطباع ان هذه الابجدية قد استعملت ولابد فترة طويلة من الزمن حتى وصلت الى ما وصلت اليه من نضج وتطور . ولقد اكتشف هذا النص بحاثة فرنسي سنة ١٩٢٣م هو الاثري الفرنسي دونانDunand وقد اكتشفه على تابوت ملك من ملوك مدينة جبيل السورية الساحلية الواقعة قرب طرابلس يدعى أحيرام . ويقرأ النص من اليمين الى الشمال وهو عبارة عن اهداء للقبر والتابوت قدمه للملك احيرام ابنه ، مع صب اللعنات على كل من يحاول اغتصابه . وتبدو الابجدية هنا ايضاً ساكنة تماماً وينقصها احرف تمثل الحروف الصوتية والحركات . ويعود تاريخ هذا النقش الى حدود ١٢٥٠ ق.م . كذلك اكتشف بقايا مزهرية او جرة برونزية في قبرص وعليها كتابة تعود الى عهد الملك حيرام الذي كان على علاقة صداقة مع سيدنا سليمان ، واذا كان ذلك صحيحاً فان تاريخها يعود الى القرن العاشر قبل الميلاد .وقد لوحظ تطور خطير في الكتابة وهو بداية الكتابة من اليسار الى اليمين . وهذا يعني ان الحروف قد عكس وضعها لكي تتلاءم مع اسلوب الكتابة الجديد . فمثلاً الحرفA مرسوم بهذه الطريقة ≯ . على ان هناك بحاثة اخرين يقولون ان حيرام هذا ليس هو الملك المذكور في التوراة على انه صديق سليمان ، وانما هو ملك آخر بنفس الاسم من ملوك صيدا اتى بعد الاول بحوالي قرنين . ولذا فهناك شك حول محتويات وتاريخ هذا النقش . وعلى هذا يصبح حجر مؤاب الشهير الموجود حالياً في متحف اللوفر ثاني اقدم اثر نقشت عليه ابجدية سامية . وجدت هذا الاثر سنة ١٨٦٨ م في جوار البحر الميت في فلسطين بعثة تبشيرية نصرانية وسمي باسم حجر مؤاب لان المنطقة التي اكتشف فيها هي منطقة مؤاب .

ان نقش حجر مؤاب هو سجل خلد به ملك مؤاب ميشا ثورة شعبه ضد يرهام ملك اسرائيل وخلاصه من ذلك الحكم . وكان ذلك في القرن الثامن ق . م . وعلى الرغم ان هناك خلافاً في التفاصيل الواردة في هذا النص والتفاصيل التي يوردها الاصحاح الثاني من كتاب الملوك في العهد القديم ، الا ان الأمر المهم في الموضوع هو أن الأحرف التي كتب بها ذلك النص تحمل بعض المشابهة لأحرف الأبجدية الأوربية المعاصرة .

وعلى العموم يمكن القول ان نظام الكتابة الابجدي اوجده الفينيقيون المقيمون في جبيل على الساحل السوري في زمن موغل في القدم يمكن ان يؤرخ في القرن الثامن عشر ق . م . . ويوافق اغلب البحاثة على هذا الرأي . وعدد احرف هذه الالفبائية اثنان وعشرون حرفاً ، وكلها حروف ساكنة وكان على القارىء ان يوجد هو نفسه الحركات والاحرف الصوتية . ويمكن موازنة هذه الابجدية ببعض المختصرات الانكليزية الحالية مثلYRمن اجلYear(سنة) وBldg من اجلBuilding (بناء) وهكذا .

وقد اوجد فينيقيون آخرون وهم الذين عاشوا في اوغاريت (وهي رأس شمرة الواقعة شمالي اللاذقية في سورية في الوقت الحاضر) نظاماً ابجدياً آخر على اساس مختلف . فقد كتبوا الابجدية باسفين على الواح من الطين ولذلك اخذت كتابتهم شكل علامات مسمارية او اسفينية . ولقد كانت اوغاريت مملكة فينيقية ذات تجارة واسعة مع مصر وبلاد اليونان واسيا الصغرى . وقد تم الكشف عن هذه المملكة سنة ١٩٢٩ م . وكانت مجهولة قبل ذلك التاريخ . وقد كتبت جميع سجلات هذه المملكة على الواح من الطين واستعمل في كتابتها الابجدية التي اخترعها سكانها . ويرجع تاريخ هذه السجلات الى القرن الخامس عشر وبعضها ابكر من ذلك بكثير .

وقد اكتشف في خرائب اوغاريت هذه الفبائية قديمة تحوي ٣٠ حرفاً ، وتبدو هذه الابجدية كانها اشتقت من الفبائية اقدم . ويوجد في المتحف الوطني في دمشق لوحة فخارية استخرجت من اوغاريت عليها الحروف الثلاثون لهذه الالفبائية ، ولعلها اقدم سجل كتب عليه حروف الالفبائية في العالم ولعلها كانت

مستعملة من اجل تعليم النشيء الابجدية . ويبدو انه وجد في سورية بعد ذلك الوقت بقليل نظامان ابجديان مختلفان بعض الاختلاف ومتحدران من الفبائية اقدم تعرف الاولى باسم السامية الشمالية والثانية السامية الجنوبية . وقد اتت من السامية الجنوبية الالفبائية الامهرية والقبطية ، واتت من الشمالية الفينيقية مع حروفها الساكنة ال ٢٢ حرفاً .

واغلب البحاثة يوافقون على ان الفينيقيين هم الذين اوجدوا نظام الكتابة الهجائي ، وانهم استمدوا قسماً من مادتهم من اصول مصرية هيروغليفية ، ولكنهم طوروها حسب حاجتهم التي جعلتهم يوجدون مثل هذا النظام السهل الذي يسهل الاعمال التجارية وحفظ السجلات من اجل التبادل التجاري والمحاسبات .

وقد انتقلت هذه الابجدية الى بلاد اليونان عن طريق الفينيقيين الذين كان لهم علاقات تجارية ضخمة مع شعوب البحر الابيض المتوسط وبخاصة بلاد اليونان . هذا وان الاصل السامي الفينيقي للابجدية اليونانية لاشك فيه .

فقد كان هناك لغة يونانية وخط يوناني في بلاد اليونان قبل القرن الثاني عشر ، ولكن الغزو الدوري للبلاد في حدود ذلك الزمن دمر تلك الحضارة واللغة وظلت البلاد مئات السنين بدون لغة مكتوبة . ومن المهم ان نلاحظ وجود تشابه يصدم الانسان بين حروف اقدم النقوش اليونانية وحروف نقوش جبيل وغيرها .

اضافة الى ذلك فانه يبدو واضحاً ان الاسماء اليونانية للحروف اشتقت من اصل سامي . فهذه الاسماء لها اهمية ولها معنى محدد في اللغة السامية ، على حين لامعنى لها باليونانية . وترتيب الحروف في اقدم النقوش التي وصلت الينا من اليونانية هو نفسه ترتيب السامية . الى جانب ان المأثورات اليونانية القديمة تنسب الى الفينيقيين انهم هم الذين ادخلواالالفبائية الى بلاد اليونان وتسمى الاحرف باسم الاحرف (الفينيقية) .

هذا ولايزال هناك جدل كبير بين الباحثين والعلماء حول الزمن الذي دخلت فيه الابجدية الفينيقية الى بلاد اليونان وشقت طريقها عبرها . فبعضهم مثل رايس كاربانتر يجعل دخول الابجدية الى بلاد اليونان في حدود ٧٠٠ ق . م ، على

حين ان باحثين آخرين مثل السيدة ستيلويلStillwellتجعل هذا التاريخ في حدود ٧٦٠ ق . م . ولذا يمكن القول بسلامة ان القرن الثامن ق.م شاهد دخول الابجدية الفينيقية الى بلاد اليونان . ولقد كان للفينيقيين مستعمرات او مراكز تجارية في كل من ميلوس ورودس وغيرهما من جزائر البحر الايجي وذلك منذ اوائل القرن الثالث عشر ق.م ، ثم اسسوا فيها بعد مراكز اخرى في كل من تاسوس وساموتراس وكورنت وغيرها من المراكز . ويبدو ان اوائل اليونانيين تعجبوا من هذه الاداة العجيبة الغامضة في التسجيل والحساب عندما كان الفينيقيون يأتون الى سواحل بلادهم ويتاجرون معهم ، وبعد فترة اتخذوها هم انفسهم . يذكر هيرودوتس الذي يوصف انه ابو التاريخ ان جماعة من الفينيقيين يقودهم البطل قدموس نزلوا في جزيرة ثيراTheraوهناك قلعوا اسنان الثعبان (وهذه غالباً اشارة إلى الألفبائية الفينيقية)، ثم انتقل بهم إلى بوكوتيا Bocotia وهي بلد من أرض اليونان حيث أدخل فن الكتابة إلى بلاد الإغريق . ولقد فسر اليونان اسطورة قدموس هذه على أنها تجسيد لقوى الثقافة والحضارة الأجنبية التي اثرت بعمق وقوة في حياة اليونان القديمة .

ان اقدم نص كتابي واكثرها بدائية من الابجدية اليونانية قد اكتشف في جزيرة ثيرا نفسها مكتوباً ومنقوشاً على مزهرية ديبيلونDipylon ، وقد صنعت هذه المزهرية في القرن الثامن ق.م . ولقد وصفت حروف هذا النقش انها تقريباً حروف ابجدية فينيقية خالصة ، وانها كتبت من اليمين الى الشمال كالكتابة الفينيقية .

هذا وان دراسة موازنة لما خلفه قدماء اليونان من كتابات هجائية قد كشفت عن ان قدماء اليونان قد تصرفوا بحرية مطلقة في كتاباتهم ، ولذلك اتت هذه النصوص مختلفة ولارابطة بينها . ولقد ظل اليونانيون يستعملون مايمكن ان يسمى (الاسلوب الحر) في كتابة الالفبائية . وذلك لمدة تزيد على المائة سنة بعد دخول الالفبائية الى بلاد اليونان ، ولكنهم بعد قليل تمكنوا ان يعدلوا في هذه الابجدية بحيث اصبحت تناسب حاجاتهم واهتماماتهم . فقد ادخلوا على الابجدية عنصرين مهمين كل الاهمية . الاول الكتابة من اليسار عن اليمين بدلاً

من الكتابة من اليمين الى الشمال ، وهذا الشيء لازال مستعملاً في جميع الابجديات الاوربية حتى ايامنا هذه . كذلك طوروا بعض الاحرف الفينيقية فجعلوها تمثل بعض الاحرف الصوتية وبعض الحركات الصوتية .

لقد كتب الفينيقيون ، كما ذكرنا ذلك سابقاً ، ابجديتهم وحروفهم من اليمين الى اليسار . وقد كتب اوائل اليونانيين كتابتهم بنفس الطريقة ونفس الاتجاه ، ثم بعد فترة بدأوا يكتبون باتجاهين متعاكسين ، من اليمين الى اليسار ومن اليسار الى اليمين . فهناك نقوش يونانية تمثل هذين الاتجاهين المتعاكسين ، كما في نصب ليمنوس Lemnos الذي يعود تاريخه الى القرن السادس ق.م وعليه نقوش تجري الكتابة فيها من اليمسن الى الشمال ومن الشمال الى اليمين حسب الاسطر . كذلك وجدت نقوش كتبت بشكل عمودي او باسلوب سمي باسم كتابة الافعى Snakewriting ، وذلك لتلائم الكتابة سطح اناء من الآنية او تعرجات تمثال نصفي . ولكن هذا الاتجاه كان استثناءً والشائع هو الترتيب الافقي . بعد ذلك بفترة تثبت الاتجاه من اليسار الى اليمين وساد هذا الاتجاه حتى الآن في اوربا ، ويبدو ان التغيير حدث نتيجة لاستعمال اوراق البردى ولوحات الشمع مادة للكتابة . على حين حافظت بعض الابجديات السامية ـ كالعربية والعبرية ـ على الاتجاه اليميني الموروث عن الفينيقيين . ونحن نعلم ان الابجدية الفينيقية التي اقتبسها قدماء اليونان كانت احرفاً ساكنة بشكل شبه تام وشبه كامل . وقد وجد اليونانيون صعوبة في التعبير بهذه الاحرف الساكنة عن لغتهم ، وهي لغة تضم عدداً من الاصوات الناطقة المهمة المعبرة ، ولذلك فقد اعطوا قيماً صوتية لعدد من الاحرف الفينيقية الساكنة التي ينطق بها اثناء التنفس وجعلوها ممثلة لعدد من الاصوات اليونانية الناطقة .

وترينا اقدم النصوص التي اكتشفت في ثيرا استعمال خمسة رموز على انها احرف صوتية حقيقية . ولقد اوجد اليونانيون فيما بعد ، مزيداً من الحروف تمثل الاحرف الصوتية الاخرى في لغتهم ، وكذلك دمجوا حرفين او اكثر للتعبير عن بعض الاصوات المعقدة مثل حرف ش Ch وهكذا . كذلك بدأ يظهر عندهم بعض التنقيط وتقسيم الجمل الى فقرات . ولكن لم يكن هناك حروف كبيرة

لبداية الجمل ولافراغ بين الكلمات . هذا وان اضافة الاحرف الصوتية الى الابجدية كانت اعظم خدمة يؤديها الذكاء اليوناني في هذا المجال .

ولقد تطورت الابجدية تطوراً مغايراً لما مر في كثير من اقسام وبقاع العالم اليوناني القديم . ذلك ان اليونانيين ، على الرغم من انهم شعب واحد وجنس واحد ويتكلمون عدداً من اللهجات من نفس اللغة ، الا انهم لم يكونوا موحدين سياسياً او ثقافياً ، فقد كانوا مقسمين الى عدد من المجموعات التي تتميز جغرافياً عن غيرها من المجموعات ، ويغلب على الجميع الصبغة الفردية ، مما جعل من الصعب جداً على اي فريق من الفرقاء ان يعيش في سلام ووئام مع بقية الفرقاء . ولذلك فانه ليس مفاجأة لنا ان نعلم انه لم يتخذ نظام هجائي موحد في بلاد اليونان الا في وقت متأخر نسبياً .

لقد اتخذت اغلب دول المدن اليونانية لنفسها انظمة هجائية تختلف عن بعضها بوناً شاسعاً ، حتى انه امكن تمييز عشرة انظمة كتابية تختلف فيما بينها في شكل ووظائف حروفها .

ـ ولكن اذا اهملنا كثيراً من التنوعات المحلية ، فإن بامكاننا ان نميز بين خطين من خطوط التطور سارت فيهما الابجدية في بلاد اليونان ، وهما مايمكن ان يدعيا الابجدية الشرقية والابجدية الغربية . ان الابجدية الشرقية ، وهي الاقدم ، هي الابجدية التي استعملها الفرع الايوني من العرق اليوناني ، وقد نمت وتطورت اول الامر في جزائر البحر الايجي وفي مدن سواحل اسيا الصغرى ، ثم انتقلت الى البر اليوناني ، ولقد اصبحت ابجدية اثينا بشكل رسمي سنة ٤٠٣ ق . م وذلك بعد انقضاء الحروب البيلوبونيزية Peloponnesian. وعلى الرغم من انها لم تتطور تطوراً ذا غناء منذ سنة ٤٠٠ ق . م ، الاانها اعيدت الى الحياة واصبحت ابجدية بلاد اليونان الحديثة . وعدد حروفها ٢٤ حرفاً وهي ادق في التعبير عن الكلمات والاصوات الملفوظة . وقد استعمل عدد من حروفها في ابجديات بلغاريا ويوغوسلافيا وروسيا وغيرها من الامم الصقلبية .

ولقد نالت هذه الابجدية الشرقية شهرة واسعة ، وذلك على الرغم من خلافها الشديد مع حروف ابجديات اوربا الغربية المستعملة الان ، بسبب

استعمالها حرفين اساسيين هما X,H على الرغم من أن هذين الحرفين يمثلان اصواتاً وقيماً مختلفة في الأصل عما هو في اللغات الأوربية الحديثة .

اما الابجدية الغربية فقد اصبحت الاصل الذي تفرعت عنه ابجديات اوربا الغربية في الوقت الحاضر . ذلك ان الرومان تبنوا هذه الابجدية واتخذوها ابجديتهم وانتقلت معهم في سائر انحاء اوربا . ولما تفرعت اللغات الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية والانكليزية عن اللاتينية اتخذت الابجدية اللاتينية المشتقةمن الابجدية الغربية اليونانية اداة للكتابة واسلوباً . واغلب حروفها حروف الابجدية الغربية ، على الرغم من ان عدداً من الاحرف تغير شكلها ووظيفتها .

لقد تتبعنا تطور الابجدية الفينيقية ونفوذها الى اوربا بشيء من التفصيل لاهمية ذلك في حياة اوربا وتطورها . والآن علينا ان نتتبع سير هذه الالفبائية في اتجاه آخر . ذلك ان احرف الهجاء الفينيقية لم تسر فقط غرباً ، وانما سارت ايضاً شرقاً باتجاه معاكس ومغاير للاتجاه الاول .

لقد استعمل اليهود ، قبل الاسر البابلي ، الابجدية الفينيقية في صفائها الاصلي ، كما يبدو ذلك بوضوح من النقوش والنقود اليهودية . وقد بدأ التجار الآراميون الذين ظهروا في سورية في اواخر القرن الحادي عشر ق . م ينشرون لغتهم في مختلف البلاد التي حلوا بها ، وحملوا معهم الابجدية الفينيقية التي كتبوا بها لغتهم وطوروا الابجدية الفينيقية لهذه الغاية . ذلك ان الآرامين ورثوا الفينيقيين كتجار في اسيا الغربية ، فالاراميون تجار البر واتجهوا شرقاً على حين كان الفينيقيون تجار البحر وتجهوا غرباً ، ولقد كان للآرامين نشاط تجاري واسع النطاق حتى شمل الهند والصين وقلب اسيا الوسطى .

وقد تفرعت اللغة الارامية من مجموعة اللغات السامية الشمالية الغربية وحملها الاراميون حيث حلوا وكتبوها بالابجدية الفينيقية . ومع انتشار اللغة الارامية انتشرت الابجدية الفينيقية التي كان الاراميون اول من اقتبسها وطورها واستعملها . واستعملت في لغات اخرى في القارة الاسيوية . ولقد استعمل اليهود اللغة الارامية والكتابة الارامية اثناء اقامتهم اسرى في بابل بعد خراب بيت

المقدس واسرهم بيد بختنصر . كذلك استعملها البابليون والاشوريون واصبحت منافساً قوياً وخطيراً للكتابة المسمارية .

ولقد احضر اليهود معهم الى القدس ، بعد تحريرهم من الاسر البابلي ، الابجدية الارامية ، حيث تطورت الى مايعرف باسم الكتابة اليهودية القديمة في القرنين الثاني والاول ق.م .وقد اشتق من هذه الكتابة اليهودية القديمة ، بعد فترة طويلة من الزمن ، الكتابة العبرية المربعة التي يستعملها اليهود الآن .

هذا وان الابجدية اليدشيةYiddishهي تعديل وتطوير للعبرية الحالية . ولقد انتشرت الابجدية الارامية في سورية وتطورت تطوراً كبيراً واشتق منها الكتابة السريانية التي عاصرت ظهور المسيحية وانتشارها في سورية واستعملها السريانيون كثيراً . لقد انتشرت السريانية المشتقة من الارامية في منطقة واسعة شمال فلسطين ، واشهر نقش من نقوشها هو مايسمى باسم Estrangela. وقد استعملت في كتابتها حروف الابجدية الفينيقية ال ٢٢ الساكنة ، ولكن تغيرت اسماؤها . وكتبت الكتابة من اليمين الى الشمال . وقد تبنت اللغة السريانية والابجدية السريانية الشيع المسيحية المنشقة عن الكنيسة الرسمية . وقد تطور من السريانية فرعان غربي وشرقي وذلك بعد سنة ٤٣١ ق . م . وقد سمي الفرع الغربي باسم سيرتاSerta وتفرع عنه فرعان آخران الاول اليعقوبي والثاني الملكي . وقد دعي الفرع الشرقي باسم الفرع النسطوري نسبة لنسطور الذي انشق عن الكنيسة البيزنطية واسس شيعة النساطرة . وقد تغلغل النساطرة في قلب اسيا وحملوا معهم عقيدتهم ولغتهم وكتابتهم . وقد تبنى الصغد الكتابة الارامية وذلك بين سنتي ٥٠٠ و ١٠٠٠م . وعلى الرغم من ان لغة الصغد هندية اوربية ، الاان كتاب الصغد استخدموا الكتابة الارامية بشكل جميل وذكي .

كذلك نجد تأثير الخط الارامي في كتابات الايغورUigher ، وهم قوم من الترك اسسوا امبراطورية مهمة قوية في قلب اسيا الوسطى في القرن الثامن ميلادي في بلاد المغول . كذلك ظهر نفوذ الخط الارامي في كتابات شيعة ماني الذي اوجد ديانته سنة ٢٤٧ م وهي ديانة مشتقة من عناصر مسيحية وزرادشتية مع عناصر صوفية غنوطسية .

وهكذا فقد نفذت الكتابة واللغة الارامية التي تدعى ام اللغات ، الى قلب اسيا وقدمت الاساس لتطور جميع لغات المنطقة باستثناء الصينية . فقد حصل الارمن والفرس والهنود على ابجديتهم من مصادر آرامية ، كما وان حروف الفهلوية والسنسكريتية من اصل ارامي . وحمل الكهنة البوذيون من الهند الابجدية السنسكريتية الى قلب الصين وكوريا والتيبت . وهكذا وصلت الحروف الفينيقية شرقاً بطريق الارامية الى الشرق الاقصى ، وغرباً بطريق اليونانية الى الامريكيتين فطوقت العالم باسره .

والآن ، وقد انتهينا من بحث اختراع الكتابة الابجدية الالفبائية ، لابد لنا من التساؤل عن اهمية هذا الاختراع في تاريخ الانسانية ، وماهي الاثار التي ترتبت على مثل هذا الاختراع .

لابد لنا من ملاحظة اولى في هذا الموضوع : وهي ان نظام الكتابة كان ، قبل اختراع الكتابة الابجدية وقفاً على طبقة معينة من الناس هي طبقة الكهان ، سواء في مصر اوبلاد الرافدين . وان الضرورة الاقتصادية هي التي ادت الى اختراع الابجدية ، وادت بالتالي الى كسر الحصر الذي فرضته تلك الطبقات على الكتابة . زعم الكهان لانفسهم حق الثقافة وان الكتابة شيء الهي ، فأتت الابجدية وانزلت الثقافة والكتابة الى الارض ، وجعلت بامكان الرجل العادي ان يتعلم بسهولة ويسر . كذلك ساهمت الابجدية في نشر التعليم بين جميع الطبقات وفي جميع الاعمار ، وذلك لسهولة تعلمها ومرونتها . ومما لاشك فيه ان اتقان تعلم واستعمال اثنين وعشرين حرفاً يحتاج الى جهد وذكاء اقل بكثير مما يحتاجه تعلم مئات الرموز والاشارات المعقدة . ولقد انقصت الابجدية الزمن الذي يحتاجه المرء للتعلم ، فبينما نرى الشخص الصيني يحتاج الى اكثر من عشر سنين حتى يتعلم اوليات كتابة لغته ، فان نفس المستوى من التعلم يبلغه الولد الذي لم يمض في المدرسة الابتدائية اكثر من سنتين اوثلاث في البلاد التي تستعمل الاحرف الهجائية .

وبالجملة فقد جعل اختراع الابجدية الثقافة والتعليم شعبياً وساهم في نشره بين اعداد متزايدة من بني البشر . وكسر حصر رجال الدين للثقافة والتربية

والعلم والتعليم ، وانقص عدد السنوات المطلوبة للتعلم ، وساهم في نقل تراث الانسانية عبر الزمان والمكان بشكل اكمل وأيسر من ذي قبل ، فهل تعرف اختراعاً آخر يقارب في اهميته ونتائجه اختراع الابجدية ؟ اللهم لا . لذلك نستطيع ان نقول ان القول الذي يعلن ان اختراع الابجدية هو اعظم اختراع في تاريخ الانسانية الثقافي العقلي هو قول صادق ولامبالغة فيه ، وان القول ان الابجدية هي من اهم منح الحضارة السورية الى الانسانية هو قول حقيقي ولامغالاة فيه .

الفصل الثالث

المواد التي استعملت في الكتابة

استعمل القدماء مواد كثيرة ومتنوعة لتسجيل معلوماتهم عليها ، ولم يتوصل الانسان الى اختراع الورق الا في عصر متأخر نسبياً ، ولم يصبح الورق نفسه مادة كتابية شائعة الا في وقت لاحق في العصور الوسطى . ونحن لسنا على ثقة تامة من كل مانورده من معلومات تتعلق بالكتابة والكتاب ومواد الكتابة ، ذلك على الرغم من ان تاريخ الكتاب يمتد على حقبة تزيد على خمسة الاف سنة ، فانناالانجد ، في العصور الاولى من ذلك التاريخ الا قليلاً من الوقائع المتناثرة التي يمكن الركون اليها لتكوين فكرة اقرب الى الصحة عن الكتاب والكتابة . وعلى الرغم ممااكتشفه العلماء مؤخراً ، في هذا المجال ، وعلى الرغم من الابحاث المتعددة في هذا الميدان ، الا انه لايزال هناك كثير من الغوامض التي يجب جلاؤها . لذلك يجب ان نتناول مالدينا من معلومات ووقائع بحذر وحيطة شديدين ، والانتسرع في اصدار أحكام عامة قبل الاوان ، وقبل ان نتأكد من متانة الاساس الذي نستند اليه .

هذا ، وان المواد التي استعملت في الكتابة ، اثرت ولابد ، بطريقة من الطرق ، في تطور تلك الكتابة ، كما هي الحال عليه في حالة الخط المسماري ، الذي تأثر شكله بالمادة التي كتب عليها . وهي اللوحات الطينية الطرية ، وهكذا . ولذلك كان القاء نظرة عابرة سريعة على هذه المواد امراً لابد منه وضرورياً لاستكمال الصورة .

لقد قدمت جدران الكهوف الاولى الصخرية التي عاش فيها انسان ماقبل التاريخ احسن مادة جاهزة ليسجل عليها هذا الانسان اولى كتاباته التصويرية ، كما هو عليه الحال في جدران كهوف دوردونDordogne ولاسكوLascaux

والتاميرا حيث استعمل انسان ماقبل التاريخ جدران هذه الكهوف لرسومه ولكتاباته التصويرية الاولى . وعندما تقدم الانسان في مضمار الحضارة اصبح باستطاعته ان يجعل سطح الصخرة او سطح جدار الكهف الذي يريد ان يرسم عليه او يحفر الكتابة عليه ناعماً ملساً وذلك من اجل بعض النقوش بالغة الاهمية ، كما هو عليه الحال في صفحة الصخرة الهائلة التي نقش عليها داريوس الكبير انتصاراته في فارس ، وهي الصخرة المسماة بيهستونBehistun والتي نقش عليها داريوس انتصاراته بثلاث لغات وتمكن من حل رموزها في الاربعينات من القرن الماضي رولنسن . كذلك اعتاد فراعين مصر العظام ان ينقشوا اعمالهم ويمجدوا انتصاراتهم على قطعة واحدة هائلة من الصخر تقطع وتمهد من اجل هذه الغاية ، وتصنع على شكل موشور ثلاثي ، ثم تنقش وتحفر عليها اعمال ذلك الفرعون ، وهو مايدعى باسم المسلات .

كذلك استعمل بعض الاقوام قطعاً صغيرة من الحجارة لتسجيل المعلومات . وغالباً فان اقدم انواع ونماذج من الكتابة الحقيقية اكتشفت حتى الآن قد وجدت محفورة منقوشة على قطعتين من الحجر الاسود الصلد هيئتا خصيصاً لهذه الغاية . الاولى منهما هي لوحة هوفمان وقد اكتشفت في اوروك ، وهي موجودة في حوزة حلقة الدراسات العليا الكهنوتية في نيويورك ومساحتها اربع بوصات مربعة ويعود تاريخها الى حدود ٥٠٠٠ ق.م . والثانية منهما تسمى Monuments Bleauوهي عبارة عن اسطوانات حجرية موجودة في المتحف البريطاني واكتشفت في بلاد الرافدين ويعود تاريخها الى نفس التاريخ السابق . هذا وتحمل كل من القطعتين كتابة تصويرية كانت مستعملة في بلاد الرافدين قبل استعمال الكتابة المسمارية .

ويبدو ان قدماء المصريين استعملوا لكتاباتهم الاولى مواد سريعة التلف . وهذا يعلل ، الى حدما ، عدم اكتشاف كتابات موغلة في القدم كتلك التي اكتشفت في بلاد الرافدين . ان اقدم نص مصري منقوش على الصخر ، هو نقش سندSendinsecription ،ويعود تاريخه الى حدود ٤٠٠٠ ق.م ، وهو الآن موجود في متحف الاشمولين في جامعة اكسفورد . هذا وان الكتابة المنقوشة على

هذا اللوح الصخري ، والاحرف والرموز التي استعملت في الكتابة متطورة تطوراً عظيماً بحيث انه ، ولابد ، قد سبقها محاولات كثيرة في هذا المضمار ، على الرغم من عدم عثورنا على اي اثر يدل على ذلك .

هذا وان اقدم مواد حقيقية استعملت للكتابة لاتزال حية هي اللوحات الفخارية المشوية التي تشبه الآجر والتي حفر عليها ماسمي فيما بعد باسم الكتابة المسمارية في بلاد الرافدين . ومما لاشك فيه ان سكان وادي دجلة والفرات القدامى كالسومريين والاكاديين والبابليين والاشوريين قد استعملوا مواد اخرى للكتابة عليها . فمثلاً كان بامكانهم الحصول على اوراق البردى المصرية ، وكانوا يحصلون عليها . ويبدو ان الشروط المناخية للمنطقة كانت مسؤولة الى حد كبير عن زوال المواد الاخرى الهشة التي تتأثر وتتحلل بالرطوبة . ويجب ان نلاحظ ان واديي دجلة والفرات ، ولاسيما القسم الاسفل منهما ، ليس فيهما حجر صخري او مواد اخرى يمكن استعمالها للكتابة عليها وحفظها مدى اجيال . لذلك اتجه القوم في اتجاه اللوحات الطينية واستعملوها للكتابة .

كانت حروف ورموز الكتابة تحفر على الواح ، وهي لم تزل بعد لينة رطبة ، وذلك باستعمال آلة غير حادة مثلثة الشكل مصنوعة من المعدن او العاج او الخشب . واذا كانت كتابة البابليين والاشوريين ، ومن قبلهم السومريون ، قد اتخذت شكل الزاويةCuneiform فانمايرجع ذلك الى المادة والاداة المستعملتين في هذه الكتابة . ويجب ان نلاحظ ان كلمةCuneiform مشتقة من الكلمة اللاتينيةCunenus ومعناها وتد او اسفين . ولذا سمي هذا الخط بالخط المسماري او الاسفيني لان حروفه على شكل أسافين . وكانت الالواح ، بعد الانتهاء من الكتابة عليها ، توضع ، كاللبن المجفف ، في افران كي تكتسب صلابة .

ويوجد على سطح بعض الالواح الكبيرة ثقوب صغيرة تسمح بخروج البخار منها اثناء عملية انضاجها . وهناك اشكال كثيرة للوحات الفخارية ، فقد كان بعضها مربعاً او مدوراً او متطاولاً . . . مع حواف مدورة . وكانت اللوحات عادة مسطحة الاعلى ومقعرة بعض التقعر من الاسفل . اما عن احجام هذه الالواح فكانت متفاوتة تفاوتاً كبيراً ، وان كان اغلبها في حجم نصف الورقة من

القطع العادي . وبشكل عام كان يكتب على باطن هذه الالواح وعلى ظاهرها . وكان يعمل ظروف للوثائق المهمة والمراسلات المهمة ، والظروف تصنع طبعاً من الطين ، ولكن السؤال المحير هو كيف امكن صنع هذه المظاريف بحيث امكن ادخال الوثيقة فيها واخراجها منها دون ازعاج الطرفين ؟ ولم يتمكن حتى الآن احد من الاجابة على هذا السؤال .

ولقد تم اكتشاف ونقل اطنان من هذه اللوحات الفخارية من جميع الاحجام والاشكال من خرائب المدن البابلية والاشورية القديمة الى جامعات ومتاحف اوربا امريكا . ولعل اكبر واهم كمية من اللوحات الفخارية اكتشفت هي تلك التي اكتشفت في خرائب نينوى وقدر عددها بحوالي ٣٠ الف لوحة فخارية . ويعتبر المتحف البريطاني في لندن اكبر معهد يحوي لوحات فخارية اذ ينوف مايملكه من هذه اللوحات على العشرين الف . هذا وان محتويات هذه اللوحات متنوعة كل التنوع ففيها الوثائق الحكومية وفيها نصوص القوانين والمعاهدات والملاحم والادب . . .

وقد اعتاد ملوك بلاد الرافدين ان يضعوا الانصاب في ساحات المدن العامة لاطلاع الناس على القوانين والاوامر والنواهي او لتخليد الانتصارات وماماثل من اغراض . ولعل اشهر مثلين على هذه الانصاب نصب سرجون الاكادي ونصب حمورابي العظيم . لقد اكتشف احد الاثريين نصب حمورابي هذا في سوزا (موجودة في ايران الآن) وهو عبارة عن نصب مرتفع بشكل موشور في اعلاه نقش يمثل الاله شمش يمنح حمورابي القوانين . بعد ذلك تأتي نصوص القانون مكتوبة بالكتابة المسمارية . وعدد مواد القانون حوالي ٢٥٢ مادة .

اما اشهر مادة استعملت للكتابة في الشرق القديم واوسعها انتشاراً فهي مادة البردى . كثر في العصور القديمة ـ في المياه الاسنة ومستنقعات النيل ـ نبات اسماه اليونان اسم بابيروسPapyros ، ومقابله العربي البردى ، ويبدو ان كلمة بردى من اصل مصري قديم . وينتمي هذا النبات الى شعبة النباتات المفصلية ، وقد اصبح الآن نادر الوجود ، وقد انقرض من مصر موطنه الاصلي ، ويجري الآن استنبات نبات البردى بكميات قليلة قرب مدينة سيراكوزا (سرقوسة) في

صقلية(١) . وقد استخدمه المصريون في شتى الاغراض . ويعنينا من هذه الاغراض هنا استعمالهم لساق هذا النبات . وهي مثلثة الشكل ، قد يصل ارتفاعها الى عدة امتار . وكانوا يشقون لباب ساق هذا النبات الى شرائح رقيقة للغاية ، ثم تضغط وتصف صفوفاً الواحدة بجانب الاخرى ، وبعد ذلك يوضع فوقها طبقة اخرى من الشرائح بحيث تكون متعامدة مع الاولى ،ثم يطرق بالمطرقة على هاتين الطبقتين المتعامدتين من الشرائح الى ان تلتصقا . ويبدو ان العصارة الصمغية الكائنة في هذا النبات وفي الشرائح كانت تساعد على التصاق الطبقتين ، كما يحتمل انهم كانوا يستعملون صمغاً خاصاً لهذا الغرض . وعلى اية حال كان الالتصاق قوياً بدليل المتانة التي لم تزل تحتفظ بها الى اليوم معظم اوراق البردى ، على الرغم من مرور الاف السنين على صنعها .

ويحتمل انهم ـ بعد توحيد الشرائح في ورقة على النحو الذي مر ذكره ـ كانوا يطلونها بالشمع والصمغ حتى لاتنتشر الكتابة عليها . ثم كانت تجفف في الشمس وتصقل حتى يصير سطحها لامعاً براقاً . وبعد الانتهاء من صنعها تصبح مرنة لينة مهما قلت جودتها . وقد استمرت هذه المرونة الى الآن بدرجة تدعوا الى الاعجاب . وبعد ذلك كانت تلصق هذه الاوراق بعضها ببعض من اليسار الى اليمين في قطع طويلة .

ويبدو ان ورق البردى دخل في طور التصنيع منذ عهد مبكر ، حتى انه كان يباع كما يباع الورق في وقتنا الحاضر ، اي في مجموعات كبيرة ، في (حزم) و (رزم) يقطع منها فيما بعد ، الحجم المطلوب حسب الحاجة .

وبوجه عام كانت تستخدم قطع من البردي يتراوح طولها بين ١٥-١٧ سم ، وان يكن قد عرف في العصور المتأخرة احجام تصل إلى ثلاثة أضعاف هذا الطول .

واحسن انواع البردى ما كانت الوانه فاتحة مائلة الى الاصفرار او بيضاء تقريباً . اما الاصناف الدنيا فكانت تختلف في درجة اسمرارها قلة وكثرة . هذا وقد بلغت

---

(١) Ullman. op. cit. P. 197

صناعة البردى اوجها في الالف الثالث قبل الميلاد ، ولم تتعده فيما بعد . ويحتمل وجود اختلاف في تفصيلات صناعة البردى واشكاله على ممر العصور ، تبعاً لاختلاف طريقة صناعته . وان كنا نفتقر في هذا المضمار الى معلومات دقيقة ، وفضلاً عن ذلك فهناك كثير من النقاط الغامضة المتعلقة بالموضوع ، حتى ان وصف البردى وصناعته كما عرضناه آنفاً لم يأت من مصادر مصرية ، وانما اتى من معلومات اوردها المؤلف الروماني بلينوس الكبيرPlinius ، مكملاً بما قام به لفيف من علماء الآثار المصرية المحدثين .

وقد استفاد قدماء المصريين من نبات البردى كل الاستفادة ، فبجانب استخدامهم ساقه مادة للكتابة ، جففوا جذوره واستعملوها مادة للوقود ، واستخدموا اليافه لصناعة بعض انواع الحبال ،وكانوا يستعملون لبه في اوقات الحاجة وندرة المحاصيل كغذاء . وهكذا اثبت نبات البردى انه محصول زراعي مهم كل الاهمية في الحياة المصرية القديمة .

وقد انتشرت تجارة البردى في كافة ارجاء البحر المتوسط وظلت مزدهرة فترة طويلة من الزمن . وكان مركز هذه التجارة مدينة جبيل السورية الواقعة الآن على الساحل اللبناني . ولما كانت هذه المدينة هي المصدر الرئيسي للفافات البردى والمواد المستعملة في الكتب ، فقد سماها اليونان بيبلوس لانها مصدر الكتاب الذي يسمى باليونانية بيبلوسByblos . هذا ، وعلى الرغم من تقلص استعمال البردى كمادة للكتابة في العصور المتأخرة ، وذلك بسبب انتشار استعمال الرق والجلود ،الا انه ظل مستعملاً فترة طويلة من الزمن حتى بعد الالف الاولى الميلادية . ذلك ان عدداً من مؤلفات اليونان الكلاسيكية ، بما فيها كتاب ارسطو الشهير دستور الاثينيين ، قد وصلتنا مخطوطة على ملفات بردى كتبت بين سنتي ٣٠٠ و ٤٠٠م . وكان هذا زمناً اصبح فيه البردى نادر الوجود والاستعمال ، ولذلك وصلتنا هذه الكتب مكتوبة على ظاهر وقفا الملفات البردية . وكان ماقد كتب في باطنها قد محي . هذا وان آخر استعمال للبردى كمادة للكتابة عرفت حتى الان كان في سنة ١٠٢٢م وذلك بعد انقضاء زمن طويل على اكتشاف الرقوق وحلولها محل البردى كمادة للكتابة ، وقبل ان ينتشر استعمال الورق في الكتابة في

اوربا مباشرة . وملف البردى عبارة عن منشور بابوي . وقد وجد خطاب كتب على قطعة من البردى بعد استعمال الورق ، وقد بدأ الكاتب خطابه بقوله : (عفواً ، سامحني ايها البردى)[1] ماذا يكون موقف احدنا لواستلم خطاباً مفتتحه (لاتهتم ولاتنزعج لكتابتي بهذا القلم ، فاني لم اجد قلمي الخاص بي) .
ولقد تميزت كافة انواع البردى ، سواء كانت من النوع الهيراطي الذي يرجع الى اقدم العصور ، أم كانت من نوع يرجع الى عهد احدث بصفة عامة ، وهي الاختلاف القائم بين وجهي الورقة . هذا الاختلاف طبيعي ولابد منه بسبب وضع طبقتي شرائح البردية متعامدتين احداهما على الاخرى . ويسمى الوجه الذي صفت فيه الشرائح افقية باسم وجه الورقةRecto ، وهو الوجه الذي كان يكتب عليه في العادة . اما الوجه الآخر المعروف باسم ظاهر الورقةVerso ، والذي صفت فيه الشرائح رأسية ، فانه نادراً ماكان يستخدم للكتابة . هذا وان مادة البردى المرنة كانت صالحة للطي والنشر ،واذا ما طوي البردى في ادراج ولفافات ، فان وجه الورقة يكون الى الداخل ، في حين ان ظاهرها الذي لايكتب عليه يكون الغلاف الخارجي .

والكتاب المصري القديم كان على شكل درج او لفافة ، واذاما اريد قراءته كان لابد من نشر او (فرد) اللفافة حتى تظهر الكتابة تدريجياً .

وجرت العادة الاتكون السطور بطول لفافة البردى ، ولكن كانت اللفافة تقسم الى اعمدة من سطور قصيرة جداً ، وهكذا كان الكتاب يقسم الى اقسام تشبه الصفحات وتظهر للعيان كلما نشرت اللفافة .

هذا وان اكتشاف اللفافات بغزارة وطرق معالجتها وحفظها وصيانتها وحل رموزها ، كل ذلك ، مع عوامل اخرى ادت الى ولادة علم حديث اسمه علم البردياتPapyrology يهتم بهذه الامور ويتخصص به المتخصصون . هذا ولابد من ذكر ان العالم الغربي فقد المعرفة بالبردى في العصور الوسيطة ، على الرغم من وجود عدد قليل من ملفات البردى في محفوظات بعض دول اوربا آنذاك . ولم

---

(١) Rider. op. cit. P. 24

يقفز البردى الى ساحة الانتباه في اوربا الا في القرن الثامن عشر . فقد اكتشفت في خرائب هيركولانوم من جنوبي ايطاليا سنة ١٧٥٢م عدة برديات مسودة بالفحم وجدت في دارة خاصة فيها مكتبة فلسفية . ولقد عجز العلماء آنذاك عن قراءتها ولذلك حجبت عن الجمهور . كذلك احضرت الى اوربا بردية من مصر سنة ١٧٧٨م ، وقد اكتشف انها تحوي حسابات رجال اعمال يعملون في الري وليست مسرحية مفقودة لصوفوكليس او غيره او ماماثل من اعمال .

هذا وان اكبر عدد من البرديات اتى من الفيوم ، وهي منقطة منخفضة تقع جنوب غربي القاهرة . ولكن وجد ايضاً اعداد غفيرة في طول مصر من حدود النوبة الى حدود الدلتا ، مع العلم ان عدداً قليلاً من البرديات اكتشف في الدلتا واماكن اخرى مروية ، وذلك بسبب اثر الماء المتلف على البردى . كذلك وجدت برديات مهمة خارج مصر وخاصة في دورا اوردبوس على نهر الفرات في سورية (يعود اغلبها الى القرن الثالث م) وفي نيساناNessana في النقب جنوبي فلسطين (اواخر العصر البيزنطي) وفي منقطة البحر الميت وفي ايطاليا في موقعي بومبي وهيركولانوم . ان الشروط المناخية غير المناسبة سببت تلف البردى في اغلب الاماكن .

ليس هناك احصاءات تامة رسمية لمعرفة مجموعات البردى ، ولكن اكبر مجموعة من البرديات موجودة في المكتبة الوطنية في فيينا جمعها الامير رينيرRainer من حوالي مائة سنة ، ويفوق عدد مؤلفاتها المائة الف ، وقسم ضئيل منها نصه يوناني . ويوجد في المانيا مجموعات مهمة من ملفات البردى من اشهرها مجموعات برلين وهايدلبرغ وكولون وميونيخ ولايبزيغ وينيا . ويوجد في مكتبة جامعة لايبزيغ ملف بردى طوله ٢٠ متراً تقريباً ويحوي مائة وعشر صفحات كتبت بداية النص من الخارج ومن جهة اليمين ، وتتابعت الصفحات من اليمين الى اليسار . ويوجد في فرنسا مجموعات مهمة من اوراق البردى في كل من باريس وستراسبورغ وليل ، وفي ايطاليا في كل من ميلانو وفلورنسا . اما انكلترا فتوجد المجموعات فيها في كل من لندن واكسفورد . هذا ويوجد ملف في المتحف البريطاني في لندن اسمه ملف هاريسHarris طوله ١٣٣ قدماً وعرضه ١٧ بوصة . وتمتلك مصر

مجموعة من اكبر الملفات البردية وهي موجودة في المتحف الوطني في القاهرة . واهم مجموعة من ملفات البردى في امريكا تلك الموجودة في جامعة مشيغان ، وهناك مجموعات مهمة في ييل وكولومبيا وبركلي وبرنستون .

ان بداية دراسة البردية المعالجة هي قراءتها . وهذه اما مهمة سهلة او صعبة وذلك حسب شروط البردية المادية كوضوح الخط واستمراره او كونه غامضاً او ممحياً . . . وتزودنا البرديات بشكل صادق باول واوثق برهان لدينا عن شكل وطبيعة الكتاب في العصور القديمة ، كما وان الوف الوثائق التي وجدت في مصر تلقي ضوءاً على الحياة الداخلية فيها عبر السنين ، وهي محلية في طبيعتها . وان المعلومات المستخلصة منها تتعلق بحياة اشخاص عاديين مثل المزارعين او النجارين او الجنود . . . هذا مع العلم ان هناك استثناءات ، فهناك برديات تعرفنا بحقائق مهمة تاريخية مثل تسلسل تواريخ ملوك البطالمة التي اتت من مجموعة زينون ، وكذلك العلاقات السياسية بين البطالمة والسلوقيين وادارة الامبراطورية في عهد البطالمة .

إن أقدم ملف بردى معروف يرجع تاريخه إلى عام ٢١٠٠ق.م تقريباً ، وإن كان من الثابت أن ورق البردي قد استعمل مادة كتابية منذ عهد الكتابة الهيروغليفية ، بدليل أن أحد أحرف الكتابة الهيروغليفيه يمثل شكل ملف بردى .

ولابد من ذكر انه وجد في نقش غائر في جدران قبر الملكة تيTi في سقارة ويعود تاريخه الى الى ٢٤٠٠ ق.م رسم يمثل كاتبين مصريين يكتبان على ملفين من اوراق البردى ، على حين ان اقدم بردى معروف فهو الملف المذكور آنفاً ويعود تاريخه الى ٢١٠٠ ق.م . كما وانه اكتشف نقش يعود تاريخه الى سنة ١٤٧٥ ق.م ويذكر فيه نبات البردى وجنيه واهميته وماشاكل ذلك .

ويحتاج الكتاب الضخم الى عدد من اوراق البردى ، حجم كل منها يتراوح بين ١٢ـ١٦ بوصة ، تلصق نهاية الاول ببداية الثاني حتى يتم تشكيل الملف بالحجم المطلوب للكتاب . لم يكن طول ملفات البردى العادية يتجاوز ١٢ بوصة الا بشيء قليل . وكثيراً ماكانت تهيأ ملفات طولها ٦ بوصات وحتى ثلاث بوصات .

لقد اكتشف عدد كبير من الملفات في اغلفة المومياء وقبورها ، على حين ان عدداً آخر اتى من الحفريات التي اجريت في خرائب المدن التي زالت عبر حقب التاريخ . فقد عثر في سلات المهملات التي كانت مدفونة في رمال مصر على بقايا ملفات بردى . وقد اخذت هذه القطع وعولجت بشكل علمي منقطع النظير حتى اصبحت مقروءة واستطاع العلماء ان يطلعوا عن طريقها على ادق تفاصيل الحياة اليومية في مصر . وان اهم ملفات بردى اكتشفت هي تلك التي امكن استخلاصها من خرائب مدينة هيركولانوم الايطالية التي دمرها بركان فيزوف سنة ٧٩ م .

وقد استخدم قدماء المصريين للكتابة ساقاً من الغاب او القصب ، وكان يبرى بشكل مائل بحيث تسهل الكتابة به بشكل دقيق او غليظ حسب رغبة الكاتب . ومع ذلك فقد بدىء من القرن الثالث الميلادي باستعمال قلم مبري برياً مدبباً . ويسمى القلمCalamus وكان هذا القلم يسمح بالحصول على كتابة اكثر دقة . اما المسطرة التي كانت تستخدم في تسطير الاسطر والصفحات فكانت كالقلم سواء بسواء ، جزءً لاغنى عنه لكل كاتب . وكان الكاتب يحفظ فرجونه وحبره في المقلمة وهي قطعة مستطيلة رقيقة من الخشب وفجوتان او اكثر للحبر . كان الكاتب يكتب غالباً في الهواء الطلق وهو جالس متربعاً بشكل ان ساقيه متعارضتان وامامه طاولة منخفضة . وهناك صور كثيرة تمثل الكاتب المصري يحمل قلماً على كل من اذنيه . وكان الحبر يصنع من الصناج او الفحم الخشبي مضافاً اليه الماء والصمغ ، فكان اجود بكثير من الحبر الذي نستعمله اليوم . ولاعزو في ذلك فقد حافظت كتابة الفراعنة على لونها الاسود اللامع الجميل عدة الاف من السنين . كذلك استعمل الحبر الاحمر وخاصة في تحرير العناوين ورؤوس الفصول . واستخدم المصريون لحفظ الملفات جرات من الخشب اوالفخار ، ونظراً لان الوجه الخارجي للملف كان اكثر تعرضاً للتلف ، فانه كان يصنع بحيث يكون اكثر صلابة ، او انه كان يحافظ عليه بوضعه داخل غلاف . وكذلك كانت اطراف الملفات تلصق بها الشرائح زيادة في تقويتها .

اذا كانت اوراق البردى قد وصلتنا بكميات كبيرة نوعاً ما ، فان ذلك لايرجع الى مادتها المصنوعة منها . وحسب مايقول الكتاب القدامى فان ملف البردى الذي يبقى بضع مئات من السنين يعتبر قد اصبح قديماً وقد بلغ من الكبر عتياً . وهناك كثير من الكتاب يشكون ضعف تحمل اوراق البردى وقلة مقاومته لعوادي الزمن ، فضلاً عن تعرضه للافات والحشرات التي حاولوا مقاومتها بغمس ورقة البردى في زيت شجر الارز . على ان الرطوبة كانت اعظم اعداء البردى ، ويصعب طبعاً تكوين فكرة قريبة من الصحة عن عدد اوراق البردى التي اتلفتها الرطوبة ، وكل ما يمكن قوله في هذا المجال هو ان كل مايوجد من اوراق البردى في متاحف العالم ومكتباته في الوقت الحاضر لايمثل الاجزءاً ضئيلاً للغاية من البرديات التي كتبت في العصور الماضية . وثمة دليل غير مباشر على ان الرطوبة كانت السبب الرئيسي في القضاء على عدد كبير جداً من البرديات ، الاوهو ان معظم ما كشف من برديات قد عثر عليه في حفريات اجريت في مصر . وعلى الرغم من ان العالم اليونالني الروماني قد استخدم البردى مدة قرنين من الزمان تقريباً ، وبنسبة اكبر مما استخدمه المصريون ، فاننا لم نعثر في تلك البلاد الا على عدد قليل نسبياً من ملفات البردى . ويرجع هذا ، ولاشك ، الى اثر المناخ السيء في هذه البلاد ، في حين ان جفاف الجو في مصر كان عاملاً اساسياً في المعاونة على حفظ البردى فيها .

والواقع أن ملفات البردي المطمورة في رمال مصر قد حفظت تماماً كما لو كانت في متحف ، بل وكان حفظها أفضل لأن المتحف يضعها بين ألواح زجاجية محكمة الاغلاق . وقد كشف اكبر عدد من ملفات البردى في مقابر قدماء المصريين التي كانت اصلح الاماكن لحفظ مادة سهلة التلف كمادة البردى . وقد جرت العادة في القرون الاخيرة التي سبقت ظهور السيد المسيح ان تصنع توابيت المومياء من قصاصات من ورق البردى يلصق بعضها ببعض ثم تغطى بطبقة من الجص . وبهذه الطريقة وصلتنا اعداد كبيرة من النصوص المكتوبة على اوراق البردى .

الجلود والرقوق :

لم يبق البردى المادة الوحيدة للكتابة طوال عهده ، اذ ظهرت مادة جديدة منافسة للبردى في اوائل العصور المسيحية وتمكنت ، بعد فترة ، من التغلب عليه حتى اصبحت المادة الرئيسية للكتابة ، ونعني بذلك الرقوق والجلود .

لاشك ان استعمال جلود الحيوانات مادة تكتب عليها الكتب والرسائل قديم كل القدم واستعمل في عدد من البلدان . فقد استعمله قدماء المصريين وبنو اسرائيل والاشوريون والفرس الذين استخدموا لذلك جلود الماشية . وكذلك لم يكن هذا الاستعمال مجهولاً لدى الاغريق الذين سموه باليونانية باسم ديفترياDiphteria وهي كلمة دفتر بالفارسية وعن الفرس اخذها العرب ، وهي تسمية مالبثت ان عم استعمالها واطلقت على مواد اخرى استعملت للكتابة . على انه لم يبدأ بتجهيز الجلد تجهيزاً فنياً يجعله اصلح للكتابة الا في القرن الثالث ق.م ، ويرجع الفضل في هذه الطريقة الصناعية الفنية الى اهالي مدينة برغامم (الواقعة خرائبها حالياً شمالي ازمير من تركيا) حيث انهم طوروا هذه العملية بشكل فني حتى اصبح اسم الجلود مرادفاً لاسم البلد نفسها . فقد اشتق اسم الجلد منPergamineum واصبح بعد فترة باسمParchemin للدلالة على الجلد او الرق .

هذا ولابد من ذكر انه ترافقت عدة عوامل لجعل الرق يبرز الى الوجود ومن بعد ذلك يتغلب على البردى . تذكر القصة انه في حدود سنة ٢٠٠ ق.م فرض ملوك البطالمة الذين كانوا يحكمون مصر آنذاك ضريبة باهظة على تصدير البردى مما ادى الى رفع ثمنه . كما كان البطالمة يحسدون الاتالينين ملوك برغامم على مكتبتهم الكبرى في برغامم ويخشون ان تصبح منافسة لمكتبة الاسكندرية الشهيرة ، فقرروا رفع ثمن البردى ووضع حصر عليه وتحظير تصديره من البلاد . وقد تضايق ملك برغامم آنذاك من هذه القيود المفروضة وهو يومينيس الثانيEumenens II فقرر ايجاد البديل لمادة البردى ووجد البديل في الرقوق والجلود . ولكن لاشك ان هذا احد العوامل ، ذلك ان هناك عوامل اخرى ساعدت في انتشار الرق وزوال

البردى ، ذلك ان البردى سهل التمزق على حين ان الرق اكثر تحملاً ، كذلك يمكن كشطه والكتابة عليه من جديد ، ويمكن انتاجه محلياً دون الخوف من حصر يحظر تصديره . كذلك كانت الكتابة على وجهي الرق أسهل بكثير من الكتابة على وجهي ملف البردى . ولكن انتاجه اغلى بكثير من انتاج البردى . ومع ذلك ظل البردى في الاستعمال فترة طويلة وان يكن بدأ استعماله يضعف ويحل محله الرق الذي استعملته بشكل خاص المسيحية لانتاج الكتب الدينية لان الرقوق اكثر تحملاً بمالايقاس من البردى ، ولارتباط البردى بالوثنية . هذا ولابد من ذكر ان اقدم رق يوناني في الوجود يعود تاريخه الى سنة ١٨٩ ق.م عندما كان يومينيس الثاني ملكاً على برغامم ، وقد اكتشف في دورااوروبوس على نهر الفرات في سورية سنة ١٩٢٣ م . ولقد طور اهل برغامم صناعة الرق وارتفعوا بها الى اعلى المستويات الفنية ، صقلاً ، وتلميعاً ، وتزييناً . . . وكان المعتاد استعمال جلود الماشية ، وكانت تلك الجلود بعد تنظيفها تماماً ، توضع في ماء الجير حتى تزول عنها المواد الدهنية ثم تجفف بعد ذلك وتحك من غير دباغة بمسحوق الطباشير الناعم ثم تصقل بحجر الطلاء او بطريقة مماثلة ، وبعد هذا يصير الجلد صالحاً للكتابة تماماً ، اذ يصبح سطحه مصقولاً متيناً بدرجة كافية للكتابة بحيث كان من الميسور الكتابة عليه من وجهه وظهره .

واجود انواع الرق ماكان مصنوعاً من جلود صغار العجول ويسمى هذا النوع باسمVellum ، ويأتي بعد ذلك جلود الماعز والحملان الصغيرة . ويجب التأكيد على الفرق بين الجلد والرق . فالجلد لايعالج كيماوياً على حين يعالج الرق بالطريقة المذكورة آنفاً فيصبح صالحاً بشكل جيد كل الجودة للكتابة .

لقد كان وجه الرق المقابل للشعر اغمق من وجه الرق المقابل للحم . ولذلك كان على الكتاب ان يجعلوا الصفحات المتقابلة من نفس اللون (الوجه المقابل للحم يقابله وجه مقابل للحم والوجه المقابل للشعر يقابله وجه مقابل للشعر وهكذا) . ولقد استعمل للكتابة على الرق ريشة بطة او ديك هندي .

كان استخدام الرق في البداية ، قاصراً على الرسائل والوثائق والمذكرات الموجزة وغير ذلك ، وعلى مر الزمن خطا استعمال الرق ـ الذي اسماه الرومان باسم

Membrana ـ خطوة جديدة الى الامام ، فاستخدم في صناعة الكتب ، ولكن استخدامه لم يعمم الا ببطء اذ ظل يكافح في هذا السبيل مدة ثلاثة قرون قبل ان ينتصر على البردى تماماً ويحل محله المادة الرئيسية للكتابة . وقد بدأ استعمال البردى مادة كتابية بالزوال منذ القرن الرابع م ، ومع اننا نعلم باستخدام البردى مادة كتابية حتى القرن الحادي عشر في الملفات والاوراق البردية الخاصة بالديوان البابوي والمناشير البابوية ، كما مر معنا سابقاً ، الا ان هذه حالات نادرة يرجع السبب في وجودها الى ارتفاع ثمن مادة اصبحت نادرة كل الندرة .

هذا وان استحدام الرق في الكتابة وانتشار استعماله ادى الى نتيجة اخرى تتعلق بشكل الكتاب نفسه . فقد كان الرق اول الامر يلف كما يلف البردى ويكتب عليه كما يكتب على البردى . ولقد بدأ الرومان في القرن الاول الميلادي تجربة جديدة في الكتابة على الرق ، فقد بدأوا يطوون الرق ويكتبون على وجهي الرق المطوى . بعد ذلك تعلموا طي الرق عدداً من المرات . ولقد كانت الصفحات اول الامر قاسية غليظة سميكة وصعب تداول المخطوط . وقد وضعوا في اول المخطوط وآخره لوحين من خشب لتجليده وحماية الرق المطوى ، كما احدثوا ثقوباً في لوحي الخشب وفي أوراق الرق وأدخلوا بها سيوراً من جلد . ومع ذلك لم يكن من السهل غلق الكتاب المصنوع من الرق . ولقد استعملوا مسامير من معدن وحواف معدنية لتقوية الجلد مما زاد من وزن المخطوط ، وهكذا اصبح شكل الكتاب على شكل الكتاب الكراس Codex وهو الشكل الاساسي للكتب المتداولة منذ ذلك الزمن حتى الآن ، وحل محل الكتاب الملف Roll .

وقد اتت الكلمة كراس Codex من الكلمة اللاتينية Caudex وتعني الخشب . كما وانه اضيف جلد الى ضلع الكتاب . وقد زين الرومان كتبهم الكراسية وملفاتهم بصور للايضاح . فقد استعمل فارو Varro حوالي ٧٠٠ صورة في معجمه الذي الفه في تراجم قدماء الرومان . وقد زينت كتب ارسطو وخاصة عن التشريح ، بكثير من الصور الايضاحية .

كما كانت تجري ، بعض الاحيان ، عملية محي الكتابة عن الرق وكشطه ثم الكتابة عليه من جديد . ويسمى الرق المكتوب عليه مرتين باسم

Palimpsest . وقد اكتشف مخطوط ثمين كشط ثم كتب عليه من جديد . هذا المخطوط هو كتاب الجمهورية لشيشرون De Republica . فقد اكتشف العلماء ان مخطوط القديس اوغسطين المسمى ابحاث القديس اوغسطين على المزامير قد كتب على رق كان مكتوباً عليه كتاب شيشرون سالف الذكر ثم كشط وكتب عليه كتاب اوغسطين . وهذا المخطوط الآن في حوزة مكتبة الفاتيكان .

لقد كان ملف البردى مادة الكتابة الرئيسية للكتابة لدى اليونان والرومان في العهد الجمهوري . على حين اصبح الكتاب الكراس المصنوع من الرق المادة الرئيسية للكتابة لدى الامبراطورية الرومانية في عهودها المتأخرة واوربا في القرون الوسطى . ولقد كان لكل من النوعين تأثيره على تطور الكتابة . فقد ادى ملف البردى ذو الحجم والطول المعياري الى تقسيم النص الى كتب ، فقد قسم بحاثة مكتبة الاسكندرية الالياذة والاوديسة الى كتب ، على حين ساعد الكتاب الكراس المصنوع من الرق على استعمال الظل في الكتابة وخصوصاً بعد استعمال القلم المصنوع من الريش .

الخشب ولوحات الشمع :

استخدم اوائل الصينيين ، الذين اخترعوا الورق ، قبل اختراعهم هذه المادة ، الخشب مادة للكتابة . ذلك انه في نفس الوقت الذي كان فيه ورق البردى وملفه مادة اساسية للكتابة ، وحدد ذلك الشكل الخارجي للكتاب الكراس ـ وهوشكل الملف ـ ازدهرت في صقع ناءٍ آخر ، حضارة اخرى لم يكن القلم اقل اهمية فيها من السيف ، وبلغت حداً مماثلاً من الكمال ، وبدت آثار ذلك في فن الكتاب .

ففي خلال الالف الثالثة قبل الميلاد ، اظهرت الصين نشاطاً ادبياً ملحوظاً ، ومن المعروف انه وجد في الالف الثانية قبل الميلاد فما بعد في الصين مؤرخون امبراطوريون ، ومن اشهرهم الفيلسوف الكبير لاوتسي Laotse الذي عاش في حوالي ٥٠٠ ق.م وكان امين محفوظات القصر الامبراطوري .

استعمل الصينيون في الكتابة آنذاك الالواح الخشبية ، فكانوا ينقشون عليها الكتابة بآلة مدببة ، وكتب عليها ، فيما بعد ، بالحبر بواسطة قلم رفيع من القصب ، ولم يبق شيء من هذه المخطوطات الخشبية ، ويرجع السبب الرئيسي في ذلك الى الامر العالي الذي اصدره الامبراطور الصيني تسن شيهو آنجتي Tsin Shihuangti سنة ٢١٣ ق.م والقاضي بابادة جميع الكتب عقاباً لمؤلفيها الذين تجرأوا على نقد نشاطه السياسي ، فلم ينج من الحريق الا عدد قليل من الكتب . اما الكتب الخشبية التي كتبت بعد ذلك فقد تلف اكثرها تحت الارض .

ولقد ادى الامر الامبراطوري السابق الى ظهور نشاط ادبي كبير ، وذلك بفضل المحاولات التي بذلت لاصلاح النكبة التي اصابت الكتب الخشبية ، وذلك بالبحث عما كان لايزال باقياً من الاداب القديمة من عصر كونفوشيوس Confucius واعادة تحريرها . فلم يقنع الناس بالالواح الخشبية وبدأوا يستعملون الحرير ويكتبون عليه باقلام من الغاب او بفرجون من وبر الجمل . ولقد امتاز الحرير بكثير من صفات البردى وخاصة من حيث مرونته وبريق سطحه ، وان كان اغلى منه ثمناً .

كذلك استخدم الرومان لوحات الشمع عدداً كبيراً من القرون . فقد كان يؤتى بلوح من خشب ويطلى وجهه بشمع اصفر او اسود ويلمع ، وربما كانت تزين حواف اللوح بشيء من العاج ، وكانت اداة الكتابة قلماً مدبباً من الخشب او العاج او المعدن ويسمى Stylus . كانت الحروف تحفر على السطح المطلى بالشمع ، وعندما تنتهي مهمة الكتابة المحفورة على السطح الشمعي ، فان الشمع كله يزال ثم يعاد طليه من جديد لاستخدامه مرة اخرى وهكذا . وكان التلاميذ الرومان يستعملون اللوح الخشبي المطلي بالشمع كثيراً في دروسهم ، وكان يجمع احياناً لوحان او ثلاثة بواسطة حزام من الجلد . وهذا الشيء ربما كان اول خطوة في سبيل تغيير شكل الكتاب من الملف الى الكراس . وقلما كانت تخزن الالواح المشمعة في المكتبات . وقد وجدت عدة الواح مشمعة في خرائب مدينة هيركولانوم .

كذلك استعمل الرومان الواحاً خشبية كبرى وكانوا يضعونها في اماكن بارزة في الاسواق ، وكانوا يكتبون عليها باحرف بيضاء الانباء المهمة والملاحظات العامة وحتى الاغاني . وقد اذيعت على الشعب الروماني بهذه الطريقة قوانين صولون الشهيرة .

مواد اخرى :

كذلك استخدم القماش في صناعة الكتب كما في مصر وروما القديمة . وقد تحدث تيت ليفـTitus Livus الكاتب الروماني القديم وغيره من الكتاب القدامى عن لفافات القماش .

ولعل اغرب مادة استعملت في الكتابة ، وربما اقدمها ، هي لحاء الشجر . وجدير بالذكر ان كلمةBYBLOS اليونانية وكلمةLIBER اللاتينية ـ وكلتاهما بمعنى كتاب ـ اطلقت على لحاء الشجر . واذا علمنا ان لحاء الشجر ، بعد تجفيفه وحكه بالزيت ، كان يستخدم في تحرير المخطوطات على ممر العصور ، وانه لايزال يستعمل حتى الآن في بعض اجزاء الهند وبورما وسيام ، فاننا يجب الاندهش لاختيار الاقدمين مادة من نفس النوع ، وهي مادة لحاء الشجر ، لهذا الغرض نفسه لقد كان من الميسور الكتابة على هذا اللحاء ، كما كان يكتب على سعف النخل بالضبط ، وذلك بخدشه بابرة .

كما استعملت العظام العريضة ، في بعض الاماكن ، مادة للكتابة . فقد استعمل اوائل المسلمين هذه المادة ليدونوا عليها عدداً وبعضاً من ايات الله البينات وذلك زمن صاحب الرسالة عليه افضل الصلاة والسلام .

هذا وان خواص كل مادة من المواد التي استعملت في الكتابة قد اثرت بعمق في نشوء وتطور طراز الكتابة التي كتبت عليها . فقد اثرت اللوحات الطينية التي استعملت في وادي الرافدين ، وكانت السبب في ايجاد الكتابة المسمارية ، على حين ان ورق البردى كان من العوامل المساعدة في انتاج الخط الهيروغليفي ومن بعده الهيراطي ومن بعده الديموطي ، وان سطح الرقوق المصقولة التي استعملها اليونان والرومان فيما بعد كانت من العوامل التي ساعدت في تطور الكتابة اليونانية ، وهكذا .

بحثنا فيما مر ـ بشيء من الايجاز ـ اغلب المواد التي استعملت في الكتابة وبخاصة المواد التي تسجل عليها الكتابة ، وحاولنا ترتيبها زمنياً وتاريخياً من اقدم الازمنة حتى اوائل العصور المسيحية ، وكذلك اوردناها حسب اهميتها في الزمان والمكان والآثار المترتبة على استعمالها . ولكننا لم نبحث تطور الكتاب نفسه والاشكال التي مر بها ومميزات كل شكل ، وكيف ولماذا انتقل من شكل اللوحات الى شكل الملف الى شكل الكتاب الكراس المخطوط ذي الصفحتين المتقابلتين . كذلك لم نبحث تطور ومميزات الكتب في الاماكن المختلفة والعصور المختلفة ، لان ذلك مجاله في ابحاث قادمة ان شاء الله تعالى .

واخيراً كان من الواجب ان نختم بحثنا هذا بذكر اهم مادة استعملت في الكتابة ولاتزال تستعمل ، الا وهي الورق ، ولكن ذلك يقتضينا مجالاً واسعاً ومكاناً مناسباً يضيق مجالنا الحالي عنه وسنخصص له حيزاً جيداً باذن الله .

الفصل الرابع

الكتابة والكتب في العصور القديمة

قبل ان نبدأ بدراسة الموضوع الذي اعتزمنا دراسته في هذا الفصل ، لابد لنا من تحديد مفهوم العصور القديمة واين وكيف ومتى وجدت المفاهيم والعناصر التي ازمعنا دراستها هنا . والواقع ان مفهوم العصور القديمة يعود الى تصور اوربي ، يقسم مجرى التاريخ الانساني الى اقسام ثلاثة : العصور القديمة والعصور الوسيطة والعصور الحديثة .

فالعصور القديمة بموجب هذا التصور هي تلك الاعصر التي ابتدأت مع بروز حضارات مصر وسورية وبلاد الرافدين منذ اوائل الالف الثالث من الميلاد وتمتد حتى تنتهي بسقوط روما بيد البرابرة سنة ٤٧٦ م . ويشمل بلاد الشرق الادنى القديم وبلاد اليونان والامبراطورية الرومانية ، اضافة الى ايران وبلاد الفرس والامبراطورية التي انشأتها .

اما العصور الوسيطة فهي تلك الحقبة من الزمن التي انقضت بين سنتي ٤٧٦ م و١٤٩٢ م وهي سنة اكتشاف القارة الامريكية على يد كولومبوس وهي السنة التي زال فيها نهائياً حكم المسلمين من الاندلس .

والعصور الحديثة هي التي تمتد من سنة ١٤٩٢ م حتى الوقت الحاضر . وهناك من يقسم هذه الفترة الى قسمين ويجعل قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م حداً بين هذين العهدين .

ان فكرة تقسيم المجرى التاريخي الانساني الى عصور تفصل بينها سنوات فاصلة محددة هي فكرة خاطئة وغير علمية وغير صحيحة . فاولاً ليس مجرى التاريخ الانساني العالمي واحداً في جميع الاماكن ، فقد تأخر ظهور الحضارة في اوربا عن الشرق اكثر من الفي سنة . كذلك توصف العصور الوسطى انها

عصور جهل وظلام وسيطرة الكنيسة على العقول والعواطف ، وهي عصور اقطاع واستبداد الملوك . . . الخ هذا الوصف لاينطبق الا على اوربا وحدها فهي المنطقة التي كانت سائدة بها هذه الاشياء . اما الشرق فكان في وضع مغاير كل المغايرة لاوربا ، فقد اشرقت في ارجائه شمس نور الاسلام وتأصلت وتوطدت الحضارة الاسلامية التي جعلت العالم الاسلامي موئل العلم والعلماء وموطن النور والعدل والتقدم والرقي . كذلك كانت بلاد الشرق الاقصى تمر في تطور مغاير لما مرت به اوربا . كذلك يختلف المجرى التاريخي في العصور الحديثة في اوربا عنه في بقية ارجاء العالم . واخيراً فان المجرى التاريخي لاتحدده سنوات فاصلة قاطعة فلايمكن ابداً القول ان العصور القديمة التي امتازت بخصائص معينة تختلف مع العصور الوسطى بل وتتناقص معها قد انتهت دفعة واحدة في يوم من ايام سنة ٤٧٦ م وبدأت العصور الوسطى . وكل ما يمكن قوله هو ان المجرى التاريخي يجري بشكل غير ملحوظ ، وان عملية التغيير والصيرورة والتحول عملية بطيئة غير مشعور بها ، وان هذا المجرى يختلف من مكان الى مكان حسب طبيعة البشر وطبيعة الحوادث والاحداث . الا ان مثل هذا التقسيم يسهل عملية الدراسة ، وعلى الدارس ان يتذكر دائماً ان هذا تقسيم اصطناعي من اجل تسهيل عملية البحث وتنسيق التسلسل التاريخي الزمني .

ونحن هنا سندرس فيما يلي من صفحات تطور الكتاب والكتابة في كل من بلاد الرافدين وسورية ومصر حتى عهد الاسكندر الكبير ، ثم نتابع نفس الدراسة في نفس الاماكن لان هذه الاماكن اصبحت بعد عهد الاسكندر جزءً من العالم اليوناني الذي ندرس تطور الكتب والكتابة فيه ثم نتابع نفس الدراسة في روما وامبراطوريتها التي شملت ابان اتساعها وعزها عالم البحر الابيض المتوسط وقسماً مهماً من اوربا .

الكتابة والكتب في بلاد الرافدين :

لقد سبق ان درسنا ظهور الكتابة وتطورها في بلاد الرافدين في الفصل السابق . ونحب ان نقول انه سكن وادي الرافدين في اول عهوده التاريخية ، السومريون الذين هم من عنصر غير سامي ، وتمركزوا في القسم الاسفل من الوادي واسسوا دويلات المدن وكان لهم حضارة رائعة واسسوا مكتبات فخمة كثيرة وطوروا الخط حتى وصلوا الى الخط المسماري واستعملوا اللوحات الفخارية مادة للكتابة . كذلك تعاصر مع السومريين الاكاديون الساميون الذين سكنوا شمالي وادي الرافدين ومن اشهر ملوكهم سرحون الذي يوصف انه اول فاتح سامي في التاريخ . ومن تفاعل الحضارتين السومرية والاكادية نشأت الحضارة البابلية واشهر ملوكها حمورابي . ثم نبعت في نفس المنطقة ، في وقت لاحق الحضارة الاشورية ومن بعدها الكلدانية .

هذا ولقد وجدت مجموعات كبرى من اللوحات الفخارية في كثير من انقاض المدن القديمة . فقد وجد في مدينة ارك في وادي الفرات الاسفل مجموعات فخارية بعضها عليه كتابة مقطعية وبعضها يحمل كتابة مسمارية مما يوحي على انها من زمن احدث . واكتشف ايضاً في تللو قرب لاغاش مجموعة من اللوحات الفخارية يبلغ تعدادها ٣٠ الف لوحة وكلها مكتوبة بالخط المسماري وتعود الى حدود ٢١٠٠ ق.م . ووجد في انقاض مدينة نيبور التي تقع جنوبي بغداد مجموعة ضخمة من اللوحات الفخارية . ولقد وجد على طول وادي الرافدين اكثر من عشر مجموعات كبرى ضخمة من اللوحات الفخارية يبدو انهاكانت مكتبات معابد او مكتبات قصور ملكية ، كما وجد مجموعات اصغر من اللوحات الفخارية لاتحصى ولاتعد ، ويبدو انها مكتبات خاصة او مكتبات سجلات ومحفوظات .

ولقد قام الملك العظيم حمورابي بنشاط ثقافي واسع ، الى جانب نشاطه العسكري والاقتصادي والاداري والقانوني ، فقد حاول جمع تواريخ الملوك السابقين لحكمه ، كما انه اعاد كتابة قصة الخليقة وتسلسل الآلهة ، ولكن لم يصلنا

شيء من هذه التواريخ . كذلك نظم حمورابي القوانين واصدر القانون الشهير باسمه . هذا ولابد ان الملك استخدم جيشاً من الكتبة والنساخ ، وان هؤلاء الكتبة نسخوا الوف اللوحات الفخارية لتغطية هذا النشاط الثقافي الواسع ووضعوها في مكتبات خاصة هي مكتبات القصر ومكتبات المعابد في العاصمة بابل ، ولابد انهم نظموها ورتبوها بشكل يسهل استعمالها والاستفادة منها .

ولقد كان للاشوريين نشاطات ثقافية كبرى ، الى جانب نشاطهم العسكري المشهور . ذلك ان باستطاعتنا ان ندل على بقايا مكتبات حقيقية صنفت حسب الموضوعات ووضع لها فهارس بدائية . وتعتبر المكتبة التي اسسها سرجون الثاني المتوفى سنة ٧٠٥ ق.م في قصره في خورسباد (في شمالي العراق) تدشيناً لعصر مزدهر كل الازدهار من عصور تقدم المكتبات . ولقد اكتشف في بقايا المكتبة لوحات طينية كثيرة فيها ادب وعلم وفن وتاريخ ، الى جانب سجلات ملوك الاشوريين منذ عام ٢٠٠٠ ق.م حتى عهد سرجون نفسه . ولكن اشوربانيبال حفيد سرجون يعتبر اعظم امبراطور اشوري اهتم بالعلم والمعرفة والمكتبات ، حتى اصبحت مكتبته التي اوجدها في عاصمته نينوى من اعظم مكتبات العالم القديم واهمها . وقد كان يرسل الوكلاء والتجار الى ارجاء الامبراطورية الاشورية الممتدة من ايران شرقاً الى مصر غرباً لجلب اللوحات والسجلات والمواد المكتوبة في مختلف الموضوعات وبمختلف اللغات الى مكتبته ، تدل على ذلك رسالته التي وجهها الى وكيله شادونيShaduni في هذا الموضوع [كلمة الملك الى شادوني . . . خذ معك ثلاثة رجال . . . فتش عن جميع اللوحات وجميع اللوحات الموجودة في البيوت ، وجميع اللوحات الموجودة في المعابد . . . والتي قد تكون مفيدة ومناسبة لقصري ، فتش عنها واستخرجها وارسلها الي . . .][(١)] . وقد اوجد اشوربانيبال في قصره جهازاً كاملاً من النقلة والنساخ مهمتهم نقل وترجمة اللوحات الاجنبية الى الاشورية ونسخها على لوحات فخارية واضافتها الى محتويات المكتبة . ويروى انه سأل الاله الاشوري نابو اله الكتابة ان يبارك له مكتبته وان يساعده على بنائها واتمامها .

(١) rider. op. cit. P. 31

ولقد شغلت المكتبة عدداً كبيراً من الغرف في القصر الملكي ، ويبدو ان بعض الغرف خصصت لبعض الموضوعات ، فكان هناك غرفة مخصصة للعلاقات الدبلوماسية واخرى للتاريخ وثالثة للجغرافيا واخرى للقوانين ، وغرف لسجلات الضرائب ، واخيراً غرفة للاساطير . وكانت تحوي كذلك وثائق الدولة ومراسلاتها وسجلات التجارة الداخلية وادارة الاعمال ولوائح الانساب وشجراتها .

كانت اللوحات الفخارية في هذه المكتبة تحفظ في جرار ، وكانت الجرار ترتب اما في صفوف او توضع على الرفوف ، وتحمل كل جرة معلومات يذكر فيها الجرة نفسها والصف الذي وضعت فيه الجرة ، والغرفة الموجودة فيها والرف والصف . كذلك وجد قرب مدخل كل غرفة سجل ببيليوغرافي ، في سجل لوحة فخارية ثبتت على مدخل تلك الغرفة ، بعدد الاعمال الموجودة في تلك الغرفة يشمل العنوان وعدد اللوحات المخصصة لذلك العمل ومكان وجوده مع ذكر الصف والجرة . ولقد سلمت المكتبة بعد خراب نينوى ، ذلك ان الكلدانيين والميديين هاجموا نينوى سنة ٦١٢ ق.م ودمروا المدينة وجعلوها اثراً بعد عين ، ولكنهم لم يهتموا باللوحات الفخارية فظلت في مكانها حتى اكتشفها في العصور الحديثة الباحث الانكليزي سير هنري رولنسونRawlinson في موقع اسمه تل الخروف ونقل القسم الاكبر من لوحاتها الى المتحف البريطاني في لندن .

والواقع زود السومريون ومن بعدهم البابليون والاشوريون غرف المكتبات ومداخلهابسجل ببيليوغرافي لما تحويه تلك الغرفة من اعمال . فقد اكتسف لوحان فخاريان هما سجل للعناوين الموجودة في احدى غرف المكتبة . يوجد في متحف جامعة بنسلفانيا لوح طيني ابعاده ٢,٥ X ١,٥ بوصة وقد كتب عليه ، وعلى الوجهين ، اسماء كتب باللغة السومرية ، وهو كامل تقريباً وفي حالة سليمة وهو يحوي عناوين اثنين وستين عنواناً من التآليف الادبية ؛ ذلك ان الكاتب قسم اللوح من كل جانب الى حقلين واستعمل خطاً دقيقاً ، وان مالايقل عن اربعة وعشرين عنواناً من العناوين التي اثبتها هذا الكاتب في هذا الفهرس يمكن تعيينها باعتبارها اسماء مؤلفات وصلتنا نصوصها الخاصة بها كاملة ، او القسم الاكبر

منها . ويتألف عنوان المؤلف السومري من جزء من السطر الاول من المؤلف ، والغالب القسم الاول منه .

كذلك يوجد في متحف اللوفر في باريس لوح مسجل وصفه ناسخه الفرنسي دي جنوياك انه ترتيلة دينية ، ولكن الواقع والفحص الدقيق يثبت انه فهرس يشبه اللوح الطيني المذكور اعلاه شبهاً كبيراً ، ومن المحتمل ان يكون اللوحان كتبهما نفس الشخص اي ناسخ وكاتب لوح جامعة بنسلفانيا هو نفسه كاتب لوح متحف اللوفر ، وذلك بالاستناد الى موازنة خطي اللوحين . ولوح متحف اللوفر مقسم ايضاً الى اربعة حقول ، ويتضمن فهرسه ثمانية وستين عنواناً اي يزيد على لوح متحف الجامعة بستة عناوين . ويوجد ثلاثة واربعون عنواناً متطابقة في كلا اللوحين على الرغم من ان ترتيبها مختلف في اكثر المواطن .

اما بالنسبة للاسس التي سار بموجبها ذلك الكاتب القديم في تنظيم فهرسه فانها غير واضحة بالمرة . فاول مايلاحظ انه ، لما كان الثلاثة والاربعون عنواناً الموجودة في كلا الفهرسين بصورة مشتركة تختلف اختلافاً كبيراً في تنظيمها وتسلسلها في كل من اللوحين ، فيتضح ان الاسس المتبعة في كل من الفهرسين لم تكن متطابقة[1] .

وعلى الرغم من ان مكتبة اشوربانيبال كانت اشهر واهم مكتبة في بلاد الرافدين ، الاانها لم تكن الوحيدة ، اذ عثر على كثير من المكتبات المهمة والمنظمة والغنية كل الغنى في عدد كبير من مدن وادي الرافدين ، وكثير منها يعود الى عهود موغلة في القدم ، اقدم بكثير من مكتبة اشوربانيبال .

كذلك كان يلحق باغلب المعابد مكتبات مهمة فيها مجموعات فخمة من اللوحات الفخارية التي تحوي معلومات تتعلق بتاريخ الالهة والملاحم الدينية ونصوص الترانيم والشعائر الدينية والادبية والصلوات والنذور وغير ذلك مما له علاقة بالطقوس الدينية . كما حوت اعمالاً لها علاقة بالزراعة والري والفلك والهندسة والتنجيم والحساب والطب . . . وكان المعبد مكاناً لتعليم الكتاب

---

(١) كريمر ، صمويل . من ألواح سومر . تأليف صمويل كريمر تعريب طه باقر . بغداد ، مكتبة المثنى . ص ٣٧١ - ٣٧٤ .

الكتابة . ذلك ان الكتابة المسمارية صعبة يحتاج تعلمها الى زمن طويل وجهد شاق . وقد قام بهذه المهمة رجال الدين وكانوا يعلمون الطلاب اصول وقواعد هذه الكتابة ، ويعدونهم في الوقت نفسه ، ليكونوا فلكيين او اطباء او مزارعين . . . ولذلك الحق بهذه المعابد مدارس للتعليم ووجد فيها مكتبات ، وقد وجد في هذه المكتبات كثير من اللوحات الفخارية هي كتب مدرسية كانت تدرس للطلاب ومنها عرفنا منهج الدراسة .

هذا وتختلف المكتبات البابلية والاشورية في طبيعتها عن المكتبات المعروفة وذلك بسبب المواد التي استعملت ككتب ونقصد بذلك اللوحات الفخارية . ان اغلب اللوحات الفخارية اكتشفت تحت انقاض المدن وهي قطع مكسرة ، ولذلك فمن الصعوبة بمكان ان نعرف كيفية ترتيبها اصلاً . لقد امكن في بعض الحالات النادرة ، كما في حالة مكتبة اشوربانيبال ، ان نحرز المكان او الغرف التي كانت مخصصة للمكتبة ، ولكن ذلك كان مستحيلاً في اماكن اخرى كثيرة وفي حالات كثيرة ، ومع ذلك يمكن اعطاء ملامح عامة للترتيب الذي كان متبعاً في اغلب هذه المكتبات . ذلك ان اللوحات الفخارية وضعت في منطقة معينة ، وكانت مرتبة بطريقة من الطرق ووضعت بعهدة اشخاص متمرنين . لقد وضعت اللوحات في المكتبة بعدة طرق وعدة اشكال . فقد جمع بعضها على رفوف ، ورص بعضها في رفوف ضيقة ، ورتب بعضها في سلال او وضع في جرار فخارية . ولقد استعمل ، بعض الاحيان ، مواد اخرى غير اللوحات الطينية للكتابة ، مثل البردى والرقوق واللوحات الشمعية واللوحات الخشبية ، ولكنها تلفت عبر السنين . كذلك يختلف حجم ومساحة اللوحات الفخارية المتبقية اختلافاً كبيراً ، إلا أن الحجم الشائع هو ٣/٦ بوصة للوحة الواحدة . وكانت اللوحات ، كما ذكرنا سابقاً ، مسطحة الاعلى ، مقعرة بعض التقعر من الاسفل . ولما كانت اللوحة الواحدة لاتستوعب اكثر من محتويات صفحتين او ثلاث فقد وجب استعمال عدد من اللوحات من اجل اغلب الاعمال . ولذلك رقمت جميع اللوحات المستعملة من اجل تسجيل عمل واحد رقماً متسلسلاً من اول العمل حتى نهايته ، فمثلاً(اللوحة الخامسة عشرة من ملحمة جلجامش) ، وتحوي اللوحة التالية في

اعلاها اول كلمة تبدأ بها هي واخر كلمة موجودة في اللوحة السابقة . وتوضع جميع اللوحات الحاوية لعمل واحد في جرة او سلة او توضع في كوة خاصة على الرف . وقد وجد في بعض المجموعات نوع من الفهرس المسمى كولوفون (Colophon) موجود على اللوحة الاولى ، يذكر فيه اسم المالك واسم الكاتب والسطر الاول او الكلمة الاولى من العمل وعدد اللوحات المستعملة في تسجيل هذا العمل . وكانت تنظم ، احياناً ، جميع اللوحات المستعملة في تسجيل كتاب ، في سلك . وقد اكتشف في خرائب المدن فهارس ولوائح محتويات المكتبة من اللوحات ، كما في مكتبة اشوربانيبال ، وكان يكتب عليها اسماء الكتب الموجودة في الغرفة وتثبت الى الجدار قرب مدخل الغرفة ، وقد ادخلت اسماء الكتب في الفهرس بموجب العنوان والسطر الاول . وكانت اللوحات تختم ، احياناً ، بختم مالكها ، كما هي الحال في مكتبة اشوربانيبال حيث ختمت جميع اللوحات بختم (اشوربانيبال ـ ملك العالم) . كذلك كانت تصب اللعنات على كل من يسرق لوحة من المكتبة .

كذلك كانت اللوحات الفخارية تستعمل في تسجيل العقود ، فهناك الوف من العقود سجلت على الفخار ووضعت في اغلفة فخارية . لقد كان سكان وادي الرافدين يصرون على تسجيل العقود وتوثيقها . وكان الكتاب يجلسون في ساحة السوق او قرب بوابة البلد ، وكان الطرفان المتعاقدان يضعان بصمات ابهاميهما على الطين الطري . كذلك كانت العقود تمهر بالاختام ، فقد كان من عادة كل مواطن ان يحمل حول عنقه طوقاً جلدياً ينتهي بختم فخاري صغير هو بمثابة هوية شخصية .

لقد استخدم سكان وادي الرافدين اللوحات الفخارية والكتابة المسمارية مدة تزيد على ثلاثة الاف سنة ، وقد انتشر استعمالها خارج بلادهم ، وكان الحثيون من بين الشعوب التي استعملتها ، وهؤلاء استقروا في اسيا الصغرى ووجد في خرائب عاصمتهم بوغازكوي عدد من المكتبات ودور المحفوظات فيها الكثير من اللوحات الفخارية . كذلك استخدم الحوريون الذين استقروا في سورية (شمال شرق) في الالف الثاني ق.م اللوحات الفخارية مادة كتابية .

ويبدو انهم استخدموا اللغة البابلية لغة للتخاطب الدبلوماسي وذلك بسبب اكتشاف اعداد كبيرة من اللوحات الفخارية المكتوبة بهذه اللغة في عاصمتهم . وفعل نفس الشيء سكان كريت والجزر اليونانية والبر اليوناني . ويبدوا ان العرف كان يقضي باستعمال اللوحات الفخارية واللغة البابلية من اجل التخاطب الدبلوماسي في الشرق القديم كما كانت اللغة الفرنسية لغة التخاطب الدبلوماسي في القرن السابع عشر في اوربا .

ومن وجهة نظر الكتابة والمواد الكتابية فقد ساهم سكان وادي الرافدين مساهمة جليلة في ايجاد المكتبات والسجلات المكتوبة بحيث ان محتوياتها وصلتنا سالمة عبر العصور الطويلة . فقد وجدوا وطوروا اسلوباً كتابياً ، واوجدوا وطوروا مادة للكتابة ، ثم حفظوا هذه المواد المكتوبة في اماكن خاصة نظموها لهذه الغاية هي المكتبات . ويجب الاعتراف ان معرفتنا التاريخية عن تلك الحضارة اتتنا بالدرجة الاولى من اللوحات الفخارية التي حفظت لنا حضارة ثلاثة الاف سنة شبه كاملة ، وانه لولا هذه اللوحات لكانت معرفتنا هزيلة مبتورة ناقصة .

الكتابة والكتب في مصر القديمة :

سبق ان بحثنا تطور الكتابة والخط في مصر القديمة ، ودرسنا بشيء من التفصيل نشوء الخط المصري وتطوره وذكرنا انواعه والمراحل التي مر بها هذا الخط ومميزاته وما شابه ذلك من اعمال . كذلك ذكرنا ان المصريين استعملوا اوراق البردى المصنوعة من نبات البردى الذي كثر وجوده في مياه مصر آنذاك مادة كتابية ، كما وانهم اوجدوا الكتاب الملف اي الكتاب الذي يلف ليصبح شكله على شكل اسطوانة .

وان الفضل في انقاذ معظم ملفات البردى التي وصلتنا يعود في قسم كبير منه ، الى العادة الدينية التي قضت ان يوضع في قبر الميت عدد من النصوص الدينية المقدسة وعدد من الصلوات والادعية وماشابه ذلك ، وذلك لمساعدته وحمايته اثناء رحلته الى الغرب (اي مقر الموتى والارواح) . ومن اهم هذه النصوص كتاب الموتى ، الذي لعب دوراً هاماً في هذا الشأن ، ويرجع تاريخه

والبدء باستعماله الى اوائل القرن السابع عشر قبل الميلاد تقريباً . وقد تحول نصه بالتدريج حتى اصبح نصاً تقليدياً . ويبدو ان الكهنة بدأوا انتاجه على نطاق واسع بعد فترة ، وتركوا به مكاناً خالياً لتسجيل اسم المتوفى ، وجعلوا منه تجارة شبيهة بتجارة الكنيسة الكاثوليكية وبيعها صكوك الغفران فيما بعد ، وهي الصكوك الشهيرة التي اشعلت شرارة الثورة على الكنيسة بيد لوثر في اوائل القرن السادس عشر . وبيع كتب الموتى هذه ، هو الشكل الوحيد الذي عرفته مصر من اشكال تجارة الكتب ، اذلم يصل الى علمنا عن هذه التجارة شيء آخر غير هذا الاثر .

اما كتب الموتى هذه ، فقد كانت تختلف فيما بينها من حيث روعة تصويرها . والمفترض هو ان هذه الصور ، التي تمثل عبور الموتى الى العالم الآخر حسب الاعتقاد المصري القديم ، كان يرسمها اولاً احد الفنانين ، ثم يضيف اليها الكاتب النصوص اللازمة . وفي اغلب الحالات كانت هذه الصور توضع حول النصوص على طول ملف البردى او في اعلى النص . وتتفاوت هذه الصور فيما بينها تفاوتاً كبيراً من حيث قيمتها الفنية ، وان كانت كلها تشترك في الطراز الذي امتازت به الصور والنقوش المصرية . وتحتوي بعض كتب الموتى صوراً ملونة تتفاوت فيما بينها من حيث فخامة اعدادها وجمال شكلها واتقانها ، ويحتمل ان الفخم منها كان مخصصاً لاغنياء الموتى والعظماء ، على حين كانت عامة الناس تقنع بمنتجات غاية في التواضع والبساطة .

ونحن لانعلم الا النذر اليسير عن الشروط المادية للمكتبات المصرية . ويبدو ان ملفات البردى كانت توضع على رفوف ضمن الغرف ، ولكننا لانعرف شيئاً عن طريقة ترتيب الملفات على الرفوف . ولما كان البردى مادة سهلة التمزق فقد عمل لملفات البردى جلود من البردى نفسه مصبوغ بالارجوان وذلك من اجل حماية الملف . كذلك جلدت بعض الملفات بجلود مصنوعة من القماش او من جلد الحيوان ، على حين ان بعضها الآخر كان يوضع في اوعية فخارية . اما بعض الملفات الثمينة فكانت توضع في وعاء معدني مع المجوهرات والاشياء الثمينة . وقد كتب الرومان على البردى ايضاً وسموا الملف باسمVolumen وهي الكلمة التي اتت منها الكلمة الانكليزية بمعنى جزء وهي كلمةVolume .

كان الكاتب يكتب ، غالباً ، في الهواء الطلق ، ويجلس متربعاً بشكل ان ساقيه متربعان تعارض احداهما الاخرى ، وامامه منضدة منخفضة ويحمل معه اناء فيه قلمان من القصب وماءً يضيفه الى الحبر اثناء عملية النسخ ، والحبر نوعان احمر واسود . وكان الحبر الاحمر يستعمل لبدء فقرة جديدة . وهذه الحروف الحمراء استعملت في تزيين المخطوطات التي نسخت في العصور الوسطى ، وتستعمل احياناً في طباعة بعض الكتب الجميلة الرائعة في عصورنا الحديثة . وقد تم انتاج الحبر الاسود من مزج الهباب بالصمغ ، ونتج عن هذا المزج حبر جيد كل الجودة ظل لونه رائقاً ولامعاً حتى الآن ، على الرغم من مضي الاف السنوات منذ استعماله لاول مرة . وهناك كثير من الصور تمثل الكاتب المصري يحمل قلماً على كل من اذنيه ، واحد من اجل الحبر الاحمر وآخر من اجل الحبر الاسود . وكان القلم المصنوع من الغاب مبرياً بشكل أنه نصف فرشاة ونصف قلم في آن واحد . وكان الكاتب يكتب المواد على الملفات في صفحات كما يلي :

xxxxx	xxxxx	xxxxx	xxxxx	xxxxx
xxxxx	xxxxx	xxxxx	xxxxx	xxxxx
xxxxx	xxxxx	xxxxx	xxxxx	xxxxx

كذلك كانت الملفات ترتب بطريقة معينة وذلك عندما يكون عددها كبيراً ، وان كنا نجهل كل شيء عن هذه الطريقة ، وذلك من اجل سهولة تداول الملفات وإحضار الملف الصحيح في زمن معقول . ولقد وجد في بعض المكتبات الكبرى لائحة باسماء الكتب الموجودة في غرفة المكتبة ملصقة على جدار المكتبة من الخارج .

وعلى الرغم من ان ورق البردى كان المادة الرئيسية للكتابة في مصر القديمة وظل يستعمل طوال عهود التاريخ المصري كمادة لكتابة الكتب ، الا انه استعملت مواد اخرى . فقد استعمل القوم اللوحات الفخارية . ولعل اهم مجموعة منها هوماااكتشف في تل العمارنة . ذلك ان امرأة اكتشفت لوحة فخارية قرب تل العمارنة وادى ذلك الى اكتشاف لوحات فخارية في ذلك المكان فنسبت اليه . انه

لمن الغرابة بمكان ان نجد لوحات فخارية في مملكة يكتب اهلها بالهيروغليفية ويستعمل البردى مادة كتابية . ان هذه اللوحات التي كتبت بالمسمارية وارخت بحدود سنة ١٣٥٠ ق.م هي سجل لمراسلات دبلوماسية بين حكام بابل وفرعون مصر آنذاك امنحوتب الرابع الذي عرفه التاريخ باسم آخناتون . ذلك ان هذا الفرعون نقل العاصمة من طيبة الى تل العمارنة واسماها باسم اخيت آتون ، وكان له علاقات دبلوماسية واقتصادية مع عدد من حكام سورية وبلاد الرافدين واسيا الصغرى . وهذه اللوحات هي مراسلات بينه وبينهم . ومن جملة الموضوعات المطروقة بين الطرفين موضوع الذهب الذي يستخرج من سينا والحاح هؤلاء الحكام (اي حكام سورية وبلاد الرافدين) في الحصول عليه ، ويذكر بعض هؤلاء الحكام ان الذهب موجود في مصر بكثرة شبيهة بكثرة الغبار على الارض . واستعمل قدماء المصريين جلد الحيوان مادة كتابية وظل يستعمل فترة طويلة لكتابة الأشياء المهمة . وكتب قدماء المصريين أيضاً على لوحات الشمع أو على رقاق الخشب . ولا حاجة للتنويه أنهم رسموا وكتبوا كثيراً وكثيراً جداً على جدران المعابد والقبور والمسلات .

ولقد استعمل القوم في سورية ، أو في بعض اجزائها على الأقل ، اللوحات الفخارية مادة كتابية ، كما هو الحال عليه في المكتبتين اللتين اكتشفتا في رأس الشمرة (وهي مملكة كنعانية قديمة ازدهرت في الألف الثاني ق.م وتقع شمالي مدينة اللاذقية الحالية في سورية) . فقد وجد في منزل الكاهن الأكبر مكتبة وفي القصر الملكي مكتبة . فقد وجدت في القصر الملكي لوحات فخارية هي عبارة عن مجموعة من رسائل دبلوماسية ومعاهدات وقوانين وشرائع . كذلك وجد ضمن هذه المجموعة بعض اللوحات التي تحوي معلومات تاريخية (وخاصة تواريخ حملات عسكرية) وبعض النصوص التجارية ومعجم باللغتين الاوغاريتية والسومرية . ويبدو أن هذه المكتبة كانت مكتبة الملك نيجمدnigmed الرسمية .

وعلى الرغم من أن المعلومات كتبت بخط مسماري وعلى لوحات فخارية ، إلا أن اللغة هي لغة اوغاريتية (وهي لغة مشتقة من الكنعانية واستعملت في كتابتها الألفبائية التي اكتشفها سكان تلك المنطقة) .

أما مكتبة كبير الكهنة فقد كانت مكتبة دينية في معظم محتوياتها فقد كانت تحوي أعمالاً وكتابات دينية وأساطير متعلقة بديانة أهل اوغاريت ، ولكن وجد الى جانب ذلك بعض الكتابات في الملاحم والسحر والتاريخ والطب والعلوم . ووجد ضمن هذه المجموعة معاجم متعددة اللغات .

ومن المهم أن نذكر أنه وجد بين النصوص الدينية المكتشفة في اوغاريت نصوص تشابه مشابهة تامة ، في اسلوبها ومحتوياتها ، لبعض أقسام من كتابات العهد القديم .

الكتابة والكتاب لدى اليونان والرومان :

لقد بحثنا في فصل سابق التعبير بلاد اليونان وذكرنا أنها البلاد التي سادت فيها اللغة اليونانية والحضارة اليونانية والمفاهيم اليونانية وأن ذلك امتد على منطقة شاسعة من الأرض تشمل بلاد اليونان الأصلية وجزائر البحر الايجي وبلاد الأناضول وبلاد الشام ومصر وغيرها من الجزائر الموجودة في البحر الأبيض المتوسط كجزيرة كريت وجزيرة قبرص وصقلية وجنوبي ايطاليا . كذلك امتد العهد اليوناني مدة طويلة من الزمن تبدأ من القرن السابع ق.م حتى القرن الأول الميلادي .

ولقد ورث الرومان البلاد اليونانية والحضارة اليونانية وأسسوا امبراطوريتهم التي شملت مع مطالع التاريخ النصراني ، حوض البحر الأبيض المتوسط بكامله ، مع أجزاء كبرى من اوربا تشمل فرنسا الحالية وقسماً مهماً من المانيا وانكلترا والبلقان بكامله .

ولقد ورث الرومان الحضارة اليونانية ارثاً يكاد يكون كاملاً ، وتأثروا بهم أكثر مايكون التأثر في حقول اللغة والأدب والفكر والفلسفة ، ومن جملتها المكتبات والكتب والكتابة .

ولقد ذكرنا كيف أخذ اليونان الأبجدية الفينيقية وكيف طوروها ونشروها وما ادخلوا عليها من اصلاحات وماااضافوا اليها من اضافات . وذكرنا المواد التي استعملوها والمحنا مجرد الماح اليها وتطرقنا لشكل الكتاب لديهم ، والآن ننتقل لبحث الكتاب وتطوره في العصر اليوناني .

استعمل اليونانيون في كتابة كتبهم مواد كثيرة لعل أهمها :

١- أوراق البردي :

يمكن القول أن لفافات البردي قد بدأ ظهورها في بلاد اليونان في القرن السابع ق.م . وقد كانوا يستوردونه من مصر ، وقد تزايد استعمال ملفات البردي ، وبالتالي استيرادها من مصر حتى أصبح شائع الاستعمال شيوعاً تاماً في القرن الخامس ق.م . هذا وان عدم ذكر هيرودوتس المؤرخ اليوناني للملفات البردي اثناء وصفه مصر ، قد يكون دليلاً كافياً على أن استعمال هذه الملفات كان أمراً عادياً في عهده ولا حاجة للتنويه به أو ذكره .

وقد اطلق اليونان على ورق البردي الخام المستخدم في الكتابة اسم خارطيس ، ومنها أتت كلمة قرطاس في اللغة العربية للدلالة على المادة التي يكتب عليها وهي الورق . ثم أخذها الرومان عنهم واسموها باسم كارتاcharta ومنها اشتقت كلمةcarte أي خارطة .

ولقد اطلق اليونانيون على ملفات البردي التي هي بمثابة الكتب في أيامنا هذه اسماً ذا دلالة هو كلندروسkylindros أي الأسطوانة ، لأن الملف يلف حتى يأخذ شكل الأسطوانة ، ولقد اطلق الرومان على نفس الملف اسم فولومنvolumenومنها أتت كلمةvolume المستعملة حالياً في اللغة الانكليزية للدلالة على اي جزء من الاجزاء المنفصلة للكتاب الواحد . كذلك استخدم الهيلينيون كلمة توموسtomos واستعمل الرومان من بعدهم كلمة توموسtomus للدلالة على ملف البردي المؤلف من سلسلة من الأجزاء المتصلة والملتصقة بعضها ببعض .

هذا وإن أقدم أوراق بردي يونانية معروفة لنا يعود تاريخها إلى القرن الرابع ق.م ، ولا يزال خطها محتفظاً بوضوح الشكل الذي كان عليه في العصور السابقة . ولم يبق من ملفات تلك الفترة إلا النذر القليل حتى أنه يصعب الوصول الى نتائج عامة بالاستناد الى دراستها . ولا تبدأ معلوماتنا في الازدياد والاستقرار إلا منذ القرن الثالث ق.م ، وذلك بسبب الكشوف الغنية من ملفات البردي اليونانية التي عثر عليها في كل من مصر وآسيا الصغرى بصفة خاصة خلال القرن التاسع عشر .

ولقد اكتشف في هذين القطرين ، بشكل خاص ، وفي أماكن أخرى من العالم اليوناني بشكل عام ، اعداد غفيرة من ملفات البردي ، وأن أكتشاف هذه الاعداد الغفيرة في ذنيك القطرين يدل على ازدهار حركة التأليف وازدهار الحياة العقلية في القرن الثالث ق.م . ونحن نعلم أن الحياة العقلية وصلت الى مستوى رفيع جداً في الشرق وبشكل خاص في كل من مصر وآسيا الصغرى في القرن الثالث ق.م . وقد نشأ من تفاعل الفكر اليوناني مع الفكر الشرقي فكر جديد اسمه الفكر الهيلنيستي أي الفكر اليوناني المتأثر بالفكر الشرقي . وكذلك تلك الحضارة باسم الحضارة الهيلينستية . ولقد أصبحت الاسكندرية في عهد البطالمة العاصمة الفكرية لهذه الحضارة وجذبت اليها العلماء والبحاثة من كل مكان . وقد أسس البطالمة مكتبة الاسكندرية الشهيرة وجعلوها مركزاً ثقافياً رفيعاً ومركزاً للبحث والدرس والتأليف . وقد تقاطر العلماء والبحاثة الى المكتبة يحملون اليها مؤلفاتهم وأعمالهم كما فعل اقليدس وبطليموس كلوديوس الفلكي والجغرافي الشهير إذ أنه احضر الى مكتبة الاسكندرية نموذجاً يبين دوران الافلاك وفيه اظهر ان الشمس والسيارات تدور حول الارض ، إذ الأرض ، في رأيه ، هي مركز النظام الشمسي . وقد ظلت نظريته هذه حية حوالي ١٤٠٠ سنة .

ولقد حاول البطالمة أن يجمعوا في مكتبتهم تراث الانسانية بعامة والتراث الهيليني بخاصة واستعملوا البردي مادة أساسية للكتابة ، وامتلأت مكتبتهم بالمخطوطات . وكانوا يهدفون لايجاد عدد من النسخ من كل كتاب يصل الى ايديهم ، وكانوا يوزعون محتويات المؤلفات الهامة الطويلة على عدة ملفات متساوية

الطول ، مع اعتبار بدايات ونهايات الفصول ، كما فعلوا في كتابي الالياذة والاوديسة لهومر . وكانت تجمع النصوص القصيرة في ملف واحد . وقد يدل ذلك على نزعة لاتخاذ طول معين محدد للملفات حسبما جرى عليه المكتبيون .

ولقد حفظت الملفات في علب شبيهة بعش الحمام مثبتة على الحائط ، وقد وضعت ملفات كتاب واحد في صندوق معين ، وكانت تتدلى من نهايات الملفات بطاقات ارجوانية صغيرة ، وهي تميز كل ملف عن غيره بالعنوان والسطر الأول .

وقد رتبت المواد في المكتبة بموجب تصنيف ذي خمسة رؤوس موضوعات هي : الشعر والتاريخ والفلسفة والخطابة ومتفرقات . وهذا التصنيف هو نفس التصنيف الذي اتبعه ارسطو في مكتبته الخاصة .

وقد توسع التصنيف مع توسع المكتبة وزيادة محتوياتها حتى أصبح عدد رؤوس موضوعاتها ينوف على ١٢٠ ، وكانت جميع الملفات مفهرسة بموجب العنوان وعدد الأسطر والكلمات الأولى ، وإذا كان ممكناً اسم المؤلف .

كذلك اصدر البحاثة في مكتبة الاسكندرية ما يعتبرأول سجل بيبلوغرافي لجميع الادب المخطوط المعروف في العالم القديم ، ويقال أن هذا السجل البيلوغرافي المسمى باسم بيناكس احتاج الى ١٢٠ ملفاً من البردي .

شكل الكتاب اليوناني وكتابته :

لم تصلنا بردية بحالة كاملة ، ولكن يبدو أنه قد استخدم ، بصفة عامة ، ملفات طولها بين ستة أمتار الى سبعة . واذا ماطوى المخطوط أو لف فانه يأخذ شكل اسطوانة يتراوح قطرها بين خمسة الى ستة سنتمترات ، ويسهل الامساك بها . وقد ندر ان زاد طول ملف البردي عن عشرة امتار . أما عرض الملف فقد اختلف كذلك . ولكن ظهرت نزعة تميل الى التوحيد والاحتفاظ بعرض ثابت معترف به للملفات ، وقليل من البرديات التي وصلتنا يزيد عرضها على ثلاثين سنتمتراً ، واغلبها يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ سم . وهناك ملفات عرضها بين ١٢ و ١٥ سم . كذلك كانت مساحة الجزء المكتوب من ملف البردي تختلف من ملف الى آخر . فقد كانت الهوامش المتروكة في المخطوطات الفاخرة أهم وأوسع وأكبر

من مثيلاتها في المخطوطات العادية . وكان ارتفاع عمود الكتابة إما ثلثي أو خمسة أسداس ارتفاع الملف ، كذلك تختلف المسافة بين عمود وآخر بنفس النسبة . ولم تكن المسافات بين السطور محددة بل كانت متفاوتة تفاوتاً كبيراً حتى في المخطوط الواحد ، حتى أن بعض الاعمدة كان يحوي سطوراً أكثر من غيره . وبصورة عامة كان طول العمود أكثر من عرضه .

وكانت الحروف الكبيرة تستعمل دون غيرها في المؤلفات الأدبية ، علماً أن الحروف اليونانية الصغيرة لم تظهر إلا في العصور الوسطى . ولم تترك مسافات تفصل بين الكلمات ، مما أدى بطبيعة الحال الى صعوبة القراءة . وقد جرت العادة أن توضح نهايات الفقرات بعلامات مميزة تسمى باراغرافوس paragraphos ، وهي عبارة عن شرطة توضع تحت بداية آخر سطر من الفقرة . ولا تزال كلمة باراغراف تستعمل للدلالة على اجزاء النص .

أما الكتابة في المخطوطات ، فكانت خطاً مجوداً من نوع معين يتعلمه الكاتب أو الناسخ ، واتخذت بالضرورة طابعاً شخصياً يختلف من كاتب الى كاتب . وكانت الأحرف تكتب منفصلة بعضها عن بعض . أما الكتابة العادية السريعة غير المجودة فقد استخدمت في الحياة العادية .

وكان الكتاب يكونون طبقة كبيرة مثقفة ، كما كانت اجورهم تدفع لهم بموجب عدد الاسطر التي ينسخونها ، ويبدو أن هناك طولاً معيارياً معترفاً به للسطر الواحد يحاسب بموجبه الناسخ ، كما وان جمال الخط ووضوحه وخلوه من الأخطاء كل هذه عناصر تؤخذ بعين الاعتبار عند احتساب أجر الناسخ . وكانت تعاد قراءة المخطوط بعد الفراغ من كتابته لتصحيحه ، وكان الناسخ نفسه يقوم بهذه المهمة ، وكان الناسخ نفسه يقوم بهذه المهمة ، أو يعهد الى مدقق من طراز معين ليكشف اخطاء الناسخ ، وقد يضيف في الهوامش بعض الملاحظات النقدية شرحاً للنص ، أو يضع بعض الرموز الخاصة (كالنجمة مثلاً أو غيرها) للفت نظر القارىء الى خصائص الاسلوب أو بعض الامور المهمة التي تحتاج الى توضيح . وكانت الملفات الثمينة تجلد بغلاف اسود من البردي .

العنوان والصور التوضيحية :

إن أقدم ملفات البردي اليونانية لاتحمل عنواناً ، وكانت تميز عن بعضها بعضاً بواسطة بيان مؤلفها وأول كلمة من نص العمل الموجود بها ، كما فعل كاليماخوس أمين مكتبة الاسكندرية الشهير في القرن الثاني ق.م في فهرسه المسمى باسم بيناكس . وكانت هذه المخطوطات المسجلة على ملفات البردي ـ بعد لفها على شكل اسطوانة ووضعها بجانب بعضها أو في الكوات المخصصة لها أو الاوعية المخصصة لها ـ تثير صعوبات في تمييزها عن بعضها بعضاً ، وذلك بسبب عدم وجود عنوان واضح على هذه الملفات . وقد فكر القائمون بالاشراف على هذه الملفات بايجاد طريقة لتمييز هذه المخطوطات ، فهداهم تفكيرهم الى وضع نوع من البطاقات على حافاتها العليا . وقد اطلق الرومان على هذه البطاقات اسم تيتولوسTITULUS أو اندكس INDEX ، على حين سماها اليونان باسم سيلليبوسSyllibos وقد كانت الاوعية المخصصة لحفظ ملفات البردي عبارة عن حوافظ مصنوعة من الخشب أو الحجارة وقد اطلق عليها اليونانيون اسم بيبليوثيكسBibliothekes ، وهي كلمة مالبث ان توسع معناها واستعمالها كل التوسع حتى اصبح معناها يفيد مجموعة من الكتب أو مكتبة . أما الرومان فقد اسموا هذه الحوافظ باسم كابساCapsa ، ومنها أتت كلمةCase الانكليزية وتعني وعاءً .

أما الصور التوضيحية فيبدو أنها لم تكن نادرة في ملفات البردي اليونانية والرومانية ، وإن لم يصل إلينا منها الا العدد القليل الذي تدور موضوعاته حول الرياضيات وغيرها من الموضوعات المشابهة ، وعلى الغالب كانت صورة المؤلف ترسم في كثير من الحالات على مفتتح المخطوط .

تجارة أوراق البردي والكتب في العصور القديمة :

استخدم الاغريق كمية ضخمة من البردي ، ومن بعدهم الرومان الذين أخذوا ، دون شك ، عن الاغريق استعمال ملفات البردي ضمن ماأخذوه عنهم من أساليب الحضارة الاخرى .

وظهر في السوق تدريجياً عدد كبير من أصناف البردي عرف بعضها باسماء أباطرة الرومان ، إذ كان منها مايسمى باسم ملفات اوغسطس وملفات كلوديوس وغير ذلك .

كذلك تأسست في روما ، في أواخر عصر الامبراطورية الرومانية ، مصانع كانت تستورد من مصر نبات البردي الخام ، حيث كان يصنع منه حزم من الأوراق . كما يحتمل أن البطالمة كانوا يتقاضون ضريبة باهظة لقاء تصدير هذا البردي ، ثم احتكروا تجارته فيما بعد ، وكانت أول ورقة من حزمة البردي تسمى باسم بروتوكولProtocole ، كما كانت تختم بنوع من الأختام الرسمية . وقد ظل احتكار تجارة أوراق البردي مستمراً حتى الفتح الإسلامي لمصر .

ولقد انتشرت تجارة الكتب في العالم اليوناني منذ عهد مبكر موغل في القدم ، فهناك اشارات هنا وهناك ، إلى أنه كان في اثينا في القرن الخامس ق.م مخازن لتجارة الكتب . ونحن نعلم مم ذكره كزينوفونXenophon في كتابه آناباسAnabase أنه كان يوجد تجارة للكتب بين اثينا ومستعمراتها اليونانية المنتشرة في شواطىء آسيا الصغرى الغربية والبحر الايجي وجنوبي ايطاليا وصقلية وغيرها من الاماكن . ولكن تجارة الكتب ازدهرت بشكل ملحوظ في العصر الهلنستي وخاصة في مصر . ويعود الفضل في ذلك الى مكتبة الاسكندرية التي أصبحت مركزاً مهماً من مراكز تجارة الكتب في العالم الهلنستي . ذلك أن هذه المكتبة كانت تشتري كمية ضخمة من الكتب ، وكان وكلاء ملوك مصر ورسلهم يجوبون أرجاء العالم المعروف آنذاك بحثاً عن المخطوطات لشرائها وارسالها إلى مصر ، كما وأن مكتبة الاسكندرية كانت تحوي نسبة عالية من المخطوطات الممتازة ، وحتى الفريدة ، مما جعلها تنسخ منها نسخاً كثيرة وتبيعها .

ومن أقدم مجموعات البردي اليونانية والرومانية المجموعة التي وجدت في خرائب مدينة هيركولانوم في جنوبي ايطاليا ، ذلك أن بركان فيزوف ثار ثورة جامحة سنة ٧٩ م وغطى بحممه والرماد المتصاعد منه مدينتي هيركولانوم وبومبي الايطاليتين . وقد تم الكشف عن خرائب مدينة هيركولانوم في القرن الثامن عشر ، ووجد فيها مايقارب ١٨٠٠ ملفاً من ملفات البردي ، بعضها تالف

وبعضها بحالة لابأس بها ، وهي محفوظة الآن بالمكتبة الأهلية في نابولي ، وقد سميت هذه المجموعة من الملفات باسم (دارة البردي) . وهناك مجموعات أخرى مهمة من ملفات البردي اليونانية والرومانية في عدد من مكتبات ومتاحف العالم ، كما هو الحال مع مجموعة الأمير رينر المحفوظة في المكتبة الأهلية في فيينا إذ تقارب المجموعة ٨٠٠٠ ملفاً ، وتوجد ملفات أخرى في متحف الدولة في برلين وفي المتحف البريطاني في لندن وفي المكتبة البودلانية في جامعة اكسفورد وفي المتحف المصري في القاهرة .

الرقوق والجلود واستعمالها للكتابة :

سبق أن ذكرنا في فصل سابق أن البردي تعرض ، في القرن الثالث ق.م ، لمنافسة مادة كتابية جديدة هي جلود الحيوانات ، وعلى الرغم من أن استعمال جلود الحيوانات مادة كتابية قديم وموغل في القدم ، إلا أن استعماله بكثرة حتى حل محل البردي ، وبشكل فني بدأ منذ القرن الثالث ق.م وفي مدينة برغامم التي أعطته اسمها .

ومن الواضح أنه كان من اليسير طي جلد الرق بنفس طريقة ورق البردي ، وذلك بجعله ملفاً على شكل اسطواني ، وإن كان الجلد أقل منه مرونة . ولاريب في أن الكتب الأولى التي سجلت على الجلود كانت على شكل ملفات ، وأنها كانت تقليداً تاماً ومحاكاة كاملة لكتب البردي ، ويبدو أن ذلك عائد إلى مجرد التقليد أو بحكم العادة . وعلى الرغم من عدم عثورنا على ملف جلدي واحد ، سواء أكان يونانياً أم رومانياً ، إلا أنه لدينا أدلة كافية تثبت أن أوائل الكتب على الجلود والرقوق كانت على شكل ملفات . كذلك استعمل اليهود مثل هذه الكتب الجلدية على شكل ملفات ، ولايزالون يستعملونها الى اليوم في كتابة كتبهم المقدسة . هذا وأن طول الملف المصنوع من الرق كان خاضعاً لطول جلد الحيوان المستعمل ، وإن كان من المستطاع توصيل أو خياطة أو حياكة عدة أجزاء من الرق بعضها مع البعض بحيث يمكن أن تجعل منها ملفات جلدية أطول . كذلك استخدم الرق في تجليد لفائف البردي ، وربما كان هذا أول تاريخ لنشأة تجليد الكتب في العالم .

ولما كان استعمال الرق مادة كتابية وذيوعه وانتشاره حتى عم أرجاء العالم القديم قد تم في عهد الرومان وسيادتهم وانتشار نفوذهم في أرجاء العالم القديم ، لذلك سنرجىء بحث استعمال الرق مادة كتابية لدى اليونان والرومان ، وبشكل خاص ظهور الكتاب الكراس وحلوله محل الكتاب الملف ، الى العهد الروماني حيث سنبحث هذا الموضوع بشكل موسع بعض التوسع .

الكتابة والكتاب لدى الرومان :

سبق أن حددنا في الصفحات الماضية الامبراطورية الرومانية والمجال الذي انتشرت فيه هذه الامبراطورية ، كذلك سبق أن ذكرنا أن الرومان تأثروا كل التأثر باليونان وتبنوا حضارتهم ، وبشكل خاص النواحي الثقافية والعقلية والفكرية ، وقد اختلطت الحضارتان بشكل يصعب الفصل بينهما .

الألفبائية واستعمالها لدى شعوب شبه الجزيرة الايطالية :

لايعرف إلا النذر اليسير عن الكتابة التي كان يستعملها سكان ايطاليا القدماء . وقد سكن ايطاليا في أقدم عهودها عدد من الشعوب منها الاتروسكيون واللاتين والرومان. . . ولسنا بصدد دراسة الصراع الذي دار بين هذه الشعوب حتى انتهى الى سيطرة الرومان على شبه الجزيرة الايطالية سيطرة تامة ، ومن ثم بدأ غزوهم للعالم المعروف آنذاك واستعمارهم له . تذكر التقاليد والمأثورات أن سكان المستعمرة اليونانية كوماCumae قرب نابولي هم أول من أدخل الألفبائية اليونانية الى ايطاليا ، وأخذها عنهم الاتروسكيون الذين كانوا آنذاك أقوى شعب في ايطاليا ، وكان ذلك أواسط القرن السابع ق.م. هذا وإن أقدم دليل على وجود الفبائية استعملها الرومان هي لوحة من العاج مزينة بشمع من أجل تسهيل الكتابة ويعود تاريخها الى أوائل القرن السابع ق.م وتحمل دلائل على وجود الفبائية ذات ٢٥ حرفاً . هذا وقد تمكن الرومان سنة ٥٠٩ ق.م أن يزيحوا الاتروسكيين ويبدأوا دور حكمهم اللاتيني في ايطاليا والذي قدر له أن يصبح أهم دور في حياة ايطاليا كلها وأوربا الغربية وأدى ذلك إلى تأسيس الامبراطورية الرومانية . وقد حمل

الرومان معهم الالفبائية الرومانية ونشروها في كل صقع حلت فيه جيوشهم من انكلترا الى شواطىء الفرات . هذا وتظهر الأحرف في اللوحة سابقة الذكر مرتبة من اليمين الى الشمال . بعد ذلك اتخذت الكتابة اتجاهين متعاقبين من اليمين الى الشمال ومن الشمال الى اليمين ثم تثبت الاتجاه من الشمال الى اليمين .

ولقد بسط الرومان شكل الأحرف الهجائية اليونانية حتى جعلوها واضحة سهلة القراءة ، فقد غيروا شكل بعض الأحرف وعدلوا في بعضها الآخر وغيروا في ترتيبها ولكن لم يضيفوا إليها أحرفاًجديدة . وقد أطلق الرومان صوتاً واحداً لكل حرف من أحرف الالفبائية عوضاً عن الكلمة التي كان يسمى بها اليونانيون الحرف ، مثلاً أ من أجل ألف ، ب من أجل باء وهكذا . كذلك انقص الرومان عدد الحروف حتى جعلوها ٢٣ حرفاً . والرومان هم الذين أوجدوا حروف التاج الكبيرةCapital ، ولم يستعمل الرومان حتى ظهور المسيحية سوى الحروف الكبيرة المجسمة ، وهي أحرف كبيرة مجسمة جميلة وأشهرها الحروف الكبيرة المربعة (وتسمى أيضاً الأثرية لأنها تنقش على الآثار) .

ولقد ازدهر الأدب اللاتيني في القرن الثاني الميلادي فيما بعد بشكل ملحوظ ، كما بدأ ظهور نوع من الكتابة الخاصة بالمخطوطات تختلف عن الكتابة السريعة العادية ، وهي نفس الظاهرة التي حدثت في بلاد اليونان كما ذكرنا آنفاً .

ولقداتصفت هذه الكتابة اللاتينية الكبيرة بانعدام المرونة وهي كتابة كبيرة ذات احرف حادة وزوايا قائمة متعددة . وقد استعملت هذه الاحرف اول ماستعملت ، في كتابة بردية اكتشفت في هيركولانوم .

ولقد بسط الرومان حروف التاج الكبيرة هذه ، وذلك من اجل الاستعمال اليومي السريع فاوجدوا خطاً مبسطاً من حروف التاج هو مايسمى **Rustic** ويمتاز بحواف اصغر وبخط افقي يرسم بشكل أثقل واغلظ من الخطوط الرأسية ويمكن كتابته متصلاً او منفصلاً ، ولذلك كان من الممكن كتابته بشكل اسرع بكثير من حروف التاج .

ولقد تطور الخط المبسط المذكور اعلاه ، في العصور المتأخرة واشتق منه خط آخر اسمهUncial او الخط المدور او الدائري . ان هذا الخط كان اصغر من سابقه واكثر تدويراً وكان يسمح بحرية اكبر في الكتابة وبسرعة اكبر . وقد كتبت مؤلفات اوائل المسيحيين بهذا الخط على حين ظل الوثنيون يكتبون مؤلفاتهم بحروف التاج الكبيرة .

وقد بلغت الكتابة اللاتينية اقصى تطورها منذ القرن الرابع الميلادي ـ حيث تثبتت على حالها ككتابة خاصة بالمخطوطات ـ الى نهاية القرن الثامن . وقد وجد في هذين الخطين بعض الاختصارات ، كما كانت عليه الحال في الكتابة الاغريقية . وقد انتشرت هذه الخطوط اللاتينية واللغة اللاتينية في اوربا بواسطة الحروب والاستيطان ، وعلى الرغم من حدوث بعض التغيير والتطور في شكل الاحرف الكتابية ، الا انه قليل بحيث يمكن القول ان شكل الاحرف الهجائية اللاتينية تثبت كما كان عليه حتى عهدنا الحاضر ، مع بعض الاستثناءات القليلة .

ظهور الكتاب الكراس غير الملفوف ذي الصفحتين المتقابلتين :

يعتبر ظهور الكتاب غير الملفوف نتيجة ثانية من نتائج استعمال الرقوق مادة للكتابة . ذلك انه بالرغم من اعتياد الاقدمين استعمال الكتب المطوية على شكل ملفات ، الا ان مساوىء هذا النوع من الكتب ، وخاصة من ناحية التداول اليومي لها ، كثيرة وواضحة . وهناك عيب جوهري اساسي من هذه العيوب ، وهي ضرورة طي ولف الكتاب في اتجاه عكسي بعد قراءته الاولى ، اذا ما اريد قراءته مرة اخرى . وكانت هذه العملية صعبة للغاية حتى في حالة استعمال عصا خاصة كانت تلصق باول ملف البردى للمساعدة على نشر الملف وطيه . وقد ادى ذلك دائماً الى تلف كبير وملموس بالنسبة للملفات المقروءة بكثرة . وقد كان ذلك صحيحاً بالنسبة للبردى ، اما بالنسبة للرق فقد كان الامر بالعكس . ذلك ان الاغريق الذين لمسوا مساوىء الملفات حاولوا تجنب ذلك مع الرقوق ، وهم في هذا السبيل رجعوا الى تقليد قديم في تاريخهم . فمن المعروف ان الاغريق كانوا

يستعملون من عصورهم التاريخية ، الواحاً صغيرة من الخشب ، مغطاة او غير مغطاة بطبقة رقيقة من الشمع كانوا يكتبون عليها كتابات موجزة بقلم معدني يسمى ستيلوس ، وكذلك كان تلاميذ المدارس في تعلمهم الكتابة يستعملونها ، وكثيراً ما كانوا يجمعون لوحين او اكثر من هذه الالواح في مجموعة واحدة ، وذلك بربطها بخيط متين وجعلها رزمة واحدة ، او بايجاد ثقوب في الالواح مقابلة بعضها بعضاً وادخال سيور من الجلد في الثقوب مما يؤدي الى ربط الالواح وعدم تفرقها ، وجعلها كراسات صغيرة . وقد شاع استعمال هذه الكراسات لدى التجار والكتاب لتحرير ملاحظات مؤقتة عليها .

اما بعد انتشار استعمال الرق في صناعة الكتب ، فقد خطر للناس ، بالطبع ، ان يجعلوا للرق الشكل الذي كانت عليه الالواح الخشبية . وقد تم ذلك في اوائل عهد الامبراطورية الرومانية . وقد اطلق على هذا الشكل الجديد للكتاب الجلدي المسطح ذي الكراريس المتعددة والصفحتين المتقابلتين اسم Codex اي الكراس . وقد ظل دون تغيير يذكر بعد ان تغلب على غيره من اشكال الكتاب ، حتى ايامنا هذه .

ولابد ان نذكر انه وجدت اشكال اخرى للكتب ـ غير الملف والكراس ـ في اجزاء اخرى من العالم . فقد استخدم البوذيون في اقسام من اسيا شكل الاوكورديون في انتاج الكتب ، ولازال من الممكن وجود هذا الشكل من الكتاب في اقسام من صحراء التيبت . كذلك وجد في بعض اجزاء من جنوب شرقي آسيا كتب كتبت على شريط ضيق من اوراق النخيل وقد كتب على وجهيها وقد قويت من جانبيها .

هذا وان اقدم مخطوط يوناني مكتوب على الرق وبشكل الكتاب الكراس يعود تاريخه الى سنة ١٨٩ م ، وقد وصلتنا منه بضع صفحات من الكراريس . وقد اكتشف سنة ١٩٢٣ م في خرائب مدينة دورااوروبس الواقعة على الفرات في سورية . ولاجدال في ان هناك عدداً من العوامل ساعدت كل المساعدة في ظهور الكتاب الكراس وانقراض الكتاب الملف . ذلك ان الكتاب الكراس جعل استعمال الكتاب والرجوع اليه اسهل بكثير مما هي عليه الحال في الكتاب الملف .

كذلك أدى هذا بالتالي إلى إطالة عمر الكتاب كثيراً نتيجة لتحمل الجلد الاستعمال .
العنيف على العكس من البردى الذي هو سهل التلف والتمزق والتفتت ، وهذا عامل مهم جداً ولاسيما بالنسبة للاعمال الضخمة مثل اعمال هومر . اضف الى ذلك امكان استعمال وجهي الرق للكتابة بعكس البردى وامكان كشط الرق المكتوب عليه والكتابة عليه من جديد ، وهذا مستحيل في حالة البردى . كما وان استعمال الكتاب الكراس المصنوع من الرق ساعد في كبر حجم الصفحة وافسح المجال لادخال وسائل الايضاح في النص وادراج الملاحظات الجانبية والتعليقات الهامشية التي هي مهمة كل الاهمية للباحثين .

وكانت مخطوطات الرق تستعمل في صناعة كتب صغيرة ورخيصة ، نتيجة لامكان الكتابة على وجهي صفحة الرق ، ولانه كان بالامكان ان يتضمن مخطوط (صغير الحجم نسبياً) نصاً قد يتطلب ملفاً طويلاً من البردى اوعدداً من الملفات .

وقد عثر في مصر ، في القرون الاخيرة واثناء قيام العلماء بعدد كبير من الحفريات المتتابعة ، على مخطوطات ترجع الى القرون الثاني والثالث والرابع ميلادية ، وهي في شكل الكتاب الكراس ، مما يدل على ان شكل الكراس قد تغلغل في وقت مبكر حتى في موطن ومعقل ملفات البردى الاصلي ، وقامت في مصر محاولات لاتخاذ شكل الكراس لكتب البردى . ولقد وجد عدد كبير من المخطوطات البردية المكتوبة بين القرنين الثالث والخامس الميلاديين ، على ان هذا الشكل الجديد لم يكن في الواقع يتفق تماماً مع اوراق البردى فظل استعمال الملفات البردية سارياً جنباً الى جنب مع الكراس ، الى ان اندثر الشكل والمادة معاً . ونجد المخطوط الجلدي على شكل الكراس هو الغالب في مكتشفات القرن الرابع الميلادي ، وبقي هو الشكل الوحيد منذ القرن الخامس الميلادي ولم يعد له منافس .

وقد عملت النصرانية كثيراً من اجل نشر واستعمال الكتاب الكراس المصنوع من الرق . وقد اصبح الرق مادة الكتابة الرئيسية خلال القرون الوسطى .

فقد لوحظ ان النصرانية من البداية دين كتب ، ذلك ان عقيدتها وتعاليمها تعتمد على التوراة والاناجيل وكتابات آباء الكنيسة وكتب الخدمة . ولذلك ظهرت المكتبات اول ظهورها في الكنائس . وقد اهتمت النصرانية بتغيير شكل الكتاب ، ذلك التغيير الذي بدأ في القرن الاول ميلادي وتوطد في القرن الثاني ، وهو الغاء شكل الكتاب القديم المتمثل في الملف واحلال الكتاب الحديث محله وهو الكتاب الكراس . هذا ، والى جانب صعوبة استعمال الملف وسهولة استعمال الكتاب الكراس ، وتحمل الرق اكثر من تحمل البردى وما ماثل ذلك من مميزات الرق وشكل الكتاب الكراس في مواجهة البردى وشكل الملف ، هناك سبب رئيسي لتبني اوائل المسيحيين شكل الكتاب الكراس وهو ارتباط الملف بالادب الوثني ، ولما كانت النصرانية قد شنت حرباً لاهوادة بها ضد الوثنية واراد اوائل النصارى اقتلاع الوثنية من قلوب الناس ، فقد ارادت تغيير كل ما يمت الى العصر الوثني بصلة ومن جملتها شكل الكتاب . لذا فان اقدم الكتابات المسيحية كلها تقريباً مكتوبة على مخطوطات بشكل الكراس ، ولايوجد الا اقلية جد نادرة من المخطوطات المسيحية على شكل ملفات . وقد اصبح شكل الكتاب الكراس هو السائد منذ القرن الرابع ، وحذا الوثنيون حذو المسيحيين وكتبوا مخطوطاتهم على رقوق وجعلوها على شكل الكراس . ولقد استبدلت ملفات البردى الموجودة في مكتبة قيصرية بكتب الكراس المكتوبة على الرق وذلك في القرن الرابع .

ان الانتقال من شكل الكتاب الملف الى شكل الكتاب الكراس ومن البردى إلى الرقوق والجلود كان حداً فاصلاً وعلماً بارزاً في تاريخ انتاج الكتب ويوازن في أهميته اختراع الطباعة باحرف طباعية متحركة والانتقال من الرق إلى الورق في القرن الخامس عشر .

وان الرق بشكله الاول ، شكل الملف لايزال يحظى بتقدير خاص حتى الآن في بعض المناسبات الخاصة . من امثلة ذلك اتخاذ شكل اللفافة في الوثائق التي يخلع عليها صفة رسمية ، كشهادات الشرف وغيرها . كما وان التعبيرات المستعملة الى الآن في اللغة الاوربية كلفظ رولRoleورولييتRollet وغيرهما ان هي الا الفاظ تذكرنا بالعصر الذي كانت تطلق فيه هذه الالفاظ على اللفافات واللفائف والملفات .

وان اشهر المخطوطات اليونانية الباقية في الوجود من تلك الفترة هي كتب مقدسة توراتية كتبت في القرنين الرابع والخامس الميلاديين . هذا وان اشهرها ثلاثة : الاولCodex Vaticanus (مخطوط الفاتيكان) وCodex Sinaiticus (مخطوط سيناء) وCodex Alexandrinus .

يتألف مخطوط سيناء ، في حالته الاصلية ، من ٧٣٠ ورقة (١٤٦٠ صفحة) طول كل صفحة ١٦ بوصة وعرضها ١٤ بوصة ، وكتب الكتاب على الرق ، وتحوي كل صفحة اربعة اعمدة . وقد اكتشف هذا المخطوط في ديرسانت كاترين على جبل سيناء قسطنطين تيشيندورفConstantine Tishandorfسنة ١٨٤٤ م . وكان جزء من المخطوط قد بدأ باحراقه راهب جاهل من رهبان الدير على انه شيء قذر ، ولكن تمكن تشيندورف من انقاذ البقية من الحرق وعددها ٣٩٠ ورقة واودعت في مكتبة بطرسبورغ ، واخيراً اشتراها المتحف البريطاني سنة ١٩٣٢ م بمبلغ مائة الف جنيه .

شكل الكراس :

كانت معظم الكراريس مكونة من عدة ملازم تحتوي كل واحدة منها على عدد معين من الاوراق . وبشكل عام ، كانت الملزمة الواحدة تحتوي على ورقتين او ثلاث او اربع . ومع هذا فقد عثر على عدة كراسات قديمة ، كان كل منها يضم بين دفتيه كل اوراقه مجموعة في كراسة وحيدة . ولابد ان هذا الترتيب قد ادى بالطبع الى قبح مظهر الكتاب . واضطر صناع الكتب الى ان يجعلوا عرض الاوراق الداخلية اقل من عرض الاوراق الخارجية .

اما احجام هذه الكراسات فكانت صغيرة في القرون الاربعة الاولى اذ كان عرض الكتاب حوالي ثلثي طوله تقريباً . وواضح انه كان في ذلك العصر ـ كما في عصرنا الحاضر ـ احجام معيارية معينة لانتاج الكتب ، وذلك عن طريق ثني الورقة مرة او مرتين .

ثم بدأت المعايير الكبيرة بعد ذلك الظهور والذيوع والانتشار ، وذلك ابتداءً من القرن الخامس الميلادي . وكما كان الحال في ملفات البردى القديمة ، وفي الكتب المعاصرة ، كان هناك ميل الى ترك هوامش كبيرة في المخطوطات الفاخرة ، في حين ان المخطوطات العادية تملأ صفحاتها بالكتابة حتى نهايتها وحوافها . ومع ذلك فقد روعي ، في الغالب ، ترك هامش جانبي للصفحات اكبر من الهوامش العليا والسفلى ، تجنباً لما يمكن ان يحدث لها من تلف .

العنوان وترقيم الصفحات ووسائل الايضاح :

كان الكراس ، في تنظيمه ، مماثلاً للملف ، حتى ان وضع عنوان الكتاب في آخر النص انتقل في العصور الاولى الى الكراس من الملفات ، وذلك على الرغم من عدم وجود مبرر عملي لذلك ، ولم ينتشر وضع عنوان الكتاب في اوله ومفتتحه الا في بداية القرن الخامس .

ولكن الشيء الجديد في الموضوع والذي اتى مع الكتاب الكراس هو ترقيم الصفحات . فبينما كان ترقيم الصفحات لافائدة منه للكتاب الملف حيث كانت الاعمدة مرتبة ، بالضرورة ، حسب مكان ورودها ، اصبح الترقيم ذا اهمية حقيقية في الكتاب الكراس . والواقع فقد اقتصر اول الامر على ترقيم الاوراق لاترقيم الصفحات ، ولكن بعد ذلك اتخذت الخطوة الاولى نحو ترقيم الصفحات .

كذلك بدأت الصور ووسائل الايضاح تظهر في الكتاب الكراس بشكل اكثر مما كانت تظهر في الكتاب الملف ، واغلب الكتب المصورة لدينا فيها صور حقيقية توضح مناظر مذكورة في نص الكتاب ، فقد استعمل فارو Varro حوالي ٧٠٠ صورة في معجمه الذي الفه في تراجم عظماء قدماء الرومان ، وكذلك زينت كتابات ارسطو وخاصة في التشريح بكثير من الصور الايضاحية . كما وجد في هذه الكتب الكراسية صور زخرفية ، وهي صور كاد ينعدم فيها التظليل ، ولذلك شابهت الاشكال والاشخاص والصور المضروبة على النقود والمحفورة على الآثار .

ونجد في المخطوطات اليونانية والقبطية التي ترجع الى القرن الرابع الحرف الاول من كل فقرة من فقرات الكتاب مكبراً وملوناً ويغلب عليه اللون الاحمر ومزيناً باقواس رأسية . ولقد استخدم النساخ في كتابة اقدم الكتب الكراسية نفس الكتابة التي استعملوها من قبل في كتابة الملفات ، وهي كتابة خاصة متقنة ، اخذ شكلها يزداد ثباتاً تدريجياً . وهناك مجموعة من المخطوطات اليونانية والقبطية ترجع الى القرنين الرابع والخامس وقد كتبت بخط متقن متشابه تقريباً ، وذلك على الرغم من تباين موضوعاتها ، وبحروف عريضة ممتلئة تدل دلالة مؤكدة على نزعة آخذة في الازدياد نحو تنظيم الكتابة واخضاعها لقواعد ثابتة .

وكانوا يستعملون للكتابة على الرق ، الناحية المجوفة من قصبة ريش الطيور الكبيرة كالنسر والغراب والاوز . وعن هذه الريشة التي عرفها الاقدمون ، أخِذَ ريش الاوز في العصر الحديث ، ومن بعدها الريش المعدنية المستخدمة في عصرنا الحاضر .

اما الحبر فكان تركيبه لايختلف عن تركيب الحبر المستعمل في الكتابة على ورق البردى ، ومنذ القرن الرابع ميلادي استخدم الى جانبه نوع آخر من الحبر المعدني الاحمر الضارب الى السمرة .

اما الحبر الحالي فلم يستعمل الا منذ القرن الثاني عشر ميلادي وكان يصنع من مواد الدباغة وسلفات الحديد .

ونحن لانعلم شيئاً ذا غناء عن طريقة تجليد كتب الكراس القديمة . ولاريب أنهم كانوا في الغالب يقنعون بتغليف الكتاب بغلاف من الرق . ومع هذا فقد عثر المنقبون في بعض المقابر المصرية على عينات من التجليدات القبطية ، التي استعمل فيها الجلد ،وهي ترجع في تاريخها إلى القرن السادس ميلادي وتحمل آثار زخرفية جميلة .

تجارة الكتب والناشرون في روما :

وعندما كان الرومان يستعملون الكتاب الملف كان طول ذلك الملف في المتوسط بين عشرين وثلاثين قدماً ، وعرضه بين ١٠ و ١٢ بوصة . وكان الملف يغلف بقطعة من القماش ويربط بخيط ، على حين كانت تغلف الملفات الثمينة جداً باغلفة من جلد .

وبعد ان بسط الرومان سيادتهم على اغلب اقسام العالم المعروف آنذاك ، وبعد ان وحدوا اقاليم البحر الابيض المتوسط واخضعوها لنظام سياسي موحد ، ظهرت لديهم تجارة نشطة في عالم الكتب ، قامت ، في الاعم الاغلب على اكتاف مهاجرين يونانيين ؛ كما نشط نسخ كتابات اعلام المؤلفين اليونان .

ولقد استخدم تاجر الكتب المسمى باللاتينية باسمBibliopola لهذا العمل عبيداً مدربين تدريباً خاصاً للقيام به اسمهم اللاتينيServi Litterati(العبيد العاملون في القراءة والكتابة) . اضف الى ذلك بدأ الاهتمام بنشر الكتب ، ولم يعد باستطاعة المؤلفين ان يتصلوا مباشرة بالجمهور الذي كثر عدده وتباعدت اماكنه ، حتى ان الشاعر هوراس كان على حق حين افتخر ان شعره يقرأ على شواطىء البحر الاسود ، وفي نفس الوقت على شواطىء الرون والابرو .

ويعتبر اتيكوس صديق شيشرون اول ناشر وصل الينا اسمه اذ انه تكفل بنفقات نشر مؤلفات شيشرون ، ولكنه لم يدفع اتعاباً للمؤلف ، لانه لم يشتر منه حقوق التأليف ، وانما اخذ على عاتقه نسخ عدد من النسخ فقط .

وظل المؤلف حراً في التعاقد مع ناشرين آخرين لانتاج نسخ اخرى من نفس كتابه ، وفضلاً عن ذلك ، فقد كان الناس احراراً في ان يشتروا نسخة ويستنسخوها ؛ اذ انه لم يكن يوجد تشريع يحمي الملكية الادبية ، ولم يرم المؤلفون الى الحصول على ربح مادي من وراء اعمالهم الادبية ، ولم يكن المؤلف يأمل في الحصول على ربح مادي الا باهدائه مؤلفه الى احد العظماء او الحكام او احد الاغنياء من مشجعي الاداب .

ولقد درج الناشرون على ان يقرأوا قراءة علنية امام نخبة من اصدقاء المؤلف قمراً من كتاب المؤلف الجديد ، وذلك لاثارة الاهتمام به ، ولكن مالبثت هذه

العادة ان تطورت تطوراً سيئاً اذ استغلها صغار المؤلفين لقراءة مؤلفاتهم في الاجتماعات العامة . والغالب ان الناشرين كانوا يرسلون الدعوات للقراءة العلنية بمناسبة ظهور كتاب جديد على سبيل الدعاية ، وهي طريقة جيدة وناجحة للاعلان ومتبعة حتى ايامنا هذه ، وكان لابد للناشرين من ثقافة ادبية شخصية تساعدهم في عملهم ، فقد كان اتيكوس صديق شيشرون وناشره ذا ثقافة عالية وقام بنشر اعمال افلاطون وديموستين . وهذا عمل يتطلب ثقافة واسعةلان الناشر لابد ان يراقب عمل ناسخيه حتى تظهر النسخ خالية من الاخطاء وحتى لايشوه الاصل . وعلى الرغم من معرفتنا باسماء عدد آخر من الناشرين الرومان ، منهم الاخوة سوسيوسSosius الذين نشروا اعمال الشاعر هوارس ، ومنهم الناشر اللاتيني تريفونTryphon وغيرهم من الناشرين ، الا اننا لانعلم شيئاً عن مدى نشاط هؤلاء الناشرين واهمية مانشروه .

ومما يرتبط بالنشر اسعار الكتب ، وليس لدينا في هذا المجال معلومات دقيقة ، وان كان من المعروف انها تتناسب مع حجم الكتب ومظهرها واهميتها ومؤلفها ووضوح الخط المكتوبة بها وماماثل ذلك من امور . وكان لدى اثرياء الرومان الذين لديهم مكتبات خاصة عبيد ينسخون لهم الكتب التي يريدون الاحتفاظ بها . ولامراء في انه قد وجدت آنذاك نسخ قيمة وملفات فاخرة ذات اثمان عالية ، وخاصة ماكان منها حاوياً لمخطوطات مكتوبة بخط يد مشاهير المؤلفين والتي تهافت عليها هواة جمع الكتب من الرومان .

الفصل الخامس

الكتابة والكتاب في العصور الوسطى

لقد بحثنا في الفصل السابق مفهوم العصور الوسطى وناقشنا فكرة تقسيم مجرى التاريخ الانساني الى عصور مختلفة ذات صفات معينة ، وذكرنا ان فكرة العصور الوسطى ، بأوصافها ومميزاتها وماتحمله من مفاهيم ، تنطبق اكثر مايكون الانطباق على اوربا الغربية خلال فترة من الزمن تمتد حوالي الف سنة .

لقد تعاصر ، في هذه الفترة ، مع العصور الوسطى في اوربا الغربية بيزنطة وتاريخها الذي امتد حوالي الف سنة . وقد امتازت هذه الفترة البيزنطية بميزات كثيرة وصفات معينة بعضها مشابه لما كان جارياً في اوربا ، وبعضها الآخر يخالفه مخالفة جذرية .

كذلك تعاصر مع تلك الفترة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ذات المميزات الخاصة بها ، والتي تناقض ، على خط مستقيم ، ما كان جارياً في اوربا الغربية .

ولما كان اهتمامنا هنا منصباً على تطور الكتاب والكتابة في اوربا الغربية وبيزنطة وغيرهما من اجزاء العالم ،باستثناء العالم الاسلامي ، الذي سيكون له معالجة خاصة باذن الله ، لذا سينصب اهتمامنا هنا على بحث تاريخ وتطور الكتاب والكتابة في كل من اوربا الغربية وبيزنطة خلال الفترة المبحوثة المذكورة آنفاً .

١ـ الكتاب والكتابة في الامبراطورية البيزنطية :

يعتبر التاريخ البيزنطي ـ من وجوه كثيرة ـ امتداداً للتاريخ الروماني . ذلك ان الامبراطورية البيزنطية هي ، اساساً ، القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية . فقد قسم الامبراطور ديوكليشيان (اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع الميلادي) الامبراطورية الرومانية الى قسمين شرقي وغربي وذلك من اجل تسهيل ادارتها وحمايتها والدفاع عنها في وجه هجمات البرابرة . وقد ضم القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية شبه جزيرة البلقان بكاملها واسيا الصغرى وسورية ومصر وشمالي افريقيا . ولقد انهار القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية الذي عاصمته روما تحت ضربات البرابرة في القرنين الرابع والخامس الميلاديين . ولقد اعتبر سقوط روما سنة ٤٧٦ م بيد البرابرة بداية للعصور الوسطى وانتهاءً للعصور القديمة . ولقد نجا القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية من هذا المصير واصبح مقراً ومستودعاً للتراث اليوناني الروماني وقد تفاعل هذا التراث مع الحضارة الشرقية ، ونشأ من هذا التفاعل التراث البيزنطي وقد اطلق العرب المسلمون على البيزنطيين ودولتهم اسم الروم ودولة الروم . وقد تعرضت هذه الامبراطورية لهزات عنيفة اتتها من الشرق والغرب والشمال والجنوب . فقد دأبت شعوب البلغار والآفار من الشمال والغرب على مهاجمة عاصمة الامبراطورية ـ القسطنطينية ـ حتى وصلوا الى اسوارها . كذلك هددها الفرس من الشرق ونشبت بين الطرفين حروب كثيرة وطاحنة امتدت عدداً طويلاً من السنين ، وكان آخرها تلك التي نشبت في اوائل القرن السابع الميلادي قبيل التحرير الاسلامي لبلاد الشام وبلاد الرافدين وبلاد فارس ومصر ، ونجد انعكاس هذه الحروب في القرآن الكريم في قوله تعالى :﴿ الم ، غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾[١] .

---

(١) سورة الروم : الآيات ١ ـ ٥ .

ثم تلقت هذه الامبراطورية ضربة هائلة كادت تودي بحياتها ، وذلك عندما ظهر الاسلام واصبح القوة العظمى في العالم ، وبدأ المسلمون الاوائل عملية التحرير التي اسفرت ، خلال عقد من السنين بعد انتقال الرسول الكريم ﷺ الى الملأ الاعلى ، عن تحرير اقاليم بلاد الشام وبلاد الرافدين وقسم من بلاد فارس ومصر وقسم من شمالي افريقيا ، ثم تابع المسلمون عملية التحرير في العهد الاموي وتمكنوا من تحرير جميع شمالي افريقيا من ربقة البيزنطيين . وقد ظلت الحروب مستعرة بين البيزنطيين والمسلمين طوال تاريخهم . وظهر الاتراك السلاجقة في القرن الحادي عشر ميلادي وبدأوا زحفهم السكني على الاناضول وحاربوا الامبراطورية البيزنطية وهزموها اكثر من مرة وسكنوا في الاناضول . كذلك هاجم الصليبيون الزاحفون على بلاد الشام عبر القسطنطينية العاصمة واحتلوها في مفتتح القرن الثالث عشر ، ثم استرد البيزنطيون عاصمتهم واستمروا في الوجود حتى سنة ١٤٥٣م عندما احتل محمد الفاتح العثماني القسطنطينية وانهى الوجود الرومي البيزنطي .

سميت هذه الامبراطورية ونسبت الى مدينة صغيرة اسسها المهاجرون اليونان في القرن السابع ق.م على البر الاوربي على مضيق البوسفور الذي يصل بين البحر الابيض المتوسط والبحر الاسود اسمها بيزنطيومByzantium ، ولما اصبح الامبراطور قسطنطين في مفتتح القرن الرابع ميلادي الحاكم الفعلي للامبراطورية الرومانية بشقيها الغربي والشرقي اسس مدينة جديدة قرب موقع مدينة بيزنطيوم القديمة واسماها باسمه وهي مدينة القسطنطينية الحالية او كما تسمى الآن باسم استانبول . وكان ذلك حوالي سنة ٣٢٨ م وجعلها عاصمة له ، ومن ثم اصبحت عاصمة الامبراطورية الشرقية اكثر من الف عام . هذا وان الحضارة البيزنطية متأثرة باليونان اكثر من تأثرها بالرومان ، ومتأثرة بالشرق اكثر من تأثرها بالغرب . وتنبع اهميتها في تاريخ الحضارات من الدور الذي لعبته في البلقان وفي روسيا ، اذ انها هي التي ادخلت الديانة المسيحية على المذهب الارثوذكسي الى كل من البلقان وروسيا وصبغت الاقليميين بالمؤثرات البيزنطية ـ اليونانية الممزوجة بالمؤثرات الشرقية والديانة المسيحية الشرقية . كذلك حفظت بيزنطة قسماً مهماً من

التراث الكلاسيكي (اليوناني الروماني) في مكتباتها وأديرتها . فقد وجدت نسخ من مؤلفات مؤلفي اليونان القدامى في القرنين الرابع عشر والخامس عشر طريقها إلى أوربا - وبخاصة إلى ايطاليا ، وساهمت في ظهور عصر النهضة .

لقد ازدهرت في الامبراطورية الرومانية الشرقية حياة الأديرة حتى في زمن أبكر من ازدهارها في غربي اوربا . فقد تأسست الأديرة في آسيا الصغرى وبلاد اليونان قبل سنة ٥٠٠ م ، وكانت لها قوانينها الخاصة التي تشجع على الدراسة والتحصيل ونسخ المخطوطات . ولكن حدث ، فيما بعد في القرن التاسع ميلادي أن تأسست أديرة جديدة كانت أنظمتها تصر على ايجاد مكتبة وعلى تعلم النسخ ووضعت قواعد وأنظمة من أجل ذلك .

وأشهر هذه الأديرة دير ستوديونStudion قرب القسطنطينية الذي اصدر رئيسه الأب تيودور في القرن التاسع قواعد ولوائح تبين طريقة النسخ واستعمال المكتبة في هذا الدير وجميع الأديرة الأخرى ، والبالغ عددها عشرين ديراً ، التابعة له والمنتشرة على جبال شبه جزيرة آتوس الصغيرة الموجودة في البحر الايجي . وهذه الأديرة مهمة لغنى مكتباتها بالأعمال الدينية التي وصل بعضها سالماً لنا . وعلى الرغم من أن العمود الفقري لمجموعات الأديرة كان الأعمال الدينية ، إلا أنها حوت أعمالاً كلاسيكية وحتى علمية وطبية ، ذلك أن بعض الأديرة أُلق بها مشافي وكانت تخرج الرهبان ، ولذلك ألحق بالمكتبة الديرية مجموعة كتب علمية وطبية .

ولقد كانت هذه الأديرة البيزنطية ، كما كانت مكتبات بيزنطة نفسها مورداً لايثمن للكشوف الأثرية التي قام بها هواة جمع الكتب النادرة والمخطوطات الثمينة في أوربا في عصر النهضة الحديثة . وعلى الرغم مما عانته هذه الأديرة من أزمات وكوارث حلت بها على مرور السنين ، وعلى الرغم من أنه لم يبق بها شيء تقريباً من مجموعاتها الأصلية القديمة ، إلا أن مابقي بها بعد ذلك يعتبر اليوم ، إلى حد كبير ، كنوزاً ثمينة من بقايا القرون الأولى للعصر الوسيط ، وإن كانت هذه الآثار صعبة المنال لمن هم خارج هذه الأديرة بطبيعة الحال .

وكان من بين هذه الكشوف ماقام به العالم واللغوي الالماني تيشندورف Tischendorf في دير سانت كاترين الواقع في شبه جزيرة سيناء سنة ١٨٤٤ م .

من انقاذ ثلاث وأربعين ورقة من نسخة العهد القديم اليوناني من يد رهبان الدير بعد أن كانوا اعتزموا إحراقها على أنها أشياء قذرة لاتستحق الاحتفاظ بها ، وهي لاتزال محفوظة الى اليوم بمكتبة جامعة لايبزيغ ، كذلك كان لهذا العالم نفسه حظ العثور ، بعد عدة سنوات ، على جزء آخر من نفس المخطوط . كما عثر على نسخة شبه كاملة من العهد الجديد وقد قدمها هدية الى قيصر روسيا آنذاك .
وهذه النسخة الشهيرة من الانجيل مكتوبة على الرق وباليونانية وتسمى باسم مخطوط سيناءCodex sinaiticus . وهو يعتبر أيضاً أقدم مخطوط اغريقي من القرن الرابع الميلادي . وقد أودعت هذه النسخة في مكتبة بطرسبورغ في روسيا ، وأخيراً اشتراها المتحف البريطاني سنة ١٩٣٢ م بمبلغ مائة ألف جنيه .

لقد شهدت الفترة الواقعة بين عامي ٨٥٠ و ١١٠٠ م نهضة في التأليف في بيزنطة ووجد بها مؤلفون كثيرون ، وعلى الرغم من أن أغلب أعمالهم تلخيص وإيجاز لأعمال من سبقهم ، إلا أنهم اغنوا الأدب اليوناني من جهة ، وحفظوا لنا بذلك مؤلفات قديمة ضاعت أصولها ولم تصلنا إلا عن طريقهم من جهة أخرى .
فقد جمع بطريرك القسطنطينية فوتيوس ولخص في كتابه (المكتبة) حوالي ٢٨٠ مؤلفاً لمؤلفين قدماء . وبالرغم من أن أغلب هذه المؤلفات ذو صبغة دينية إلا أن منها بعض الأعمال الأدبية والتاريخية وحتى الفنية . وتدل هذه الكتب الملخصة على ذوق رفيع في انتقاء الكتب وتدل على غنى المكتبة البيزنطية بشكل عام .

ولقد انتشر نفوذ بيزنطة واشعاعها خارج حدودها عدداً من المرات خلال تاريخها الطويل المضطرب ، وامتد من سيلان الى باريس ومن اسبانيا الى موسكو . فقد حصل شارلمان امبراطور غربي اوربا المشهور على نسخ من الكتب من مكتبة القسطنطينية الامبراطورية واضافها الى مكتبة القصر التي أنشأها في عاصمته آخن . ولقد استعارت مكتبات الأديرة في ارمينيا نسخاً كثيرة من كتب دينية من القسطنطينية ، ولايزال عدد من هذه النسخ محفوظاً حتى الآن في المكتبة العامة في اريوان عاصمة جمهورية ارمينيا السوفياتية . ولقد تأثر المسلمون ، الذين اقتطعوا في القرن السابع الميلادي وحرروا قسماً مهماً من أملاك الامبراطورية البيزنطية ، بعض التأثر ، بمؤثرات في حقول الفن والفلسفة والعلوم السياسية .

ولكن البيزنطيين مارسوا نفوذاً قوياً وواسعاً في صقلية وجنوبي ايطاليا ، حيث نجد أن إحدى مكتباب الأديرة في القرن الحادي عشر كانت تحوي كتباً كلاسيكية مؤلفة باللغة اليونانية لم تكن معروفة لدى بقية اوربا آنذاك . ولقد حصلت امبراطورة الصرب اليزابيث في القرن الثالث عشر على مكتبة يونانية من القسطنطينية . وحصل أمير مولدافيا في القرن الرابع عشر على مكتبة تحوي كتباً كلاسيكية من نفس المصدر . وهكذا يمكن ملاحظة أن كتابات كبار المؤلفين الكلاسيكيين لم تفقد فقداً تاماً من غربي اوربا ، ذلك أن هذه المؤلفات كانت موجودة بشكل دائم عند البيزنطيين ، وكانت أيضاً بحوزة اولئك الذين تأثروا بالثقافة والحضارة البيزنطية . ومع ذلك يمكن القول أن دائرة هذه المؤثرات كانت ضيقة ومحدودة جداً في الزمان والمكان . كذلك كانت دائرة المؤلفات الكلاسيكية ضيقة وتدور حول عدد معين من عدد محدود جداً من الكتاب .

ولسوء الحظ ، فإن حضارة بيزنطة التي ظلت مزدهرة فترة طويلة من الزمن بدأت في الانحطاط والتدهور بعد سنة ١٢٠٠ م . ولقد افتتح عهد الانحطاط هذا الغزو النورماندي للبلقان في أواخر القرن الثاني عشر . وعندما احتل الصليبيون في الحملة الصليبية الرابعة القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م أمكن القول أن هذه المدينة الرائعة دمرت تدميراً يكاد يكون كاملاً ونهبت محتوياتها نهباً ذريعاً . فقد نهب الغزاة القساة الجهلة محتويات مكتبات القسطنطينية أشنع نهب ودمر وأحرق القسم الأكبر من محتوياتها وذلك لجهل الغزاة وبربريتهم . على أن عدداً من أفراد القوات الغازية أدرك أن هذه المخطوطات قد تكون ذات قيمة لابأس بها ، فاحتفظوا بها لأنفسهم ثم باعوها بابخس الأثمان واوكسها لتجار المخطوطات الايطاليين الذين اشتروا الحثالة الباقية من ذلك التراث الرائع وجنوا من ورائها ثروات طائلة .

ولقد رفض البيزنطيون الخضوع للصليبيين الهمج وأعاد الامبراطور يوحنا الثالث ١٢٢٢ ـ ١٢٥٤ م تأسيس الامبراطورية بعد سقوط القسطنطينية وجعل عاصمتها مدينة نيقية حيث أسس هناك مكتبة امبراطورية ، وأصبحت نيقية مركزاً ثقافياً في القرن الثالث عشر فيها الكثير من الكنائس والأديرة والمشافي والمدارس .

وقد استعاد البيزنطيون قواهم وحاربوا أعداءهم النورمانديين وتمكنوا من استعادة سالونيك منهم سنة ١٢٤٦ م . وأخيراً استعادوا القسطنطينية منهم سنة ١٢٦١ م ، وعندئذ أعاد الامبراطور ميشيل باليولوغوس تأسيس المكتبة الامبراطورية في قصره . ولكن اعادة تأسيس الامبراطورية لم يكن يعني شيئاً ذا أهمية لبيزنطة ، ذلك أن الاعداء أحاطوا بها من كل جانب كالايطاليين والصرب والبلغار والأتراك . كما وأن الانقسامات والاختلافات الدينية مزقت الدولة والشعب أسوأ تمزيق وبدأت تفقد اقاليمها بالتدريج حتى إذا أهل القرن الخامس عشر لم يبق من تلك الامبراطورية السامقة سوى رقعة ضيقة من الأرض تحيط بالعاصمة القسطنطينية .

ولكن الغريب في الأمر أن هذا التدهور السياسي رافقه يقظة في الأدب البيزنطي ، وكانت العاصمة تغص بالمدارس والمشافي والمكتبات والكنائس والأديرة ، وطبعاً كانت هذه يقظة سطحية هي صحوة الموت . وأخيراً أتاها الموت يحمله لها السلطان العثماني محمد الفاتح الذي احتل القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م وأنهى حياة امبراطورية استمرت في الوجود أكثر من ألف عام . ولقد نهبت المدينة بعض النهب ، ولكن ما أن استتب الأمر للسلطان العثماني حتى أمن السكان على أرواحهم وأموالهم وممتلكاتهم . وعلى الرغم من أن بعض المخطوطات دمرت لأن الجنود المهاجمين لم يكونوا يفهمون لغة المخطوطات التي كانت غريبة عليهم ، وهي اليونانية في أغلب الحالات ، إلا أن الحكومة أدركت أن هذه المخطوطات قد تكون ذات قيمة ، ولذلك حمت الحكومة العثمانية هذه المخطوطات ومنعت من نهبها وتدميرها . وسرعان مانشأت بعد ذلك تجارة للمخطوطات كان قوامها تجار البندقية الذين استأنفوا علاقاتهم التجارية مع الدولة العثمانية ، وانتقل بهذه الطريقة عدد كبير من المؤلفات الكلاسيكية الى الغرب كان لها دور هام في البعث الذي حصل في اوربا بعد فترة وجيزة من الزمن وهو مايعرف باسم عصر النهضة Renaissance .

إن من المستحيل معرفة عدد المكتبات وعدد الكتب التي كانت موجودة في القسطنطينية عند سقوطها بيد العثمانيين ، ولكن يمكن القول أن تجارة المخطوطات

اليونانية ظلت قرابة قرن كامل معتبرة من الأعمال التجارية المربحة .

إن أهمية بيزنطة للعالم الغربي لاتنبع من نتاجها في حقلي الأدب والفن ، وإنما تنبع أيضاً من أنها حفظت أبان القرون الوسطى المظلمة في الغرب قسماً مهماً من التراث الكلاسيكي اليوناني الروماني في وقت كاد يفقد فيه فقداً تاماً في اوربا . ويمكن القول أن مانعرفه الآن عن التراث اليوناني فإن نصفه أتى من نسخ كانت محفوظة لدى بيزنطة . وأن انتقال المخطوطات من الشرق الى الغرب بدأ حتى قبل سنة ١٢٠٠ م ولكنه وصل ذروته خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وكانت المخطوطات لدى بعض التجار أربح وأثمن مادة تجارية يمكن أن يتاجروا بها . ولقد أثارت هذه المخطوطات وأحيت الاهتمام بالأداب اليونانية والفلسفة والتاريخ وهو ماعرف كما ذكرنا سابقاً باسم النهضة . ولذا يمكن القول أن انحطاط بيزنطة كان السبب ورافق نهاية العصور الوسطى في اوربا الغربية وولادة عصر النهضة فيها .

٢ـ الكتاب والكتابة في اوربا الغربية في اوائل العصور الوسطى حتى حوالي ١١٠٠ م:

لقد بحثنا فيما مضى مفهوم العصور الوسطى وذكرنا أن ذلك ينطبق على اوربا الغربية وحدها خلال تلك الفترة . ولذلك لاحاجة لاعادة مابحثناه سابقاً هنا .

لقد شاهد القرنان الرابع والخامس غارات البرابرة على الامبراطورية الرومانية ، وقد أدت هذه الغارات في نهاية القرن الخامس الى سقوط روما بأيديهم وتحطم القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية تحت وطأة غاراتهم وتقسمت اوربا الغربية الى عدد كبير من الدويلات يحكمها البرابرة الجاهلون الذين لم يلبثوا أن اهتدوا الى المسيحية ، ومن ثم بدأت الكنيسة تسيطر على نواحي الحياة في اوربا وبدأت تحتكر لنفسها النواحي العقلية والدينية ، ولذلك ساد في اوربا الجهل والتعصب ، وانحصر العلم والتعلم ـ الديني وحده ـ في الكنيسة ورهبانها . ولذلك ، ولما كانت غارات البرابرة الجهلة قد قضت على أغلب المؤسسات المدنية

الموجودة في اوربا ، وكان نصيب الكتب والمكتبات من ذلك الدمار موفوراً جداً حتى كادت تفقد الكتب كلية وساد الجهل والأمية بين أفراد الشعب ، فقد نشأت المكتبات في اوربا الغربية في العصور الوسطى أول مانشأت في الكنائس والأديرة ، ووجدت حثالة المخطوطات التي نجت من الدمار ملجأ لها في الكنائس والأديرة ، وأصبحت الأديرة مركز التعليم في تلك العصور المظلمة وتضم بين جنباتها عدداً من المخطوطات أغلبها ديني ، تحرص عليها بشدة ولاتتيح مطالعتها إلا لرجال الدين وحدهم ، فعوضاً عن مكتبات المعابد التي كانت موجودة في غرف مفروشة بالرخام كانت مكتبة الدير مجموعة صغيرة من الكتب لاتتجاوز بضعة مئات من الكتب ذات الكراريس موضوعة في صندوق أو صندوقين في إحدى زوايا غرفة العبادة .

لقد انتشرت الحياة الديرية حتى في زمن أبكر من الغارات البربرية ، ولعل أول من أسس ديراً ووضع القواعد الناظمة للحياة فيه هو القديس باخوميوسPachpmius الذي أسس أول مجتمع ديري على أسس مسيحية سنة ٢٥٠ م ، وأسسه في مصر على حافة الصحراء . وكان كل فرد في هذا المجتمع الديري يعيش منعزلاً عن الآخرين ولايتقابل الجميع إلا في وقت الصلاة عندما يشترك الجميع في صلاة جماعية ويتلقون التعليمات من رئيس الدير . وكان هذا الراهب يعتقد أن المجتمع الديري يجب أن يكفي نفسه بنفسه ، ولذلك علم أعضاء الدير عمل السلال والحدادة والخياطة وأصبحت هذه أول قواعد الأنظمة الديرية .

ولقد ازداد اقبال الناس على الأديرة ، مع اشتداد عنف الغارات البربرية ، لأن الدير كان هو المكان الوحيد الذي يستطيع المرء أن يجد فيه شيئاً من الأمان على حياته وذلك بسبب احترام البرابرة لهذه المؤسسة الدينية . ولقد اختفت في ذلك العصر جميع مميزات وخصائص الحياة الرومانية القديمة من شجاعة وافتخار بالوطن ، وحلت محلها مفاهيم مسيحية ذات خصائص مناقضة للمفاهيم الرومانية القديمة ، وتأخرت الصناعة وهجرت الحقول وأصبح البحث في مستوى منخفض كل الانخفاض واغلقت المكتبات ودمر قسم كبير جداً منها ومن الكتب ، واختفى

أو زال القسم الأعظم من الأدب الكلاسيكي . وكان من الممكن أن يزول في ذلك العصر المضطرب كل الأدب الكلاسيكي لولا جهود بعض العلماء والبحاثة النادرين من أمثال بوثيوس Boethius وكاسيودوروس . لقد تابع بوثيوس الذي يوصف أنه آخر الارستوقراطية الرومانية عملية التعلم والبحث عن الحقيقة لذاتها ، وقد كتب وألف في الرياضيات والموسيقى والفلك وترجم عدداً من كتب ارسطو وافلاطون . وتعتبر اعترافاته قطعة أدبية كلاسيكية . وقد مات بوثيوس واعتبرته الكنيسة شهيراً مسيحياً .

ويعتبر الدير الذي أسسه كاسيودوروس في ايطاليا من أقدم الأديرة التي انشئت في اوربا في القرن الخامس الميلادي . لقد تعاصر كاسيودوروس البحاثة المسيحي مع بوثيوس وهرب من روما بعد أن حوصرت وسقطت بيد الأعداء ، وهناك اتجه تفكيره نحو انقاذ مايمكن انقاذه من الأداب المسيحية من بين براثن البربرية ، ولذا فقد اعتزل الحياة العامة وأسس في جنوبي ايطاليا ديراً اسماه دير فيفاريومVivarium وأقام به مايشبه اكاديمية مسيحية ووضع له نظاماً نص فيه على أن يقوم الرهبان بقراءة النصوص الدينية بتمعن أو أن ينسخوا نسخاً عنها ، ولم يقصد بهذه النصوص الكتابات المقدسة الدينية فحسب ، وإنما قصد بها أيضاً سائر الكتب العامة الاغريقية واللاتينية ، ولذا فقد درب الرهبان على نسخ الأداب النصرانية والوثنية معتقداً (أن الشيطان يجب أن يحارب بالقلم والحبر) . ولذا يمكن اعتبار كاسيودوروس هو الشخص الأول المسؤول عن مكتبة الدير وانتشارها في اوربا وعن المنسخ ووجوده ونشاطه في الأديرة .

لقد كان كاسيودوروس ناقلاً مدققاً ، والف عدداً من الكتب تحوي قواعد ناظمة لعملية نسخ المخطوطات ، واخترع طريقة مناسبة لتجليد المخطوطات . كذلك الف كتاباً مهماً عن تاريخ القوط ، ولسوء الحظ يبدو ان هذا المخطوط اما فقد او اتلف .

ولقد تعاصر مع كاسيودوروس ونشاطه في حقل الكتب والمكتبات الديرية ، وربما فاقه ايضاً ، نشاط رهبان البندكيتين ومؤسس نظامهم الرهباني القديس بندكت في حقل الكتب والمكتبات واحيائهم للتراث الكلاسيكي . فقد اسس القديس بندكت Benedict رهبنته نسبت اليه وسميت باسمه . وقد سمي بندكت باسم له دلالته اذ سمي باسم (والد الديرية) . لقد بدأ بندكت حياته شاباً مترفاً غنياً ارسله اهله الى روما للدراسة ، ولكن الحياة في روما لم تعجبه فهرب منها الى كهف ،حيث اجتمع معه فيه عدد كبير من الشباب الذين هربوا من حياة روما ولجأوا للكهف للتمتع بالهدوء والصفاء ، وبعد فترة انتقل الى قرية مونت كاسينو في ايطاليا حيث اسس ديراً سنة ٥٢٨ م قرب قرية معروفة بهذا الاسم فنسب الدير اليها . ولقد ذاعت شهرة هذا الدير في كل اوربا وكان اكثر الاديرة نفوذاً فيها . وقد انطلق منه الرهبان الى ارجاء اوربا لتأسيس الاديرة ولنشر تعاليم وعقيدة القديس بندكت البسيطة وهي : ان العمل يجلب صحة جسدية وروحية معاً .

ولقد دمر دير كاسينو عدة مرات عبر العصور واعيد بناؤه واهمل كثيراً ، وأخيراً دمر كلياً في الحرب العالمية الثانية خلال المعارك التي دارت بين الحلفاء والالمان ، ولم يبق منه الا بقايا جدار مائل . ولقد اعاد الامريكيون بناءه وحفظوا بعناية قسماً ضئيلاً من الجدار الاصلي .

لقد الف بندكت قواعده وهي دليل العيش ضمن جدران البيت الديني الذي هو الدير . وقد وضع القواعد الناظمة لجميع مناحي حياة الرهبان : اكلهم وطعامهم وصلواتهم واوقاتها وعملهم في الحقل وجني المحصول . . . واوقات المطالعة وتعلم اليونانية واللاتينية واوقات العناية بالمرضى . وقد خصص المادة ٤٨ من قواعده لنسخ المخطوطات . وقد اكد في قواعده هذه اهمية قراءة الكتب والنصوص تأكيداً قوياً جداً ، مما جعل هؤلاء الرهبان يخصصون كل اوقات فراغهم للقراءة ، بل لقد تشدد بعض شيوخهم في مراعاة الرهبان لنظام الطائفة في هذا الشأن . ولقد انتشرت الاديرة البندكتية باعداد كبيرة في كل اوربا تدريجياً خلال النصف الثاني من القرن السادس ودرست الاداب اللاتينية ونسخت جنباً

الى جنب مع المؤلفات الدينية في تلك الاديرة . ولقد تأثر بندكت في افكاره ومبادئه ونشاطاته بكاسيودوروس ، ومارس هو نفسه نفوذاً قوياً على طلابه واتباعه حتى جعل زعماء الانظمة الديرية يفخرون بالدير باعتباره مركزاً للتعلم والتعليم . ولقد اسس موروMaurus تلميذ بندكت ديراً سمي باسمه على نهر اللوار في فرنسا .

لم تكن قراءة الرهبان هؤلاء للادب القديم ونسخهم اياها حباً في هذا الأدب ذاته ، وانما كانت راجعة الى ضرورة تعلمهم اللغة اللاتينية ذلك أنهم كي يتمكنوا من قراءة الأدب الكنسي وكي يصلوا الى مرحلة اجازة اللغة اللاتينية لغة الأدب الكنسي انصرفوا الى الثقافة القديمة والأدب القديم الذي لم يكن بالنسبة لهم سوى وسيلة لبلوغ وتحقيق هدف محدد خاص . وهكذا نشأت ، بفضل نشاط هؤلاء الرهبان ، ثقافة دولية امكنها ، على الرغم من طابعها الديني القوي ، أن تحافظ على صلتها بالحياة الروحية للعصر الكلاسيكي . لقد كان البندكتيون حفظة للثقافة المسيحية وللثقافة الكلاسيكية ومعلمين لهما .

انتشار الاديرة في اوربا :

لقد انتشرت فكرة الرهبانية وانشاء الاديرة في كل اوربا . ويعود قسم كبير من الفضل في تأسيس الاديرة الى بعثات تبشيرية رهبانية اتت من ارلندا . ذلك ان ارلندا تحولت الى النصرانية على يد القديس باتريكPatrick في القرن الخامس الميلادي .

وما لبث الرهبان الارلنديون ان عكفوا على دراسة المخطوطات القديمة بحماسة وشغف واهتموا بالاداب الاغريقية بخاصة . كذلك امتاز هؤلاء الرهبان بحماسة مبشريهم ومبعوثيهم في نشر الديانة المسيحية في القارة الاوربية . فقد ارسلوا الراهب الشهير كولومبال ومعه ٢٨ راهباً الى انكلترا لنشر المسيحية بين البريتون . كذلك ذهب نفس الاسقف سنة ٥٨٠ م الى فرنسا حيث اسس اول دير على ارض فرنسية هو دير لوكسيLuxeuil كما أحضر إليه عدة مخطوطات كانت نواة اولية لمكتبة ديرية . وأسس نفس الراهب عدداً من الاديرة في كل من اسكوتلندة وانكلترا وسويسرا والمانيا وحتى شمالي ايطاليا . كذلك أسس عدد من الرهبان البندكتيين دير سان غال في سويسرا ، وهو لايزال قائماً الى اليوم .

ولقد كانت رغبة كولومبال الاساسية هي ان ينسخ كل مخطوط يصل ليده ، سواء كان ذلك بالاستعارة او السرقة او الاستجداء ، وقد اكد كل التأكيد على اهمية الدراسة والنسخ كقسم اساسي من الواجبات الديرية .

ولقد كان القديس اوغسطين اسقف كنتربري اول من اسس ديراً في انكلترا مع مكتبته ،ذلك أن البابا غريغوري أرسل القديس اوغسطين مع أربعين راهباً وتسعة كتب الى انكلترا لنشر المسيحية فيها ، وقد اسس اوغسطين اول دير عند كنتربري اصبح ام المدارس في انكلترا . وقد احضر معه تسعة مخطوطات منها الكتاب المقدس والمزامير والاناجيل وقواعد البندكتيين وقد شكلت هذه الكتب نواة المكتبة الديرية .

وهناك الاسقف بونيفاس الذي رحل الى المانيا ونشر النصرانية فيها واسس عدداً من الاديرة اشهرها دير فولداFulda ، وقد الحقت به مكتبة شهيرة فيما بعد . ولقد ادى تأسيس دير لوكسي في فرنسا الى انشاء دير آخر بمدينة كوربيCorbie الواقعة في مقاطعة بيكاديللي في فرنسا .

وعلى هذا النحو يمكن ايراد امثلة كثيرة جداً عن تزايد عدد الاديرة التي انشئت خلال تلك الفترة دون انقطاع بحيث يمكن وضع خرائط بانساب اديرة طوائف الرهبان المختلفة . وكان كل واحد من هذه الأديرة الفرعية يطبق قواعد مؤسس الرهبة المنتسب اليها ويستلم من (المؤسسة الام) مجموعة من المخطوطات كنواة لمكتبته المستقبلة .

كان بناء الدير يحاط باسوار يقع ضمنها الدير نفسه ومساحة كبيرة من الارض وحول السور خنادق ، وفي السور بوابات وممرات مكشوفة . وهنا كان الرهبان يمشون ويقرأون واجباتهم . وهنا ايضاً كان الرهبان يجلسون على اكشاك تشبه الصناديق فيها دكك خشبية غير مريحة يجلس عليها الرهبان وامامهم مخطوطات يحاولون النسخ منها .

واذا درسنا تطور الكتاب في نفس هذه الفترة وجدنا ان الكتابة تقدمت تقدماً ملحوظاً وذلك بسبب اختيار اللغة اللاتينية وسيلة للتعبير والادب اللاتيني ميداناً خاصاً للدراسة . فقد تطورت الكتابة السريعة التي ظهرت في القرون الاولى

للميلاد وسارت جنباً الى جنب مع الكتابة ذات الحروف الكبيرة وكتابة الحروف المستديرة وشبه المستديرة . ولم تلبث هذه الكتابة ان انتشرت وعم استعمالها وتطورت في اشكال عدة حسب الاماكن التي تطورت فيها . فقد نشأت الكتابة الايطالية وسادت في ايطاليا في القرنين العاشر والحادي عشر وعرفت باسم كتابة Benevent . وظهرت في فرنسا كتابة اسمها الكتابة الميروفنجية ، وظهرت الكتابة القوطية الغربية وذاع استعمالها في اسبانيا حتى القرن الثاني عشر . ولقد قيل ان القديس باتريك علم الرهبان الكلتيين كتابة الحروف الرومانية بانواعها الثلاثة ذات الحروف الكبيرة المربعة والمستديرة وشبه المستديرة . ولقد طور الرهبان الكلتيون (في انكلترا) الخط المستدير توفيراً للوقت وللرق وزادوا في تدويره وتخفيف تربعته . فمثلاً كتبوا E كما يلي ∈ ، كما وانهم ادخلوا في الكتابة حروفاً صغيرة اكثر تدويراً وكتبوا بها كثيراً من المخطوطات الجميلة ، ولعل اشهر مخطوط كتب في انكلترا بهذا الخط المسمى باسمHalf Unicial script هو المسمى باسم كتاب كيلزBook of Kells وهو مخطوط انتجه دير ارلندي حوالي سنة ٨٠٠ م ويوصف انه من اجمل المخطوطات التي ظهرت في العصر الوسيط ان لم يكن اجملها ، وهو الآن محفوظ في كلية الثالوث في دبلنTrinity College . هذا وقد افترض بعض الباحثين ان الخط القوطي الذي ظهر في اوربا في القرن الثاني عشر ، وهو خط ذو حواف عالية مدببة ، هو انعكاس للفن القوطي في البناء الذي ظهر آنذاك ، وهو فن يمتاز ببناء القناطر المدببة والاقواس المدببة . وهو خط من الصعب قراءته وكتابته اصعب من قراءته .

كذلك ذاع في ذلك العصر الاختزال واستعمل النساخ الاختصارات تسهيلاً لعمل النسخ وتعددت الرموز ، فمثلاً استعملوا المختصرdms من اجل كلمةdominus والمختصرsp من اجل كلمةSpiritus وX من اجلChsistus وهكذا . وقد وجد عدد كبير من رموز الاختزال حتى اضطر القوم الى ايجاد عدد من المعاجم لشرح معاني هذه الرموز .

وكان النسخ يتم في مكان اسمه المنسخ ويتعاطاه الرهبان ، وهناك ناسخ لصلب المخطوط وهناك ناسخ آخر ليكتب عنوان المخطوط . ولقد انتشرت عادة

زخرفة المخطوطات وتزويقها كل الانتشار في اديرة اوربا في العصور الوسطى ، وكانت الزخرفة اول الامر تتجه نحو تزيين وزخرفة الحروف الكبيرة وكتابتها بالاحمر ، ثم تطور الامر الى استعمال المنمنمات في الزخرفة ، وتفنن القوم في هذه الزخرفة واستعملوا في كتابة وزخرفة المخطوطات الفاخرة الذهب والفضة . ومن امثلة المخطوطات الفاخرة ذات الالوان الارجوانية والمكتوبة بحروف من الذهب والفضة المخطوط المعروف باسم المخطوط الفضي المحفوظ الان بمكتبة جامعة أبسالا بالسويد . ويحوي المخطوط ترجمة التوراة التي قام بها الاسقف الفيلاUlfila في القرن الرابع الميلادي ثم نسخت بعد ذلك في ايطاليا في القرن السادس . ولقد اتت عادة التذهيب هذه الى اوربا من بيزنطة حيث حلى القوم هناك مخطوطاتهم بالذهب والفضة ؛ وانتقلت هذه العادة الى اوربا وظلت منتشرة فيها ، مع النفوذ البيزنطي حتى اواخر القرن الحادي عشر الميلادي حيث نرى هذا النفوذ في عدد من المخطوطات الفاخرة لتوراة شارل الاصلع وكتاب مزاميره الموجودين حالياً في المكتبة الاهلية في باريس .

كذلك لابد من ذكر مخطوط له شهرة عالية في هذا المجال ويتمثل فيه فن زخرفة الكتب والمستوى الرفيع الذي وصل اليه هذا الفن في القرن الثامن وهو مخطوط اناجيل لنديسفيرنLindisfarne Gospels وهو معتبر من اجمل المخطوطات التي ظهرت في العصور الوسطى وقد انتجه منسخ دير لنديسفيرن في شمالي انكلترا قبل سنة ٧٠٠ م وهو محفوظ الان في مكتبة المتحف البريطاني .

ولابد من القول ان المزخرف كان راهباً آخر غير الخطاط او الناسخ ، في هذا العصر . كذلك كانت جميع الزخارف اقرب الى الفن الزخرفي منها الى التصوير ، وقد تمركز اغلبها حول الحروف الكبيرة . ولاتزال الوان هذه المخطوطات زاهية حتى ايامنا هذه وكأنها رسمت حديثاً .

ولقد حصلت نهضة في اوربا في اواخر القرن الثامن واوائل القرن التاسع اوجدها وغذاها شارلمان معاصر الرشيد والمأمون . وقد وحد شارلمان في امبراطورية واحدة تحت حكمه قسماً كبيراً من اوربا الغربية وجعل مركزه فرنسا الحالية وتسمى هذه النهضة النهضة الكارولنجية . وعلى الرغم من ان شارلمان لم

يكن عالماً إلا أنه شجع العلماء وحاول تركيز الحياة العقلية حوله ،واستدعى العلماء من كل مكان فتقاطروا أليه وأشهر هؤلاء بول دياكر من ايطاليا والكيون من انكلترا . كان الكيون شخصاً مثقفاً وأهتم بالنواحي التعليمية في بلاط شارلمان وأسس اديرة ومدارس ومكتبات في أوربا الغربية وأصبح المشرف الأعلى على مكتبة القصر التي أسسها شارلمان في قصره في عاصمته آخن . وعندما أصبح الكيون اسقفاً لتور اسس هناك مكتبة شهيرة وألحق بها منسخاً . وأُسس عدد من الاديرة في أرجاء اوربا الغربية وألحق بكل منها منسخ لنسخ الكتب .

ولقد اصلح العلماء حول شارلمان الكتابة اللاتينية وابتكروا ماعرف باسم الكتابة الكارولنجية وهي كتابة صغيرة الحروف تسمى Minuscule واستمر هذا الاسلوب قروناً تكتب به المخطوطات وتأثر به اوائل الطابعين . ولقد اشرف الكيون نفسه على عملية نسخ المخطوطات في المناسخ ، ووجه عناية خاصة وانتباهاً متزايداً للتنقيط والتهجئة واسلوب الكتابة . وقد ظلت طريقته هذه تستخدم نماذج يقتفي آثارها النساخ ويحاولون تقليدها واتباعها وذلك لعدد كبير من الاجيال .

ولقد ظهر فن زخرفي جديد في حقل المخطوطات ، ذلك ان المزخرفين حاولوا مزج التأثيرات القومية المختلفة في هذا الفن مع الفن الكلاسيكي القديم فظهر الفن الزخرفي الجديد الذي هو مزيج من جميع هذه العناصر . وقد تنوعت الزخارف وتعددت من الدوائر المتشابكة والحيوانات الخرافية الى الموضوعات المأخوذة من المملكة النباتية كالازهار والبراعم ، يضاف الى ذلك رسوم تحوي زخارف اغريقية ونباتات شوكية .

ولقد انتشرت هذه المؤثرات الكارولنجية في المانيا فأسس بها عدد من الاديرة الحق بكل واحد منها مكتبة ومنسخ كدير كورفي ودير فولدا الذي يقال انه وجد في منسخه عشرة نساخين يعملون في نسخ الكتب ، ودير راثزبون . . . كذلك انتشرت هذه المؤثرات الكارولنجية في بلاد اسكاندنافيا حيث اسست اديرة كثيرة الحقت بها مكتبات مهمة ومناسخ وانتجت عدداً من المخطوطات التي تدل على هذه التأثيرات ، ولكنها لاتزال فجة غير متزنة وغير ناضجة وغير جميلة .

ولكن هذه النهضة لم تعمر طويلاً اذ لم تلبث ان زالت وتهدمت خلال القرن التاسع بسبب انقسام الامبراطورية على نفسها وبسبب الحروب الاهلية وبسبب صعف الاباطرة وهجوم الفايكينغ عليها مما ادى الى خراب ودمار قسم كبير من الاديرة ومكتباتها ومناسخها .

ولقد اختلف موقف الهيئات الديرية الرهبانية من الكتب والمكتبات ، وتأتي رهبنة البندكتيين على رأس محبي الكتب والثقافة ومشجعيها ، متبعين في ذلك تعاليم وقواعد مؤسس الرهبنة بندكت . كذلك يمكن ذكر طائفة الرهبان الكارثوزيين والسيستريينCarthusians and Cisteriansمن بين الطوائف التي شجعت الكتب والنسخ واهتمت بالثقافة بشكل عام ، على حين لم تهتم طائفة الفرنسيسكان بالكتب اول تأسيسها اطلاقاً ، ولكنها بدأت تهتم بها وتجمع الكتب ابتداءً من القرن الثالث عشر . وكحكم عام فقد اهتمت جميع هذه الطوائف بالدير واهميته مركزاً للتعلم والتثقف واعترفت باهمية المكتبة والمنسخ الملحقة به ، وذلك على درجات متفاوتة حسب العصور والاوضاع . ولقد ظلت روما مركز توزيع الكتب وذلك في اوائل العصور الوسطى ، ثم تغير الوضع بعد ذلك ونشأت مراكز جديدة وتقهقرت روما الى الخلف .

لقد كان القرنان العاشر والحادي عشر فترة مظلمة سوداء في تاريخ تطور المكتبات والادب في غربي اوربا ، باستثناء بعض البقاع المضيئة في بعض الاماكن كدير كلوني في فرنسا ودير سانت غال في سويسرا . كان هناك اهمال للاداب الكلاسيكية واغفال لها ؛ وكان هناك عدد كبير من الرهبان اميين لايفهمون ولايعرفون قيمة الكتب مما جعل الكتب تتلف ، واغلب الكتب التي نسخت كانت اعمالاً دينية ، وانخفض عدد الكتب في اوربا عما كان عليه في سنة ٩٠٠ مثلاً . ولكن جنوبي ايطاليا كان استثناءً من هذا الحكم بسبب احتكاكه المستمر ببزنطة مما جعل الاداب الاغريقية تنتعش واستمر الاهتمام بالكتب والمكتبات . ولقد تحسنت الشروط والظروف العامةفي اوربا عند اقتراب القرن الثاني عشر ، ولكن مكتبة الكاتدرائية حلت محل مجموعة الكتب الديرية في الاهمية ، وكلتاهما تقلصت اهميتها بعيد ذلك امام مكتبة الجامعة في القسم الثاني من العصور الوسطى .

الدير والمنسخ وتنظيم عملية انتاج الكتب :

اتخذت حياة الكتاب في هذه العصور مظهراً عاماً مشتركاً ، سواء كانت تلك الحياة راقية ناهضة ،كما هي الحال في المانيا وفرنسا ، ام متواضعة كما هي الحال في الأقطار الاسكندنافية .

المنسخ والنساخ :

كانت اغلب الاديرة الكبرى تحوي مكاناً خاصاً للنسخ يسمى المنسخ Scriptorum ، وكان النساخون كلهم من الرهبان والراهبات يجلسون في المنسخ الذي لاتصل اليه ضوضاء العالم الخارجي وتقيد الحياة فيه بالنظام الصارم الذي تتبعه الطائفة الرهبانية . والمنسخ اما قسم من الجناح المخصص للشؤون الدنيوية في الدير ، او غرفة مبنية فوقه وليس فيها تدفئة ولااضاءة صناعية . كانت النوافذ صغيرة وواطئة ، والاثاث بسيط وغير مريح مؤلف من دكك خشبية وحشايا قاسية . وكانت خزائن الكتب بسيطة ، وهناك حوامل للكتب توضع عليها الكتب التي ينسخ منها ، وحامل يوضع عليه المحطوط الذي ينسخ . كذلك كان يخزن بالمنسخ ما نسخ من اجل اعادة نسخه من جديد .

وكان هناك طريقتان للنسخ ؛ ففي بعض الحالات كان يجلس او يقف عدد من النساخ حول عدد من الطاولات ساعة بعد ساعة وهم ينسخون ما يمليه عليهم راهب يقرأ من مخطوط لانتاج عدد من النسخ منه . ولكن الاعم الاغلب ان ينسخ الراهب مايقرأه هو نفسه من المخطوط مباشرة بحيث لاتعمل من المخطوط سوى نسخة واحدة في الوقت نفسه . وكان الناسخ ينفق اشهراً وحتى سنة في انتاج ونسخ جزء واحد بعناية . واذا كان المخطوط يحتاج الى زخرفة ، فانه يرسل بعد الانتهاء من نسخه الى راهب فنان ليزخرفه برسوم زخرفية من اجل الحروف الكبيرة وحول حواف الصفحات ، واذا كانت هذه الزخارف باللون الاحمر فتسمى Rubrications ويسمى المزخرف Rubricator ، وكانت تستعمل الوان اخرى وخاصة الذهب والفضة في زخرفة الاعمال الاهم . وقد وصل فن زخرفة الكتب مستوى عالياً في اواخر العصور الوسطى . ولكن وجد اعمال مهمة جداً

ورائعة جداً زخرفت بشكل انيق كل الاناقة ظهرت في القرنين الثامن والتاسع مثل كتاب كلز واناجيل لنديسفيرن المذكورين آنفاً . ولقد درب بعض الرهبان على الخط الجميل وعلى الزخرفة والتزيين وهم الذين انتجوا اجمل المخطوطات التي لاتزال محفوظة في الغرب . ولقد جذب فن المخطوط الفنانين في ذلك الوقت . كذلك كان يجري ، بعض الاحيان استخدام ناسخين خاصين مدنيين من خارج الدير من اجل بعض المهمات الخاصة . وكان المعتاد اشتغال شباب الرهبان بعملية النسخ ، وان كنا نعرف سلسلة كبيرة من الاساقفة ورجال الكنيسة المتحمسين للنسخ ايضاً ، وكان ، احياناً يشترك عدد من الرهبان في اتمام مخطوط واحد يتقاسمون فصوله .

وكانت عملية النسخ تتم في المنسخ حيث الاضاءة سيئة والمقاعد غير مريحة والجو القارس السيء ، وكان الرهبان يتحملون هذا الوضع السيء ويناضلون من اجل الرؤية في هذا الجو المعتم وامامهم مخطوط يحاولون النسخ منه . لذلك لاعجب ان كتب احد الرهبان المتعبين على هامش احد المخطوطات : آه على كأس من الخمر .

كان يوضع المنسخ بعهدة راهب متعلم هو امين المكتبة واسمه اللاتينيArmarius . لقد كانت واجباته كثيرة ومتنوعة . فقد كان عليه حفظ سجل مضبوط لجميع المخطوطات الموجودة في الخزائن ، وان يحميها من الارضة والتربة والسرقة والتمزق . واذا اريد لمجموعة المخطوطات في الدير ان تنمو وتزيد وجب عندئذٍ على امين المكتبة ان يستعير مخطوطات من اديرة اخرى لنسخها ، وهذا يتطلب منه رحلة طويلة خطرة . كما كان عليه ان يخصص لكل راهب واجبه اليومي وان يحضر المواد التي تتطلبها عملية النسخ وان يوزعها على الرهبان : منها اوراق الرق للنسخ ، ومنها المماحي والحبر بنوعيه الاحمر والاسود ، ومنها الاقلام وهي غالباً من ريش البط والديك الهندي ، ومنها السكاكين للبري والكشط .

وعلى الرغم من ان الحصول على الرق ليس صعباً ، الا ان الكمية المطلوبة منه كانت كبيرة جداً . فقد كان يحتاج الى جلود اكثر من مائتي خروف لكتابة الكتاب المقدس .

ولقد كان من الامور المعروفة ان الراهب العادي لايستطيع ان ينسخ في السنة اكثر من ٤٠٠ صفحة . وكان الناسخ يعتقد انه في كل كلمة يخطها سيحط عنه ذنب وتضاف الى سجله يوم الحساب حسنة .

ولقد كان الكلام والضوضاء ممنوعين كلياً في المنسخ ، ولذا شاع بين النساخ الاتصال بالحركات والاشارات . فاذا كان الناسخ ينسخ عملاً دينياً مقدساً وثارت لديه نقطة يود الاستفسار عليها من امين المكتبة ، فانه يرسم في هذه الحالة علامة الصليب ليجذب انتباهه . واذا احتاج الى استفسار من امين المكتبة اثناء نسخه كتابات وثنية فان عليه ان يحك الناسخ خلف اذنه مثل الكلب لينبه امين المكتبة الى حاجته اليه(ذلك ان المسيحيين كانوا يدعون الوثنيين آنذاك كلاباً) .

وعندما ينتهي المخطوط يضع الناسخ في آخره رمزاً دالاً على توقيعه واسمه ، ويضيف اليه مايسمى الكولوفونColophon الذي قد يحوي شكراً لله لانجاز العمل ، او يصب اللعنات على من يحاول تمزيق او سرقة المخطوط . وكان بعض الرهبان يؤرخ الفراغ من العمل ، وهذا مايسر الباحثين المحدثين ويسهل عملهم . ومع مضي الزمن اصبح الكولوفون صفحة العنوان .

كذلك كان على امين المكتبة ان يراقب عمل النساخ ويصحح اخطاءهم . واذا كانت مهمة جميع الرهبان نسخ صفحة واحدة من مخطوط معين فقد كان امين المكتبة هو الذي يملي النص اللاتيني . كما كان امين المكتبة مسؤولاً عن حفظ النظام في المنسخ اذ كان الصمت المطلق ضرورياً اثناء عملية النسخ . وكان ينظر الى امين المكتبة على اعتبار انه بحاثة متميز .

كانت كتابة المخطوطات باليد مهمة دائمة لاتنتهي بالنسبة للنساخ الديريين . وكانوا ينسخون فقط خلال ساعات النهار المضيئة بمعدل ست ساعات في اليوم . وكان النسخ عملاً شاقاً ، فقد كتب احد الرهبان على هامش مخطوط كان ينسخه(ان النسخ عملية منهكة ، فهي تقوس ظهرك وتقصر بصرك وتؤلم

معدتك وجانبيك) . يضاف الى ذلك عبء اللغة اللاتينية التي لم تكن مألوفة لدى البعض .

ولقد كان الحصول على نسخ من مؤلفات مؤلفين ليسوا احياء يتم باستعارة نسخة معتمدة من مكتبة كبرى واعطائها لاحد الناشرين المعتبرين لكي ينسخها لطالبها بشكل جيد معتبر منقح مصحح . كما وان الحصول على نسخ من اعمال المؤلفين الاحياء كان يواجه بعض الصعوبات على الرغم من ان الناشرين كانوا يفضلون هذا النوع من النشر ولاسيما اذا كان يبشر ببيع كبير . ولم يكن هناك احترام لحق التأليف .

كانت مجموعة الكتب في مكتبات الاديرة والكاتدرائيات قليلة تمثل اعداداً معدودة من المخطوطات لاتتجاوز الثلاثمائة الا نادراً ، واغلبها ذو طابع ديني تعليمي وموضوعة في صندوق او صندوقين مقفلين .

هذا وان مصادر الكتب التي كانت تزود بها مكتبات الاديرة في العصور الوسيطة كانت بالدرجة الاولى ما ينسخه الرهبان انفسهم ، بالاضافة الى ما كان يصل الى تلك المكتبات من هدايا النبلاء والاغنياء والملوك والاباطرة والاساقفة والقسس ممن كانت تخلد ذكراهم من اجل مثل هذه الهدايا في سجل الاهداء المعد خصيصاً لهذا الامر في هذه المكتبات . كما كان يدعى لهم بعد الصلوات .

وقد شوهد هنا وهناك في اواخر العصر المبحوث دلائل تشير الى وجود دعم مباشر لعملية تزويد المكتبة الديرية بالكتب والخدمة المكتبية . فقد كان من المحتمل ان يوقف دير من الاديرة مكتبته مع قسم من المحصول السنوي الذي يرد الى الدير على الخدمة المكتبية وتغذية المكتبة بالمخطوطات . او يتبع المثل الذي فرضه رئيس دير فلوري Fleury الذي فرض ضريبة المكتبة على موظفي ديره ومموليه . كذلك كان بامكان كنيسة ما ان تمنح منسخها نسبة من العشر الذي تحصله . وقد استطاع دير سان فيكتور الذي تأسس في باريس قبل سنة ١١٠٠ م ان يؤسس ويطور مكتبته بشكل استثنائي استناداً الى منح قدمتها له الاسرة المالكة الفرنسية . ولقد كان من الواجب مساعدة الكنائس والاديرة التي تعرضت في القرنين التاسع والعاشر لهجمات النورمنديين والفايكينغ والمجر واتلف قسم كبير

من كتبها ودمرت مناسخها وكانت بحاجة ملحة الى المساعدةحتى تعوض مااتلف ودمر واحرق من كتبها . واتبعت عدة طرق لاغناء مكتبات هذه الكنائس وهذه الاديرة بالمخطوطات ؛ منها المثال الذي وضعه رئيس دير كورفي وهو أن على كل مرشح للترفيع إلى درجة أعلى أن يقدم إلى المكتبة هدية هي عبارة عن مخطوط من الرق ، وكان ذلك أواخر القرن الحادي عشر .

كذلك كان هناك تبادل للكتب بين الكنائس والاديرة وبيع وشراء ، نستدل على ذلك مما ذكره ريجينبرت Reginbert الالماني في فهرسه الذي وضعه لمكتبة دير رايخناو Reichnau الالمانية من ان بعض رجال الكنيسة كانوا يبيعون كتب القداس .

طبيعة الكتب التي كانت تنسخ في الاديرة :

كانت التوراة اكثر الكتب التي نسخت ، وقد نسخت مرات ومرات كثيرة جداً حتى حفظها النساخ عن ظهر قلب . وكانت التوراة التي قام بنقلها القديس جيروم من اليونانية الى اللاتينية هي المصدر الرئيسي . وكانت المزامير واجباً محبباً الى الرهبان يقومون بنسخه ، فقد كانوا يستمتعون بنسخ هذا الشعر الجميل الذي يجعلهم يتخلصون ، ولو لفترة قصيرة ، من رتابة النسخ المملة .

وكانت كتب الخدمة والصلوات تنسخ بكميات كبيرة ويعاد نسخها باستمرار ، كذلك كانت تنسخ بكثرة كتب الترانيم والاحتفالات وشروح آباء الكنيسة وتعليقاتهم وسير وحيوات القديسين .

ولقد نسخ كتاب الساعات واعيد نسخه كثيراً ، وتمتاز مخطوطاته بتزييناتها والوانها الزاهية . وقد يحصل للمرء انطباع ان النساخ كانوا ينسخون فقط كتباً دينية . وهذا صحيح اول الامر . ولكن مع مضي الزمن احتاج الباحثون الى كتب اخرى غير دينية مثل كتب نحو اللغة اللاتينية المسمى دوناتس الذي اشتد عليه الطلب . كما ونسخت بعض الكتب العلمانية كان القوم بحاجة اليها وذلك للقيام بدراسة موازنة بينها وبين التعاليم المسيحية .

فن التجليد :

لقد وصل فن التجليد الذي كان يتم في الاديرة الى قريب من الكمال . فقد كانت المخطوطات ترسل ، بعد الفراغ من نسخها ، الى احد الرهبان واسمه المجلدLigator وهو مختص بتجليد المخطوطات . على ان اقدم انواع التجليد كانت تختلف اختلافاً كبيراً عما نفهمه من معنى هذه الكلمة في وقتنا الحاضر ؛ اذ كان التجليد اقرب الى ميدان صياغة الذهب والنحت على العاج منه الى التجليد العادي المعروف .

ففي اوائل العصور الوسيطة استخدم المجلدون الواح الشمع التي استخدمها الرومان سابقاً في تدوين ملاحظات قصيرة عليها ، والتي تطورت بعد ذلك فاصبحت تصنع من العاج ، وذلك في تجليد بعض مخطوطات الكنيسة .

كذلك استخدم المجلدون التجليد على طريقة صياغة الذهب وذلك بتزيين الواح خشبية بصفائح رقيقة من الذهب او العاج المنحوت او الفضة ومطعمة في نفس الوقت بالاحجار الكريمة واللآلىء . وقد صنعت هذه التجليدات خاصة للكتب الدينية التي كانت تستعمل وقت الصلاة . اما النقوش البارزة فغالباً ماكانت مستعارة من الصور المرسومة داخل المخطوط نفسه ، او تمثل حكايات من قصص التوراة او الانجيل . . .

ولقد تعددت التجليدات وانواعها على طريقة صياغة الذهب : فهناك التجليدات البيزنطية ذات الميناء المميزة لها ، وهناك التجليدات الارلندية ذات النقوش الفضية والبرونزية لصور الحيوانات الخرافية . وهناك تجليدات كارولنجية جلدت بالعاج وتحمل الطابع الكارولنجي الذي يمتاز بنقوش اوراق الشجر .

وهناك تجليدات مصنوعة من الجلد ، وقد استخدم الجلد لتجليد المخطوطات العادية واستمر في الاستعمال حتى اصبحت له الصدارة في اواخر العصور الوسطى وبرز التجليد على طريقة صياغة الذهب ، وكانت تستعمل فيه جلود العجول او البقر ، وكان لونه بنياً قاتماً محلى بزخارف منوعة الشكل . كذلك استخدم المجلدون طريقة الحفر على الجلد من اجل التجليد . وطريقة ذلك ان

يرطب الجلد بالماء ثم يرسم انموذج عليه ، وبعد ذلك يحفر بسكين ويوسع ، او ينقش بآلة غير حادة ، ثم يفرغ باقي الجلد المحيط بالصور حتى يبدو الزخرف بارزاً بالنسبة الى باقي المساحة الجلدية ، وقد ازدهر هذا الفن اكثر مايكون في المانيا .

كذلك شاعت طريقة اسمها الطبع البارد . فقد شاعت التجليدات المطبوعة على البارد اكثر مما شاعت التجليدات المصنوعة من الجلد المحفور ، وهي لاتتطلب من البراعة مايتطلبه الحفر على الجلد . وكانت الادوات التي يحفر بها الجلد ساخنة بحيث يظهر الزخرف بارزاً . ولما كانت هذه الطريقة لاتشمل اي تذهيب فقد عرفت باسم الطبع على البارد ، وكانت تضم سلسلة من الاطارات المتشابكة والمكونة من اشكال صغيرة مربعة او مثلثة او مستديرة او شكل قلب . وكانت الزوايا تزود بنتوءات نحاسية مثبتة بمسامير ، كما كان الكتاب يحكم اغلاقه باقفال معدنية . ولايجب ، طبعاً ، ان نتصور ان التجليدات التي صنعت في الاديرة كانت كلها مزخرفة بنفس المستوى الفني الرفيع الذي ذكرناه آنفاً ، فكثير منها كان بسيطاً كل البساطة ولم يكن لدى الرهبان المجلدين ذلك الروح الفني الرفيع . ومع ذلك وجد بينهم بعضٌ كانت لديهم روح فنية وقدرة يدوية تدعو الى الاعجاب .

ووجد انواع اخرى من التجليدات في العصور الوسطى ، ولعل اهمها تلك التي استخدم القماش في تجليدها وزخرفتها .

ولقد كانت الكتب غالية الثمن جداً في القرون الوسطى وتعتبر ترفاً لايحصل عليه الا علية القوم . فقد قدر ان ثمن متوسط الجزء من اي كتاب في القرن الثاني عشر ماقيمته بعملة اليوم مايساوي ٢٠٠ دولاراً امركياً . ولقد كان ثمن كتاب واحد من كتب الاحتفالات الدينية في القرن العاشر ٢٠٠ خروف وثلاث حزم من المحصول . بينما كان ثمن نسخة كاملة من الكتاب المقدس بيتاً وساحة امامه . ويجب ان نلاحظ ان هذه الاثمان التي مر ذكرها هي ، على الغالب ، اثمان كتب مزخرفة بشكل فني جيد ومجلدة تجليداً أنيقاً . ولكن تبقى الحقيقة وهي ان ثمن اي كتاب كان مرتفعاً . كذلك كانت درجة دقة محتويات المخطوط في تلك

العصور من العناصر الاساسية في ثمنه . فكتاب نسخ بشكل دقيق وقوبل على عدد كبير من النسخ او عرف ان ناسخه باحث دقيق مشهور ومعروف بدقته في النسخ ثمنه ولاشك اعلى بكثير من غيره حيث يمكن استخدام هذا المخطوط كمصدر اساسي موثوق ويمكن ان ينسخ عنه عدد كبير من النسخ ، وفي تاريخ الكتب في اوربا الغربية يجب ان يخصص مكان الصدارة للرهبان ومناسخهم الذين نسخوا واشتغلوا في المناسخ ، وعلى الرغم من ان عملهم لايوازن بما عليه عملية انتاج الكتب في القرن العشرين مثلاً ، الا انهم ، في نسخهم وحفظهم الادب المكتوب وتوسعتهم دائرته ، اوجدوا جسراً من العصور القديمة المظلمة الى العصور الحديثة والحضارة الحديثة .

٣ـ الكتاب والكتابة في اوربا الغربية في اواخر العصور الوسطى حتى حوالي سنة ١٥٠٠ م :

شهدت القرون المتأخرة من العصور الوسطى نهضة بدأت في اوربا أثارها احتكاك الاوربيين بالمسلمين في الحروب الصليبية (في بلاد الشام ومصر) وفي الاندلس ، فشاهدنا في هذه الفترة ولادة الجامعات الاوربية وبدء دخول الورق الى اوربا واستعماله فيها ، كما شاهد هذا العصر ازدهار المدن التجاري وتمركز الحياة في هذه المدن وظهور طبقة وسطى غنية بدأت تنافس الملوك والحكام والاقطاعيين ، كما شاهدت هذه الفترة ظهور الدول الوطنية في اوربا كفرنسا وانكلترا ، وشاهدت هذه القرون عدة محاولات لاصلاح الكنيسة وعدة ثورات ضدها ، وانتهت هذه العصور عند حدوث تغييرات جذرية في المجتمع الاوربي : ذلك ان الطباعة اخترعت في اواخر هذه العصور فاحدثت انقلاباً فكرياً هائلاً ، وانحطت الحياة الديرية وفسدت الكنيسة مما أدى إلى قيام لوثر في المانيا ضد الكنيسة الكاثوليكية وقاد هذا إلى الاصلاح الديني المعاكس . وولدت في نهاية هذا العصر الدول الوطنية الكبرى في غربي اوربا كفرنسا واسبانيا وانكلترا وهولندا ؛ ووجد حكام متنورون شجعوا الاداب والفنون والعلوم واذاعوها وخاصة في ايطاليا

وفرنسا وانكلترا ، وولد الفكر العلمي لاول مرة في غربي اوربا واحييت الاداب الكلاسيكية ودرست في ارجاء اوربا مما ادى الى ولادة عصر النهضة في اوربا كلها وقاد ذلك ايضاً الى زوال عقلية القرون الوسطى والى افتتاح العصور الحديثة بما تحمل من مميزات وبما تحفل به من مساوىء . ولقد اثر هذا التطور الهائل على الكتب والمكتبات في اوربا ابان هذه الفترة بشكل ملموس وواضح كل الوضوح .

ولقد ازدهرت في هذا العصر الكاتدرائيات ومكتباتها ، والكاتدرائية كانت مركزاً لادارة ومراقبة عدد من الكنائس الصغيرة تابعة لها . وكانت تحوي اغلب الكاتدرائيات مكتبات مهمة لانها كانت مركزاً تعليمياً للرهبان . وكانت الكاتدرائيات توجد في المدن المهمة ولذلك كانت مكتباتها ميسورة للطلاب اكثر من الاديرة . ولقد اصبحت مكتبة الكاتدرائية مع مرور الزمن اهم واكبر واكثر تنظيماً من مكتبة الدير . وكان يوجد في الكاتدرائيات المهمة ثلاث مجموعات من الكتب : الاولى المجموعة الرئيسية وتحوي هذه اغلب الكتب الدينية ، وكتب الخدمة ، والمكتبة الملحقة بمدرسة الكاتدرائية وتحوي هذه اغلب الكتب العلمانية الموجودة في مكتبة الكاتدرائية .

كانت محتويات هذه المكتبات دينية في الاعم الاغلب . وعندما زاد عدد الكتب في المكتبات الدينية بعد القرن الثاني عشر بقي الاهتمام بالدين غالباً ، ولكن زاد عدد الكتب الكلاسيكية كماً وكيفاً ، وكذلك زاد عدد الكتب الدنيوية ومؤلفات رجال القرون الوسطى وحتى وجد في كثير من المكتبات كتب علمية وشعراء وادب وتمثيليات لكتاب محدثين . وكانت اغلب الكتب مكتوبة على رقوق وجلود في هيئة الكتاب الكراس .

كذلك تغيرت الشروط الفيزيائية للمكتبات في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . فقد زاد عدد الكتب في اغلب المكتبات الكاتدرائية من بضع مئات الى بضعة الاف وزالت صناديق الكتب لتحل محلها خزائن الكتب ومن ثم غرف صغيرة خاصة بالكتب . ولقد رتبت الكتب في هذه الغرف الضيقة الطويلة على ارفف الخزائن بشكل يسمح لها ان تتعرض لاكبر كمية من النور . ولقد سلسلت الكتب المصدرية والكتب المرجعية والكتب المهمة الممنوع اعارتها اعارة خارجية

بالسلاسل . وكانت السلسلة مثبتة من ناحية بالحافة العليا او السفلى لغلاف الكتاب ، كما كانت تثبت من الناحية الثانية لها بقضيب حديدي مثبت في اعلى خزانة الكتب . وفيما عدا ذلك ، كان يوجد في هذه المكتبات جزء مباح للتداول كانت توضع به المجلدات والكتب لاعارتها للرهبان . وكانت الكتب توضع على الارفف بحيث يكون ظهرها الى الحائط ، وكان عنوان الكتاب يدون بالحبر على قطعة صغيرة من الجلد تثبت على ظاهر الغلاف الخارجي او على الحافة العليا حتى يمكن رؤيته .

ولقد وجد عدد من الانظمة الرهبانية اهتمت بالدير ومكتبته ومنسخه وكان البندكتيون اكثر من ابدى نشاطاً في هذا المجال . واقدم مكتباتهم الديرية في القرن الثاني عشر هي مكتبة مونت كاسينوMont Cassinoفي ايطاليا ، وازدهر في فرنسا دير القديس بندكت المقام على نهر اللوار والذي كان موضوعاً تحت اشراف الرهبان الكلونيين .

اما دير فلوري Fleury ومكتبته فنحن مدينون بوثيقة حفظت لنا هي عبارة عن امر اصدره رئيس الدير ماركاريوس في سنة ١١٤٦ م يفرض بموجبه ضريبة سنوية قدرها مائتان وثمانون ديناراً ذهبياً يدفعها اعضاء الدير والجهات التابعة له وتخصص للمحافظة على المكتبة وتغذيتها بالكتب ، وظلت هذه اللائحة سارية المفعول ختى سنة ١٥٦٢ م .

ولكن نظام الرهبنات بدأ في الاضمحلال في اوربا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وركن الرهبان انفسهم الى الكسل والراحة وعاش كثير منهم عيشة مترفة ، كما اهملوا الثقافة والتعلم والاطلاع التي هي اخص واجباتهم فانتشرت الامية بينهم ، وادى ذلك بالتالي الى اهمال المناسخ والمكتبات والكتب في الاديرة . فقد ادى جهل الرهبان واهمالهم الى ان انخفض عدد الكتب في مكتبة دير سان امرمام بمدينة راتزبون الى النصف وذلك في اواسط القرن الرابع عشر عما كانت عليه في القرن العاشر ، كما هبط مستوى دير موورباخ الى الغاية في القرن الثالث عشر حتى ان رهبانه لم يعودوا يعرفون الكتابة نفسها .

ولكن من حسن حظ الانسانية فان نهاية مكتبات الاديرة وتدمير محتوياتها حدث بعيد اختراع الطباعة ،ولذلك يمكن القول ان القسم الاعظم من محتويات هذه المكتبات المهمة كان قد تم طبعه سابقاً ، ومافقد من هذا القسم الاكثر اهمية يعتبر قليلاً للغاية .

ولقد نشأ ونما في القسم الاخير من العصور الوسطى الجامعات ، وظهور الجامعات نتيجة حتمية من نتائج الاحتكاك المتصل المتواصل بين المسلمين والاوربيين وبشكل خاص في الاندلس ، وكذلك هو نتيجة من نتائج نهوض المدن وتمركز الحياة فيها وظهور طبقة غنية متوسطة اغتنت من الاشتغال بالتجارة . ولقد شعر القوم بحاجة الى شيء من البحث والدرس والى الخروج من دائرة التعليم الديري والكنسي ، وكانت الجامعات ومكتباتها هي الاماكن التي جرى بها شيء من البحث والدرس في تلك العصور المظلمة .

ولعل فكرة انشاء الجامعات اتت الى الغرب اثر احتكاك الاوربيين بالمسلمين في الاندلس حيث كان التعليم الجامعي هناك في اوجه . وقد وجدت اولى الجامعات الاوربية في ايطاليا ثم انتقلت الى فرنسا ثم الى انكلترا وسائر ارجاء اوربا الغربية ،ولم تطل سنة ١٣٠٠م حتى أصبح عدد الجامعات الاوربية المعترف بها حوالي ست عشرة جامعة .

لم يكن لهذه الجامعات مكتبات اطلاقاً لفترة طويلة من الزمن ، وانما كان بعض الاساتذة يمتلك لنفسه مجموعة صغيرة من الكتب ، وكان الطلاب ينسخون المحاضرات او يستأجرون من ينسخها لهم ، ولذلك كثر بائعو الكتب حول الجامعات واحتشدوا حولها وخصوصاً الشهيرة منها مثل بادوا وباريس وبولونيا واكسفورد ، وازدهرت تجارة الكتب ـ بيعاً ونسخاً وتأجيراًـ واسس تجار الكتب نقابات كبرى لهم . كانت الكتب المدرسية الجامعية ينسخها الكتاب وتؤجر للطلاب بالصفحة . كانت الكتب غالية الثمن . ففي فرنسا كان ثمن صفحة واحدة من كتاب يساوي كمية لابأس بها من القمح .

ولقد اثرت اوائل الجامعات مكتباتها عن طريق الهبات والمنح ، على حين اثرت مكتبات الاديرة محتوياتها عن طريق النسخ . وهناك اخبار كثيرة عن ملوك

وحكام وامراء واساقفة وتجار منحوا كتبهم الى مكتبات الجامعات . كما كان كثير من الملوك والحكام يوقفون الاوقاف الدارّة على الجامعات لشراء كتب او لدفع رواتب من يقومون بخدمة المكتبة . ومع ذلك ظلت اعداد الكتب في المكتبات الجامعية قليلة ـ بضعة مئات من الكتب ـ ولم ترتفع الارقام الى الالوف الا بعد اختراع الطباعة وانتشار الكتب المطبوعة .

كذلك شابهت الظروف الفيزيائية للمكتبات الجامعية مثيلاتها في مكتبات الاديرة . فقد كانت الكتب توضع في الصناديق في كلا النوعين من المكتبات ، ولكن هذه الكتب اخرجت بعد القرن الثالث عشر من الصناديق ووضعت على الخزائن ذات الرفوف الشبيهة بالطاولات اغلبها مسلسل ، ولكن السلسلة طويلة تسمح بنقل الكتاب الى طاولة منخفضة لاستعماله . كذلك كانت الكتب كلها مكتوبة على الرق وبشكل الكتاب الكراس .

ازدهار متاجر الكتب :

هيأ انشاء الجامعات وازدحام المدن الرئيسية بالطلاب فرصة لقيام تجارة نشطة في الكتب لم يكن من الممكن ان تحدث في العصر الوسيط لولا هذه الجامعات .

والواقع ان نقابة بأسرها من ذوي الامتيازات المشتغلين بصناعة الكتاب قد ارتبطت بالجامعات ، نذكر منهم طبقة النساخ والمزخرفين وصناع الرق والمجلدين ، ثم تجار الكتب انفسهم الذين كانوا يدعون باللاتينية باسمStationari . ومن هنا اتت الكلمة الانكليزيةStationer والتي تطلق حتى الآن على تاجر المكتب او بائع الكتب والورق والدفاتر وماشابه ، وكلمةStationary تدل على مكان بيع هذه المواد . ولقد راقبت الجامعات تجار الكتب وصناعها مراقبة دقيقة وكان الجميع خاضعين لنظام صارم ودقيق . وقد تعهد تجار الكتب مثلاً ان يزودوا متاجرهم بالطبعات الصحيحة من الكتب التعليمية والترجمات الدقيقة من لغة الى لغة . وكانت تفرض غرامات باهظة على مخالفي التعليمات . وكانت هذه الكتب تعار الى الطلاب لقاء رسم محدد ليقوموا هم بانفسهم بنسخها .

ولم يكن لتجار الكتب حق بيع الكتب الا بالعمولة ، ولم تكن ارباحهم منها تزيد على نسبة مئوية معينة . وعلى الرغم من ان نشاط هذه التجارة كان لايزال محدوداً ومقيداً في ذلك الوقت ، الا انه كان نشاطاً مربحاً اذا حكمنا بعدد المتاجر التي انشئت الى جوار الجامعات الجديدة وخاصة جامعة باريس .

ومع هذا فقد كان الشخص الواحد ، لكي يزيد دخله ، يعمل خطاطاً وناسخاً وتاجر كتب في نفس الوقت ، او ان يشتغل مجلداً وتاجر كتب ايضاً وهكذا .

ولدينا لوائح خاصة بمتاجر الكتب ترجع الى عام ١٢٥٩ في مدينة بولونيا ، ولدينا لوائح خاصة بمتاجر الكتب في باريس تاريخها على التوالي ١٢٧٥ م و ١٣٢٣ م . ولقد اصدرت جامعة باريس سنة ١٣٤٢ م لائحة اشد صرامة . وكان تجار الكتب في باريس يشتركون بعلم شفيعهم سان جان بورت لاتين في المواكب مع سائر طوائف الهيئة الجامعية الاخرى ، مما يدل على التقدير الذي كان يلقاه تجار الكتب آنذاك .

ولقد حوت لوائح الجامعات الالمانية نصوصاً خاصة بدور الكتب التجارية والمتاجر ، وان بدا عدم قيامها بدور هام يماثل الدور الذي قامت به نظائرها في كل من فرنسا وايطاليا . ويبدو ان ذلك راجع الى حد ما ، الى ان طلابها كانوا غالباً مايكتبون كتبهم التعليمية بانفسهم ، اذ يمليها عليهم اساتذتهم ، كما هو الحال في جامعات فينا وبراغ .

ولقد انتشرت صناعة الكتب وتجارتها في عدد من المدن المهمة واصبحت العناوين الجديدة معروفة بسرعة في اماكن بعيدة عن مكان نسخ العمل الاصلي . ففي باريس على الاقل ، كان بامكان المرء ان يشتري الكتب من الشارع . وكان هناك نسخ معدة للايجار يستأجرها الطلاب غير القادرين على دفع ثمن الكتب . ولابد انه حدث في اوائل القرن الثالث عشر ضغط كبير على مكتبات الجامعات حتى تغير طريقتها في اعارة الكتب وان تعيرها للطلاب الفقراء المتزايدين . فقد اوصى المجلس البلدي في باريس سنة ١٢١٢ م بالغاء اللعنات التي تصب على الاشخاص الذين يخرجون الكتب من مكتبة دير او كنيسة . واصبحت اعارة

الكتب الى الطلاب الفقراء من اعمال الخير الاساسية .

ولقد استيقظ الاهتمام بالكتب والتراث الكلاسيكي في ايطاليا على اسس جديدة هو مايسمى بالحركة الانسانية ، وهي بداية عصر النهضة التي ترافقت مع نهاية العصور الوسيطة . فقد امتازت هذه النهضة بمحاولة احياء التراث الكلاسيكي ومحاولة درسه وفهمه . ولقد كان الرهبان يدرسون القدماء في المعابد ، ولكن دراستهم هذه كانت مجرد وسيلة لتعلم اللغات القديمة ، اي انها كانت شيئاً ثانوياً وعاملاً مساعداً ، على حين كان الانسانيون يدرسون هذه المؤلفات باعتبارها غاية في حد ذاتها ، وذلك للافادة من فنها وفلسفتها ونظرتها للحياة .

وقد اثارت هذه الحركة اهتماماً بالغاً وحماساً منقطع النظير بين المثقفين وتعصب لها كثير من المؤلفين وجدوا في البحث والدرس والاستطلاع والرجوع الى مصادر المؤلفين القدماء الاصلية واهملوا الترجمات السطحية والتعليقات والشروح المختلفة . ولذا وجب الاعتراف بفضل هؤلاء الذين احيوا المؤلفات الكلاسيكية واهتموا بها لانهم اسلموها للاجيال القادمة سليمة حية متطورة .

هذا وان اول من حمل لواء احياء التراث الكلاسيكي في اوربا كلها ، وبالتالي في ايطاليا نفسها المؤلف الايطالي المشهور والشاعر المعروف فرانسوا بترارك ١٣٠٤ ـ ١٣٧٤ م . وهو يسمى باسم (أبي الحركة الانسانية) و (اول انسان حديث) . ولقب بحق ب (أبي هواية الكتب الحديثة) . ولكن حبه للكتب واعجابنا به يجب الا ينسينا عالمين آخرين سبقاه في الزمن ودافعا عن الكتب دفاعاً حاراً مما كان له ، تأثير على بترارك وجعله ينحو هذا المنحى . احد هذين الشخصين هو ريشارد دو فورنيفالRichard de Fournival مستشار مدينة اميان في فرنسا وقد الف كتابهBiblionomia في القرن الثالث عشر . وقد استعمل الخيال من اجل وصف الكتاب ووصف الكتاب انه(حديقة الادب) حيث صفت في هذه الحديقة عدة مناضد غطيت بمخطوطات في مختلف الموضوعات ، وعلى الرغم من ان الموضوع المحبب له والاكثر وجوداً في بستانه هو الفلسفة ، الا انه وجد في هذا البستان عدد كبير من الكتب في الطب والقانون والالهيات . وقد بدت له باريس حديقة غناء لغناها بالكتب والمخطوطات .

اما الشخص الثاني والاكثر اهمية في هذا المضمار فهو ريشارد دو بيريRichard de Bury الاسقف الانكليزي الذي عاش بين سنتي ١٢٨٧ و ١٣٤٥ م . كانت ثورة هذا الاسقف على اضمحلال الثقافة الفكرية وعدم احترام الكتب اقوى من ثورة غيره . كان هذا الاسقف ذا حظوة كبيرة لدى الملك ادوار الثالث ملك انكلترا آنذاك حتى صار معلمه الخاص ، كما بلغ اعلى المناصب في الكنيسة وفي الدولة ايضاً الى ان اصبح رئيس الديوان الخاص واسقف مدينة دورهامDurham . كما وخدم ادوار الثالث سفيراً في روما . وبوصفه اسقفاً تلقى من الاديرة الانكليزية كثيراً من المخطوطات ، واضاف الكثير من الكتب الى مجموعة كتبه حتى جمع مجموعة ضخمة ملأت بيته بالكتب على رحبه ، ولم يعرف مصير كتبه ومات بدون عقب وسرق خدامه جميع ممتلكاته . اولع هذا الاسقف منذ صغره بالكتب وقد هيأت رحلاته الدبلوماسية باوربا فرصاً شتى لارضاء هواياته في جمع الكتب .

خلد هذا الاسقف اسمه بكتاب الفه وهو في سن النضج عنوانهPhilobiblion او صديق الكتاب . وقد ظهر الكتاب اول ما ظهر سنة ١٤٧٣ م ثم اعيد نشره عدة مرات ، واخيراً نقل الى الالمانية سنة ١٩١٢ م مما يثبت حيوية هذا الكتاب القديم واهميته . كان دوبيري محباً للكتب احاط نفسه بالكتاب والمجلدين والمزخرفين ، وكان ينصح الرهبان ان يفتحوا خزائن كتبهم وينفضوا الغبار عنها ويطردوا الفئران منها ، وكان يطلب الى النساخ ان ينسخوا له الكتب التي لم يتمكن من شرائها . وقد عبر الاسقف عن حبه للكتب باسلوب قوي شائق ، ولهذا اتى كتابه هذا نشيداً في مدح الكتاب والدفاع عنه ، فضلاً عن لومه الساخر لمن لايجلون الكتب . يضاف الى ذلك ماقصه المؤلف عن كيفية جمعه كتبه . وهو بهذا يعطينا لمحة في هواية الكتب . وقد اقام في بعض فصول كتابه من الكتب ممثلاً للاتهام ضد (طائفة الرهبان المنحلة) حسب تعبيره ، وان خص باللوم تلاميذ المدارس الديرية بالذات قائلاً :(قد يحدث ان تشاهد احد هؤلاء الشباب ـ المغترين بانفسهم ـ منحنياً فوق الكتاب الذي يدرسه ، وبرد الشتاء القارس قد أسال أنفه دون ان يفكر في التمخط قبل ابتلال الكتاب الموضوع امامه

بما يسيل عليه من افرازات انفه باستمرار . . . كان اولى به ان يضع امامه مائدة اسكافي يعمل عليها بدلاً من الكتاب ؛ واظافره سوداء كالقطران مليئة بالاوساخ العفنة . وكان التلميذ الراهب يضع بهذه الاظافر علامات على الفقرات التي تعجبه من الكتاب ، حتى لتجده يزرع في كتابه بعض عيدان القش كي تذكره بما لايمكنه ان يذكره هو نفسه . ونظراً لعدم احتواء الكتاب على معدة تمكنه من هضم هذا القش ، فضلاً عن عدم وجود من يزيله كان الكتاب يتورم وينتفخ الى حد يستحيل معه اعادة اغلاقه ، حتى يؤول امره في النهاية الى نسيانه وتعفنه . ولم يكن يهم الانسان ان يأكل جبناً او فاكهة على الكتاب المفتوح ، اوان يحمل فوقه الكوب الى شفتيه ، ومالم يكن لديه مخلاة تحت يده فانه كان يترك بقايا طعامه تتساقط على كتابه) .

هذه هي الصورة القاتمة لحال الكتب في القرن الرابع عشر في اديرة انكلترا . وعلى الرغم من ان من المحتمل ان يكون حب هذا الاسقف للكتاب دفعه لبعض المبالغة في وضعه ، الا ان الصورة كانت في مجملها صحيحة الى حد كبير .

احب بترارك الكتب منذ نعومة اظفاره وتحمس لها الى درجة انه اشترى ونسخ خلال رحلاته العديدة كل ما وقع تحت يده من كتب . وكان قصده فعلاً من رحلاته في بلجيكا والاراضي الواطئة منذ سنة ١٣٢٩ م هو دراسة الكتب حيث كان له حظ العثور مراراً على نصوص كانت لم تزل مجهولة حتى ذلك العهد ، منها رسائل شيشرون الروماني الموجهة الى اتيكوس . كما ارسل له اصدقاؤه بفرنسا والمانيا وانكلترا كتباً كثيرة .

ولقد ازدهرت حركة جلبت المخطوطات من الشرق في مطلع القرن الخامس عشر فما بعد واعتاد قباطنة سفن البندقية وجنوى وفلورنسا أن يشحنوا سفنهم العائدة من موانىء الشرق بمخطوطات اشتروها هناك ليبيعوها في ايطاليا واعتبروها تجارة رابحة . فقد عاد غارينو من فيرونا من رحلة بحرية الى الشرق سنة ١٤٠٨ م وهو يحمل معه خمسين مخطوطاً يونانياً تمكن من بيعها فوراً . كما وأن جامع الكتب الصقلي جيوفاني اوريسبا احضر من الشرق أكثر من مائتي مخطوط

يوناني وذلك في سنة واحدة هي سنة ١٤٣٣ م ووجد بينها نسخ من كتب يوريبيديس وسفوكليس وتوكوديديس . كذلك اشترى فرانسيسكو فيليلغو من القسطنطينية سنة ١٤٢٠ م حوالي أربعين مخطوطاً يونانياً ، وكثير منها كان مجهولاً كل الجهل في الغرب الاوربي . كما وأن عدداً من التجار والبحارة والباحثين احضروا كتباً مؤلفة من اللغة العبرانية وجدوا من يشتريها منهم فوراً .

ومما يجدر الاشارة اليه أن القسم الأكبر من عملية الجمع هذه تمت على يد أفراد لا على يد الكنائس أو الجامعات أو المؤسسات الحكومية . وقد كان كثير منهم تجاراً أو اشخاصاً عاديين ، ولكن القسم الأكبر من جامعي المخطوطات هم امراء ايطاليا وحكامها ووكلاؤهم . ولقد وجد اشخاص تخصصوا في فن اكتشاف المخطوطات والحصول عليها وجمعها ثم بيعها بعد ذلك . فقد حصل جانوس لاسكاريس (١٤٥٠ ـ ١٥٣٥) على عدد كبير من المخطوطات من الشرق وذلك لحساب ملك فرنسا لويس الثاني عشر أولاً ، ومن ثم لحساب اسرة مديتشي في ايطاليا . ولقد اتى كثير من هذه المخطوطات من أديرة بلاد اليونان كدير آتوس وغيره من الأديرة الشهيرة في البر اليوناني والجزر اليونانية . كذلك اشتهر بوجيو براكشيوليني (١٣٨٠ ـ ١٤٥٩ م) انه جامع كتب ومخطوطات لحسابه الخاص . وقد عرف انه اكتشف عدداً من المخطوطات المجهولة في اوربا وفي اديرتها . وهو شهير في انه اكتشف بعض المؤلفات الضائعة لكل من لوكريشيوسي وكينتيليانQuintilian ولعل اسرة مديتشي التي حكمت في ايطاليا ابان القرن الخامس عشر كانت اكثر الاسر تشجيعاً للفن والادب والمكتبات . فقد تركزت الحياة الادبية والفنية في ايطاليا خلال تلك الفترة في البندقية وفلورنسا . وكان لفلورنسا خاصة ـ مركز اسرة آل مديتشي ومقر حكمها ـ فضل كبير في نجاح حركة النهضة الحديثة ، وهذا لايعني أن بقية الحكام والامراء لم يشجعوا الاداب والكتب والمكتبات ، بل العكس فقد شاهد العصر نشاطاً واسعاً في هذا المضمار . ولكن كان لآل مديتشي فضل السبق ، فقد استأجر كوزيمو دي مديتشي (١٣٨٩ ـ ١٤٦٤ م) فاسباسيانو ليجمع له الكتب ، وقد استخدم فاسباسيانو هذا خمسة واربعين نساخاً ظلوا ينسخون له الكتب طيلة اثنين وعشرين شهراً وانتجوا حوالي

٢٠٠ مخطوط ، كلها مزخرفة ومجلدة تجليداً أنيقاً ، وكان ذلك لحساب كوزيمو ومكتبته الشهيرة .

ولقد نشأت في اوربا خلال القرن الخامس عشر بخاصة ، حركة ضخمة تهدف للكشف عن المخطوطات المدفونة في الاديرة أو الموجودة في بلاد اليونان والقسطنطينية . وقد هيأ عقد المجامع المقدسة بمدينتي كونستانس وبازل (في سويسرا) فرصة نادرة لمن اشتركوا فيها لزيارة مكتبات الاديرة المجاورة وكان اشدهم حماساً كاتب السر البابوي بوجي براكشيو ليني الذي مر ذكره سابقاً ، وقد اكتشف عدداً من الكتب النادرة المجهولة ، وذلك في دير سان غال وفي اديرة المانيا الجنوبية . كذلك اشتهر الكردينال بيكولوميني الذي صار فيما بعد بابا باسم بيوس الثاني بجمعه للمخطوطات ولاسيما مصادر التاريخ الالماني مما جعله يكتشف عدداً من المخطوطات المجهولة ككتاب تاريخ القوط لمؤلفه جورنا نديز .

وقد اوفدت اسرة مديتشي السفراء لشراء المخطوطات من مختلف البقاع ، كما عاش في فلورنسا نفسها طبقة كبيرة من النساخين والرسامين كانوا في خدمة الحكام ، ووجد بها كبار تجار المخطوطات وكان زعيمهم فاسباسيانو المار ذكره .

ولقد ازدهرت في القرون الاخيرة من هذا العصر الطبقة الوسطى في اوربا واثرت وحاولت تقليد النبلاء ورجال الدين . ونحن نعلم ان الكتب كانت قليلة الانتشار في العصور الوسطى وغالية الثمن بحيث لايستطيع شراءها الا الملوك والامراء والاقطاعيون ورجال الدين . ولقد كانت القراءة قاصرة على الطبقات العليا اكثر مما كان عليه الحال في روما القديمة ، وساعد على صعوبة مزاولة القراءة غلاء ثمن الكتب في ذلك الزمن اذ استمر ثمن الرق في الصعود . فقد دفعت كونتيسة أنجو في القرن العاشر في نسخ كتاب واحد من كتب العظات مائتي خروف وثلاثة امداد من القمح وبضعة جلود من جلد السمور . كما بيع كتاب الصلوات في مجلدين لقاء مبلغ مائتي فرنك من الذهب اواخر القرن الرابع عشر .

ولقد ترافق ازدهار الطبقة الوسطى وتعاصر مع اواخر العصور الوسطى ومطالع النهضة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وبدأت تتعلم وتتطلع لجمع الكتب وانشاء مكتبات خاصة بها . ولقد صاحب نهوض الطبقة الوسطى

تطور في مهنة التجليد واستقلالها من التبعية للاديرة ، كما حدث في صناعة الرق حينما كون صناع الرق نقابة متحدة مع دباغي الجلود ، ثم استقلوا بعد ذلك في نقابة خاصة بهم . وظهر في اواخر العصور الوسطى النساخون الممتهنون ، وهم ناشرو الكتب آنذاك . وعلى الرغم من أنهم قد لايستطيعون منافسة الرهبان في دقة النسخ أو الكمال الفني ، إلا أنهم قد بزوهم في انتاج الكتب المدرسية . ولقد قام هؤلاء النساخون باغراق السوق بالمخطوطات مما سد حاجة الناس الى القراءة ، وكان هؤلاء النساخون في بداية الامر من رجال الدين ، وسرعان ماشاركهم العلمانيون في هذا العمل بل فاقوهم في هذا الشأن . وكحقيقة واقعة لابد من ذكر أن الاديرة نفسها لجأت الى الناسخين الممتهنين بعض الاحيان لشراء كتب لمكتباتها . وقد انتج صانعوا الكتب القسم الاكبر من الادب العلماني في زمانهم ، على الرغم من ندرة كل ماانتج في الموضوع . وقد ازدهر النساخ في المدن، ووجد في اواخر العصور الوسطى في المدن الكبرى نقابات منظمة أو شركات منظمة . فقد وجد في لندن نقابات منظمة تضم النساخ وصناع الرق والمجلدين والمزخرفين . فقد وجد حوالي ١٤٠٠ نقابة قوية تضم النساخ عموماً والمزخرفين والمجلدين . وكان بائع الكتب شخصاً قوياً ذا نفوذ وله وكلاء في البلدان الاخرى . وكانوا يتمركزون في المدن الكبرى كباريس ولندن وفرانكفورت وفيينا وبراغ أو حول الجامعات أو حول الأديرة ، وكانوا يعرضون بضاعتهم في الاسواق المحلية والعامة . وغالباً ما كانوا يقيمون حوانيتهم بجوار الكنائس بل داخلها . كذلك كانوا يقومون بتأجير الكتب الى الطلاب الفقراء العاجزين عن شراء الكتب . فقد وجد سنة ١٣٢٣ م بجوار جامعة باريس مالا يقل عن ٢٨ بائع كتب ، وكان بعضهم يعرض للايجار أكثر من ١٢٥ كتاباً مدرسياً . ولقد انتشرت تجارة الكتب خلال القرن الخامس عشر في المانيا أيضاً ، فكانت الكتب تعرض للبيع على عوارض بالقرب من الكنائس ، كما كان المشترون يترددون على اسواق الكتب الكبيرة وخاصة سوق فرانكفورت . وكان أكبر عدد للنساخين موجوداً آنذاك في باريس التي وصفت انها جنة الكتب .

تطور صناعة المخطوط :

واذا انتقلنا الآن إلى دراسة تطور المخطوط نفسه ـ صناعته وكتابته وتزينيه وتصويره . . . وجدنا هناك تطوراً ملحوظاً في هذا المضمار ، وذلك نتيجة للعوامل التي حدثت في ذلك العصر واثرت في تطور فن الكتاب وانتاجه بشكل عام .

فقد ظل الكتاب يعمل من الرق طوال ذلك العصر وحتى بعد اختراع الطباعة بزمن طويل ، ولا شك أن الورق لم يقابل بالترحاب في اوربا ـ لسوء صنعه ولاقترانه بالمسلمين ـ وظل الرق متربعاً على عرشه . وظلت هذه النزعة المحافظة سائدة في اوربا حتى بعد ظهور الكتب المطبوعة المصنوعة من الورق ؛ ولم يبدأ القوم في التخلي عن هذه الفكرة الا في أواخر القرن الخامس عشر واوائل السادس عشر .

كذلك انعكست في كتابة الكتب وتجليدها وتزينيها المؤثرات الفنية التي سادت آنذاك ، فمثلاً ماأن ظهر الطراز القوطي في فرنسا في أوائل القرن الثاني عشر وانتشر بعد ذلك في سائر الأقطار الأوربية حتى ظهر أثر ذلك أيضاً في فن صناعة الكتاب .

وقد تطورت الكتابة نفسها وتحولت من الطراز الكارولنجي ذي الحروف الصغيرة والشكل المستدير الى الطراز القوطي ذي الحروف الاكثر نحافة وتقارباً وزوايا حادة ، وتقاربت الحروف الى حد انه اذا التقى حرفان منحنيان احدهما بجانب الآخر تحول الانحناءان الى خط واحد . كما وان الطراز القوطي ظهر في اسلوب زخرفة المخطوطات ، فقد طال هيكل الحرف الرأسي وذلك عن طريق رسم خطوط رفيعة حادة أو خطوط لولبية أو اغصان مزخرفة تغطي كل الحافة . ويظهر الطراز القوطي في المنمنمات ذاتها لا في رسم وتزيين الاحرف وحدها . فقد صور الاشخاص وهم انحف من المعتاد . اما اساس الصور نفسها الذي كان يغطي بالزخارف الذهبية او التربيعات فلم يكن يبدو في زخارفه هذه اي اتجاه لاظهار الابعاد في الرسم . وهناك خاصة تسمح بان نؤرخ العصر الذي ترجع اليه الصورة الملونة وهي خاصة رسم المناظر الطبيعية في مؤخرة المناظر المرسومة .

وقد تم في القرن الثالث عشر عدد من التطورات في رسم الصور منها رسم المناظر الطبيعية في مؤخرة الصورة ، ومنها حلول ملابس العصر محل ملابس القدماء ونقل مناظر الأرض المقدسة الى اوربا ووضعها في الكتب خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

كذلك خرج فن المنمنمات من داخل نطاق الأديرة وازداد ارتباطه بالحياة العلمانية شيئاًفشيئاًبحيث زاد عدد النساخين والرسامين العلمانيين حتى طغو على رجال الدين وانتشروا كل الانتشار في القرن الخامس عشر ، واستخدمهم رجال البلاط والنبلاء . وبدأت تظهر كتب علمانية كثيرة إلى جانب الدينية . وقد اشتهر من المصورين العلمانيين في القرن الرابع عشر جان بوسيل Jean Pucelle ، وأهم كتبه التي زخرفها كتاب **صلوات بلفيل** الموجود حالياًفي المكتبة الأهلية في باريس . وهو كتاب رائع لما به من انسجام وتوافق تام بين الكتابة والرسوم والامتزاج الجميل الذي يحويه بين صور الحيوانات والازهار والرسوم الممثلة للطبيعة تمثيلاً واقعياً بحتاً مع مايحيط بها من الاطارات والزينة الرائعة ، حتى صار للكتب التي خرجت من مرسم جان بوسيل أثر كبير في الفن الفرنسي لتلوين المخطوطات .

كذلك ظهرت في نفس القرن الرابع عشر مدرسة تزيين المخطوطات التي تسمى باسم المدرسة الفرنسية الفلمنكية . ذلك ان جمهرة من الفنانين الفلمنكيين وفدوا للاقامة في باريس زمن جان بوسيل . وكان هؤلاء الفنانون معتادين على زخرفة المخطوطات وتزيينها في بلادهم ببراعة تامة وحماسة لاتقل عن حماسة الفنانين الفرنسيين . ولقد تأثر هؤلاء الفنانون بالفن الفرنسي تأثراً قوياً ، وهكذا نشأ في عالم الفن مدرسة فرنسية فلمنكية .

وقد استخدمهم جان دوبيري وكلفهم بزخرفة اكثر من ثلاثمائة مخطوط زينوها بمناظر خلابة عن حياة الشعب الفلمنكي . وهكذا عرفونا بدقائق الحياة والعادات التي كانت سائدة في الفلاندر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وقد اشتهر منهم عدد من الفنانين لعل اشهرهم بول دولامبور الذي اعتبر صاحب الفضل الاول في ادخال عنصر المناظر الطبيعية في تلوين المخطوطات ، حتى انه اشترك مع اخويه في رسم كتاب **ساعات الصلوات** الشهير للدوق دوبيري وهو

موجود حالياً في متحف كونديه في شانيتني ؛ وتعتبر رسومه من روائع الفن الواقعي بحيث نجد في مؤخرة صور التقويم كثيراً من صور القصور الملكية أو قصور الامراء كاللوفر وغيرها ممثلة اصدق تمثيل .

كذلك ظهر في نفس القرن الرابع عشر الفنان الفرنسي العظيم جان فوكيه في مدينة تور ، ويعتبر اعظم مصوري المخطوطات الفرنسيين . تأثر فوكيه بالمدرسة الفلمنكية وتأثر بالفن الكلاسيكي وبالفن الايطالي . إلا أنه كان ذا عبقرية فذة جعلته يمزج جميع تلك المؤثرات ويستخرج منها فناً ذا اصالة خاصة ، فقد ضارع من سبقه من الفنانين من حيث رقة ألوانه وصفاء رسومه ، ولكنه فاقهم كثيراً في معانيه وطبيعة صوره . لقد اصبحت الصورة لديه توضيحاً حقيقياً للنص المرفق بها ، ولم تعد مجرد عنصر زخرفي بحت . كذلك كان لمناظره الطبيعية سحر فرنسي حقيقي . ولقد خدم جاك فوكيه البلاط الفرنسي في عهد شارل السابع ولويس الحادي عشر ، كما خدم الكثيرين من هواة الكتب البارزين . وتعتبر صوره الواردة في كتاب ساعات الصلوات المحفوظ الآن في متحف كونديه من اروع مارسم .

اما تزيين المخطوطات في عصر النهضة فيعكس وجهة نظر النهضة ومثلها العليا في العودة الى القديم الكلاسيكي اليوناني الروماني . وعلى الرغم من ان رجال النصف الثاني من القرن الخامس عشر ركزوا كل انتباههم على نصوص الكتب نفسها ، الا انهم لم يهملوا المظهر الخارجي للكتاب ، ومن اغنى هذه المخطوطات زخرفة في عهد النهضة عدد كبير بدأ ظهوره في القرن الخامس عشر .

هذا وتمتاز رسوم مخطوطات عصر النهضة بزخارفها المأخوذة من العصر القديم مثل مناظر آلهة الحب والاعمدة والاصص والاحجار الكريمة وما الى ذلك من الرسوم التي استخدمت في زخرفة الاطارات والحروف الكبيرة Initials . أما الكتابة فكانت تقليداً للكتابة الكارولنجية ذات الحروف الصغيرة ، ومن هذه الكتابة التي اتخذها الانسانيون اشتقت فيما بعد الكتابة اللاتينية المستخدمة الآن والتي حلت في كافة البلاد محل الكتابة القوطية ، فيما عدا البلاد التي تتكلم الألمانية .

ولعل اروع ماتم بالنسبة للكتب في اوائل عصر النهضة ، التجليدات الفخمة المترفة التي خصصت لها مبالغ ضخمة لتجليد بعض المخطوطات الثمينة للملوك او الاثرياء . وكان من مظاهر هذه الحركة ان جلدت بالقطيفة الحمراء المحلاة بالفضة جميع كتب البابا نقولا الخامس تقريباً . واغلب زخارف هذه التجليدات تتبع الطراز القوطي ولها زخارف مطبوعة على البارد ، وهي الطريقة التي سبق ذكرها . وكان يستعمل في هذه التجليدات جلد العجول والوعل . اما الهواة وذوو الاذواق الرفيعة فكانوا يستعملون جلود الماعز المستوردة من مدينة قرطبة .

وكانت الحليات الكبيرة تصنع من النحاس الاصفر المحفور . وهي التي كانت تثبت في اركان التجليدات ووسطها ، بالاضافة الى الاقفال المثبتة في الكتب ، وهي تشهد بالمقدرة الرائعة لصانعيها . وكانت حواف الكتب تلون غالباً باللون الاخضر او الاصفر وندر تلوينها باللون الاحمر . ولايزال بعض هذه التجليدات موجوداً في عدد كبير من المكتبات . وهي تحمل طابعاً ثقيلاً وصلابة . وهي صفات تناسب اوراق الرق المؤلفة لصفحات المخطوط . والواقع ان صحائف الرق من شأنها ان تثقل من وزن الكتاب وحجمه مما يستلزم بطبيعة الحال تجليده بغلاف قوي . وقد استعمل هذا النوع من التجليد طوال القرن الخامس عشر في انكلترا وفرنسا ودول الشمال .

الفصل السادس

الورق واختراعه وانتشاره وأهميته
في تاريخ الكتاب والحضارة

بحثنا فيما مضى ، عدداً من المواد التي استخدمت مادة للكتابة مثل البردى والرق واللوحات الفخارية وماماثل ، واخرنا الى هذا الفصل بحث اهم مادة استخدمها الانسان ولايزال للكتابة واعني بها الورق .

والورق مهم جداً واساسي ولاسيما من اجل الطباعة ، فلم يكن من الممكن للطباعة ان تحرز تقدماً يذكر لولا وجود الورق ، فقد كان لابد من اجل تقدم الطباعة وانتشارها وذيوعها من وجود مادة اقل كلفة من الرقوق وجلود الحيوانات واسهل تناولاً وايسر للعمل والنشر . ذلك ان الحصول على الرق وانتاجه اصعب بكثير من الحصول على الورق ، كما وان كلفته اعلى بكثير من كلفة الورق ، فقد قدر أن النسخة الواحدة من توراة غوتنبرغ احتاجت لطباعتها على الرق إلى جلود ما ينوف على ٣٠٠ خروف . كما قدر ان طبع ٣٥ نسخة من توراة غوتنبرغ احتاج الى جلود ٥٠٠٠ عجل هيئت لهذه الغاية . وعلى الرغم من ان اوائل الطابعين استعملوا الرق مادة لطبع الكتب عليها ، الا انها وجدت غير عملية وغالية التكاليف وانتاجها بطيء ، وايقن القوم من عدم صلاحيتها للطباعة ، وظلت الحاجة الى بديل ووجد البديل في الورق .

لم يستعمل الورق كبديل للرقوق ، في اوربا على الاقل ، الا ببطء شديد وعبر عدد كبير من القرون . ومع ذلك فقد بدأ الورق يستعمل في الكتب في اوربا قبل اختراع الطباعة باحرف معدنية بثلاثة قرون . ولكن الورق لم تخترعه اوربا ، على العكس ، وجد طريقه الى اوربا عبر مساحات شاسعة وقرون طويلة ، وقد اخترع ، اول ما اخترع ، في البلاد التي كانت ابعد ما تكون عن اوربا ، في الصين .

ويبدو ان عام ١٠٥ م هو العام المعترف به رسمياً على انه التاريخ الذي تم فيه هذا الاختراع لاول مرة . ذلك ان تساي لونTs'ai Lun ، وهو موظف رسمي في القصر الامبراطوري الصيني ، قدم تقريراً الى الامبراطور هو تيHo-Ti سنة ١٠٥ م عن انتاج الورق من الاقمشة القديمة . ولاندري هل هو الذي اخترعه حقاً ام ان المخترع كان شخصاً آخر لانعرفه وانما كان تساي لون هو الذي اوصل نبأ الاختراع الى الامبراطور ، ذلك ان معلوماتنا حول هذا الموضوع مستمدة من التاريخ الرسمي الذي الفه في القرن الخامس عشر لاسرة هان المؤرخ الصيني فان ييهFan Yehوهو لايوضح هذه النقطة . ولذا اصبح اختراع الورق ينسب رسمياً الى تساي لون . وقد منحه الامبراطور لقب شرف وأمر أن يشاد على شرفه ولذكراه ، بعد وفاته ، معبد خاص تكريماً له . ويحرق بائعوا الورق الصينيون البخور امام صورته .

ولقد تم أكتشاف نماذج من الورق تعزز تاريخ اختراع الورق في الوقت المذكور أعلاه وهو عام ١٠٥م . فقد اكتسف سفين هيدن Sven Hedin ١٩٠٠ م عدداً من الوثائق المسجلة على أوراق بعضها ممزق وبعضها مصفر في محل لبيع الكتب في مقاطعة لو ـ لان الصينية Lou-LAN ، ويحمل بعضها التواريخ التالية : ٢٥٢م ، ٢٦٥م ، ٣١٠م . ولقد اكتشف سير اوريل المستكشف العظيم Sir Aurel Stein سنة ١٩٠٧م اثناء رحلته إلى كهف الالف بوذا قرب سور الصين العظيم عدداً من الأوراق المهمة . فقد علم هذا المستكشف عندما وصل إلى كهف الالف بوذا ان كاهناً اكتشف في الكهف غرفةً سرية مليئة بالوثائق ، بعضها كتب على الحرير ،ووجد بينها تسع رسائل مكتوبة على الورق بالخط الصغدي .

وعلى الرغم من عدم وجود أية تواريخ في هذه الرسائل ، الا ان تاريخ بقية الوثائق الصينية التي وجدت الرسائل الورقية ضمنها هو سنة ١٣٧م . ولذا يبدو انه تعزز القول بان اختراع الورق تم في حدود سنة ١٠٥م . هذا وان احدى هذه الرسائل التسع محفوظة في المتحف البريطاني . وقد سمى ستين مجموعته هذه باسم القرية التي وجد الكهف قربها وهي قريةTun-Hirang . ولقد دل الفحص المخبري والمجهري لهذا الورق على انه ورق صاف مصنوع من القماش .

وقد ظل الاعتقاد بهذه المعطيات مستمراً حتى الستينات من هذا القرن عندما تم اكتشاف جديد فتح قضية تاريخ اختراع الورق والمخترع من جديد . فقد وجدت سنة ١٩٥٧ م بعض قطع صفراء رقيقة من الورق في قبر شخص اسمهPa-Ch iao في مدينة سيانSian ، وهي مدينة موجودة في مقاطعة شينسي الصينيةShensi . وقد صنعت هذه القطع من الياف الخضروات . وقد ارخ علماء الاثار تاريخ هذا القبر بين سنتي ١٤٠ ـ ١٨٧ ق.م .هذا على الرغم من وجود بعض الخلاف حول هذا التاريخ . وهكذا وجد هنا اقدم قطع من الورق في العالم ، وقد انزلت هذه القطع تساي لون عن عرشه فلم يعد هو مخترع الورق وانما هو الشخص الذي ابلغ الامبراطور رسمياً وجود صناعة كانت في الوجود في زمن سابق على زمانه .

والملاحظ ان الورق لم ينسخ استعمال المواد الاخرى للكتابة في الصين ، اذ ظلت مادتا الخشب والحرير تستعملان كمادتين للكتابة جنباً الى جنب مع الورق ، ولكن ما ان اهل القرن الخامس الميلادي حتى عم استعمال الورق في الصين وذاع كل الذيوع وتقلص كل التقلص استعمال المواد الاخرى .

ولقد انتشر فن صناعة الورق خارج الصين ببطء ، ولعله وصل كوريا في القرن الثاني الميلادي ، كما وان صناعة الورق وصلت الى اليابان عن طريق كوريا في القرن الثالث ميلادي ، على الرغم ان الوثائق تذكر ان ذلك تم في القرن السابع ميلادي . فبحسب اخبار نيهون شوكيNihon-Shoki ان راهباً بوذياً اسمه تامجينTamjing نقل صناعة الورق الى اليابان سنة ٦١٠ م .

ويبدو ان الصينيين حاولوا الحفاظ على سر صناعة الورق ومنعها من الانتشار غرباً وشرقاً ؛ ولكن وجدت ثلاث قوى عالمية رئيسية عملت وساعدت في نشر الورق وصناعته . فقد استعملت البعثات التبشيرية البوذية الورق كمادة يكتبون عليها نصوصهم المقدسة وينشرونها بين الناس في ارجاء الصين واليابان . ومن جهة اخرى نجد ان النساطرة ـ وهم فرقة مسيحية منشقة عن الكنيسة الرسمية البيزنطية تغلغلت في اسيا الوسطى ووصلت الصين في القرنين السادس والسابع ـ لابد وانهم استعملوا الورق مادة كتابية في كتابة نصوصهم المقدسة ،

على الرغم من ان جميع مخطوطاتهم تلفت ولم يصلنا منها شيء . واخيراً اتى المسلمون الذين نشروا الاسلام في القرن السابع الميلادي ووسعوا دار الاسلام في موجتين من موجات الفتوح الاولى زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه والثانية زمن الوليد بن عبد الملك رحمه الله حتى امتدت الامبراطورية الاسلامية من حدود الهند والصين شرقاً الى جبال البرانس وحدود فرنسا غرباً واقتبسوا هذا الاختراع واستعملوه وحسنوه ونقلوه الى اوربا حتى اصبح يعد احدى النعم الكبرى التي منحتها الحضارة الاسلامية للحضارة العالمية .

ولقد تم الامر كما يلي : ذلك ان المسلمين الذين كانوا يحاربون لنشر الاسلام في بلاد ماوراء النهر اصطدموا في معركة دامية مع الصينيين في تركستان الروسية الحالية وتمكنوا من هزيمة الصينيين بشكل مروع واخذوا عدداً كبيراً من الاسرى من بينهم عدد من صناع الورق . وهناك عرض عليهم الحاكم المسلم تأسيس مصنع للورق وانتاج الورق مقابل حريتهم وقد قبلوا ذلك وتأسس اول مصنع للورق في العالم الاسلامي سنة ١٣٣ ه = ٧٥١م في مدينة سمرقند . وقد استعملوا في صنع الورق الكتان وقطع النسيج ، كما وان سمرقند كان يتوفر فيها المياه الغزيرة المجلوبة بالقنوات التي يحتاجها انتاج الورق . وسرعان ماانتبه المسلمون لاهمية هذه المادة الجديدة وبعد برهة انتشرت صناعة الورق في البلاد الاسلامية متجهة نحو الغرب ، وهكذا خطا الورق خطوته الحاسمة باتجاه الغرب .

ولقد كان المسلمون يستعملون في دواوينهم ورسائلهم الجلود والرقوق بشكل ملفات وذلك طول العهد الأموي . فلما افضت الخلافة إلى بني العباس واصبح السفاح خليفة استوزر خالداً البرمكي فجعل الدفاتر في الدواوين من الجلود وكتب فيها وترك الدروج (الملفات) إلى أن تصرف جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي في الأمور أيام هارون الرشيد فاتخذ الكاغد وتداوله الناس بعده . ولقد ازدهرت صناعة الورق في سمرقند لوجود الكتان بغزارة في سهولها ، واصبح الورق أو الكاغد كما يسمية العرب من المواد التي تصدرها سمرقند وظلت هذه في بلد واحد ، ولذلك نرى الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) يؤسس أول

مصنع ورق في بغداد سنة ٧٩٤م ، ووصلت صناعتة ، بعد فترة وجيزة إلى دمشق حيث أصبحت دمشق لعدة قرون مصدر تموين العالم من الورق . ولقد كانت اوربا تستورد الورق المصنوع في دمشق حتى أن اسم الورق في البلدان الناطقة باللاتينية كان. يسمى . Charta Damascena

ولقد ارتقى المسلمون في صناعة الورق الى مستويات اعلى مما كان عليه في الصين . كذلك خصص المسلمون حجماً معيناً من الورق ولوناً معيناً منه لاستعماله في كل مناسبة ولكل استعمال . ويبدو ان كلمة ream المستعملة من أجل Quires من الورق (وتعني Quires عشرين) اتت غالباً من الكلمة العربية رزمة . ولقد انتشر استعمال الورق في العالم الاسلامي بشكل واسع جداً حتى ان رحالة فارسياً ذكر انه شاهد الورق يستعمله جميع الباعة في صر الخضار والبهارات . وليس واضحاً ما اذا كان العرب ام الاوربيون هم الذين استعملوا الاطار السلكي في انتاج الورق . كذلك لاندري هل استعمل المسلمون قوة الحيوانات او القوة البدنية في تشغيل الات المعامل ، كما فعل تساي لون ، ام انهم استعملوا قوة المياه في تشغيل الات المعامل كما فعل الاوربيون فيما بعد .

ولما وصل الورق الى مصر واجه هناك البردى الذي استعمله المسلمون الأوائل مادة كتابية ،ولكن استعماله كان قد بدأ يضمحل ويزول . وأخيراً انتصر الورق عليه وحل محله ، وكان ذلك حوالي سنة ٨٥٠ م .

ولقد حفظ لنا جو مصر الحار الوف الوثائق المكتوبة على الورق ابتداءً من القرن التاسع الميلادي حتى القرن الرابع عشر . وقد اغنت هذه الوثائق معرفتنا عن الحضارة الاسلامية بشكل مدهش ، كما اغنت معلوماتنا عن الورق وصناعته . ولقد كان جو مصر مناسباً من اجل صناعة الورق ، ذلك انه تنمو في مصر بذرة الكتان وتصنع منها ثياب فاخرة ، ولذا وجدت في مصر المادة الاولية لصناعة الورق .

ثم استمر الورق في زحفه غرباً ، واجتاز شمالي افريقيا ببطء حتى وصل الى مراكش مع مفتتح القرن الثاني عشر . ولم تبق اوربا طبعاً ، طوال هذه الفترة

جاهلة بالورق ، فقد قام بعض التجار بجلبه من الشرق وادخلوه اوربا وبدأ يستعمل في كتابة المخطوطات ، وان لم يكن صنغ فيها او حل محل الرقوق والجلود . هذا ويوجد لدينا مخطوط يوناني مكتوب على الورق يعود تاريخه الى القرن الثامن او التاسع الميلادي . ولكن لم يشع استعمال الورق في بلاد اليونان حتى القرن الثالث عشر . وان اقدم وثيقة اوربية مكتوبة على الورق هو مرسوم اصدره روجر حاكم صقلية النورمندي سنة ١١٠٩ م . والوثيقة مكتوبة باللغتين اللاتينية والعربية .

ولقد ادخل المسلمون صناعة الورق الى الاندلس التي اشتهرت بجودة ورقها وغزارة انتاجه . فقد تأسس اول مصنع للورق في الاندلس في مدينة شاطبة ـ وهذا المصنع معتبر اول مصنع اسس على ارض اوربية ـ وذلك في القرن الحادي عشر ميلادي . وقد ذكر الرحالة والجغرافي المسلم أبو عبد الله محمد المشهور بالادريسي شاطبة وورقها عندما زارها سنة ١١٥٠ م فقال :(يحضر هنا الورق بشكل لامثيل له في مكان آخر في العالم المتحضر ويصدر شرقاً وغرباً) . وكانت معامل الورق في الاندلس تنتج جميع انواع الورق بما فيها الابيض والملون . ولقد ظلت مصانع شاطبة تنتج الورق وتصدره الى اوربا حتى بعد سقوطها بيد الاسبان . ولقد تأثر انتاج الورق الاسباني المسيحي بالورق الذي انتجه المسلمون في الاندلس ، فقد استمرت صناعة الورق في بلنسية بعد استردادها من المسلمين سنة ١٢٣٨ م على يد اراغون وشجعها الملوك ، وبدأ انتاج الورق الاسباني في اسبانيا المسيحية ، وذلك على مقياس واسع تحت حكم الفونسو العاشر سنة ١٢٦٠م

وظل المسلمون يقومون بتشغيل هذه المعامل تحت حماية ملوك اسبانيا من النصارى لان صادرات الورق كانت تشكل جزءاً مهماً من واردات الخزينة الملكية .

وقد انتقل الورق الى اوربا النصرانية من بلاد المسلمين عن طريق اسبانيا الاسلامية وعن طريق صقلية وعن طريق احتكاك الاوربيين بالمسلمين في بلاد الشام خلال الحروب الصليبية . وقد دخلت صناعة الورق الى صقلية منذ سنة ١١٠٩ م . واول مصنع للورق اسس في اوربا النصرانية هو ذلك المصنع الذي

انشيء في انكونان فابريانو Fabriano in Ancona في ايطاليا وذلك في حدود سنة ١٢٧٠ م . ولايزال هذا المصنع في الوجود حتى ايامنا هذه ومعتبراً من ارقى المصانع التي تنتج افخر انواع ورق الكتابة حتى اليوم . ولقد تأسس عدد من مصانع الورق في عدد من المدن الايطالية مثل بولونبا وبادوا وجنوا . وادخلت عليها تحسينات كثيرة بحيث تفوقت في انتاجها على ما تنتجه مصانع شاطبة من الورق ، ولم يحن القرن الرابع عشر حتى تغلبت على دمشق نفسها كمصدر رئيسي من مصادر تموين اوربا من الورق .

ولقد قنعت كل من فرنسا والمانيا ، فترة من الوقت ، باستيراد حاجتها من الورق من ايطاليا واسبانيا ، ولكن ذلك لم يدم طويلاً اذ بدأت فرنسا في تأسيس مصانع للورق . وتذكر المأثورات الشعبية الفرنسية ان جان مونغلفيهJean Montgolfier اخذه المسلمون اسيراً ابان الحرب الصليبية الثانية في بلاد الشام واجبر على العمل في مصنع للورق في دمشق ، ثم تمكن سنة ١١٥٧ م من العودة الى فرنسا وهناك اسس مصنعاً للورق في بلدة فيدالونVidalon . كما وان هناك قصة اخرى تذكر ان اول مصنع للورق اسس في فرنسا كان ذلك الذي اسس في لوفيدLove'de . ولكن لايوجد قاعدة صحيحة لمثل هذه المأثورات . ويبدو ان اول مصنع للورق اسس في فرنسا هو المصنع الذي انشيء في لانفدوكLangcedoc من اقليم سان جوليان قرب تروا ، وكان ذلك في حدود سنة ١٣٤٨ م ولم يمض القرن الرابع عشر حتى تأسست صناعة ثابتة للورق في فرنسا في عدد من المراكز .

كذلك من المحتمل وجود مصانع للورق في المانيا في كل من كولون واوغسبرغ ومنيز في اوائل القرن الرابع عشر . ولكن اول مصنع للورق اسس في المانيا عندنا معلومات موثوقة عن تاريخ تأسيسه هو مصنع نورنبرغNurenbergوكان ذلك سنة ١٣٨٩ م ، ثم انتشرت مصانع الورق بعد ذلك في عدد من المراكز الالمانية .

ولقد تأخر تأسيس معامل الورق في كل من بولونيا والنمسا وانكلترا حتى نهاية القرن الخامس عشر . فقد اسس اول مصنع للورق في بولونيا سنة ١٤٩٤ م

وفي النمسا سنة ١٤٩٨ م ، وفي انكلترا سنة ١٤٩٥ م اسسه شخص اسمه جان تيتJohn Tate قربStevenage من مقاطعةHertfordshire ، واسس اول مصنع للورق في الاراضي الواطئة سنة ١٥٨٦ م . واسس اول مصنع للورق في امريكا سنة ١٧٠١ م اسسه شخص اسمه وليام ريتنهاوسWilliam Rittenhouse . وقد دمر المصنع سيلٌ في نفس السنة ثم اعيد بناؤه سنة ١٧٠٥م

لقد مر معنا سابقاً كيف ان الصينيين هم الذين اخترعوا الورق وظل اختراعه في حوزتهم حوالي ستة قرون حتى تمكن المسلمون من اخذ هذا الاختراع وتحسينه ونشره في العالم . ولقد تأخر دخول الورق الى اوربا اكثر من خمسة قرون وذلك بسبب الاوضاع السائدة فيها آنذاك . فالورق نتاج الحضارة ودليل عليها وتحتاجه الحضارة الراقية وخاصة الفكرية منها . ويلاحظ المتأمل في احوال اوربا خلال الفترة التي امتدت من القرن السادس الميلادي إلى القرن الثاني عشر تقهقر الحضارة فيها واضمحلال النشاط الفكري وحصره بيد الرهبان واغلبه في الابحاث اللاهوتية . كذلك كانت الامية منتشرة كل الانتشار في طول اوربا وعرضها ، فلم يشعر القوم في اوربا آنذاك بالحاجة الى الورق ، ولذلك تاخر دخوله اليها . واذا لاحظنا ان مكتبة الحكم المستنصر بالله الاموي في قرطبة حوت في القرن العاشر الميلاديماينوف على ستمائة الف مجلد ، على حين لم تحو اشهر المكتبات الاوربية المعاصرة لمكتبة الحكم اكثر من ثلاثمائة مجلد الا بقليل ، ادركنا الفرق بين الحضارتين ، وادركنا بالتالي شدة حاجة المجتمع الاسلامي الى الورق آنذاك ، وندرة حاجة المجتمع الاوربي الى هذه المادة . وفي الوقت الذي كان فيه العالم الاسلامي يعج بتجار الكتب والناشرين ومحال بيع الكتب ، كان العالم الاوربي محروماً او شبه محروم من مثل هذه النعم ، ولم يشعر بالحاجة الى مثل هذه الامور الا في وقت متأخر . ولذلك لم تشعر اوربا بالحاجة الى الورق فقط ، وانما حاربته عندما بدأ انتاجه فيها واعتبرته غير صالح للكتابة ، وذلك بسبب الجهل السائد ، وبسبب كون الرقوق اكثر احتمالاً بكثير من الورق وبسبب رداءة الورق الذي انتجته اوربا اول ما بدأت الانتاج .

ولقد حاربت الكنيسة الورق واعتبرته رجساً من عمل الشيطان لان اصله اسلامي واتى من بلاد اسلامية . وكانت الكنيسة تحارب كل مايمت الى الاسلام والمسلمين بصلة ومن جملة ذلك الورق . كذلك كان هناك قوانين تحرم استعمال الورق لكتابة الوثائق العامة والكتابات الهامة . فقد صدر مرسوم امبراطوري سنة ١٢٥١ م عن الامبراطور فريدريك الثاني يعلن بطلان محتويات العقود الهامة اذا كانت مسجلة على الورق . وهكذا كان على الورق ان يبقى اذاة متواضعة تكتب عليه الكتابات الرخيصة ويستعمله الفقراء ، على حين ظل الرق متربعاً على عرشه كأداة فخمة يستعملها الملوك والامراء الاغنياء في كتابة مراسيمهم ومراسلاتهم .
وقد استمر الوضع على هذه الحال حتى اختراع الطباعة في اوربا حيث قفز الورق الى مركز الصدارة في الاستعمال واصبح منذ ذلك الزمن المادة الرئيسية الاولى في الاستعمال من اجل الكتابة وانتاج الكتب . واذا امكن القول ان الورق هو الذي جعل الطباعة ممكنة وناجحة ، فان من الصحيح ايضاً ان يقال ان الطباعة هي التي جعلت الورق منتشراً في جميع ارجاء العالم ومستعملاً في كل مرافق الحياة .

ومن الجدير بالذكر ان ننوه ان معامل الورق الاولى التي اسست في اوربا كانت تسير بقوة اندفاع التيار المائي ، وذلك بجعل العجلة المندفعة بقوة التيار المائي تحرك بضع مطارق ثقيلة تفتت المواد الاولية كالاقمشة البالية والخرق القطنية والحبال ونحوها حتى تحولها الى عجينة الورق التي هي محلول رائق . ولابد ان نلاحظ ان كلمة معامل تطلق على اماكن انتاج الورق آنذاك بشكل تجوزي ، اذ انها كانت اشبه بالطواحين الهوائية ، وهي يدوية . وانما دخلتها الآلة فيما بعد في القرنين التاسع عشر والعشرين . ذلك ان انتاج تلك المعامل كان يتم يدوياً وباساليب بسيطة . ولم تختلف اساليب انتاج الورق في اوائل المعامل عن الاساليب المستعملة في انتاج الورق الفاخر الذي تنتجه معاملنا الآن الا في بعض التفاصيل البسيطة . ذلك انه لايزال يوجد في ايامنا هذه معامل يدوية تنتج انواعاً فاخرة من الورق وتعمل بقوة اليد العاملة لا بالآلة . وكانت عجينة الورق توضع بعد الحصول عليها في وعاء ، ثم تغمس فيه شبكة على هيئة اطار خشبي مشدود فيه اسلاك من النحاس الاصفر ، ثم ترفع الشبكة بعد ان تعلق بها بعض

العجينة الورقية ، ثم تجفف هذه الطبقة وتتحول بذلك الى ورقة من ورق الكتابة ، ثم يجفف الماء ، وذلك بضغط هذه الاوراق بين طبقات من الجوخ ، وتطلى بعد هذا بطبقة من الصمغ الخفيف لكي يكتسب الورق صلابة كافية تمكن من الكتابة عليه .

العلامة المائية :

كانت اسلاك النحاس الاصفر ، المشدود الى الاطار المذكور آنفاً ، تترك على الورق خطوطاً يمكن رؤيتها بوضوح ، اذا ماوضعت امام ضوءٍ كافٍ . ومالبث ان خطرت لاحد اوائل اصحاب المصانع فكرة احناء بعض الاسلاك او تعديل اتجاهاتها بحيث يتكون منها شكل مفهوم ، وهكذا نشأ ماسمي باسم العلامة المائية التي تميز مصنعاً عن مصنع وطابعاً عن طابع ؛ وكانت تحوي أحياناً الحروف الاولى من اسم صاحب المصنع اواسم الطابع او غير ذلك .

ولقد اخترعت العلامة المائية واستعملت بنجاح في مصنع الورق الموجود في فابريانو من ايطاليا عام ١٢٨٢ م . غير ان هذه العلامات قد ظلت حتى القرن الرابع عشر خشنة غير مهذبة ، ثم بدأ رسمها يتحسن ويأخذ الشكل الفني بعد ذلك .

وقد انتشرت العلامة المائية كل الانتشار مع اختراع الطباعة واستعمال الورق في الكتب المطبوعة . وتخدم هذه العلامة وتستخدم لتحقيق عدة اغراض . ذلك ان الكتب التي طبعت اول العهد بالطباعة لم تكن تحمل تاريخ الطبع ولااسم الطابع . ولذا ، فقد امكن في احيان كثيرة وبواسطة العلامة المائية هذه ، معرفة حجم الصفحات وعددها في الكتاب الى جانب اسم الطابع . وذلك باعتبار ان هذا الطابع يستعمل ورقاً يحمل علامة مائية معينة معروفة .

هذا وان نوع الورق والعلامة المائية التي يحملها ذلك الورق يمكن ان يساعدا في التثبت من صحة نسبة مخطوط الى مؤلفه او كذب نسبته اليه او الى زمان او مكان معين . وتخدم حالة توماس وايز وتزويره كمثال في هذا المجال . فقد ادعى توماس وايز ، وهو جامع كتب نادرة وباحث معروف ، انه اكتشف (جميع

النسخ المعروفة) من كراسات من شعر انكليزي معين في القرن الثامن عشر . ولقد ثبت من دراسة هذه النسخ ان الورق الذي استعمل في طباعة الكراسات قد صنع بعد سنوات كثيرة من التاريخ المزعوم ، والورق والعلامة المائية هما اللذان كشفا الغش والتزوير .

كذلك تستعمل مصانع الورق العلامة المائية في مجال الدعاية . وكانت العلامة المائية متنوعة كل التنوع بحيث يجد الانسان فيها كل ما يخطر على باله من اشكال وموضوعات . فقد استخدمت في احداث هذه العلامات صور الازهار والحيوانات كالطيور والاسماك مثلاً . وكثيراً ما كانت تستخدم علامات كثيرة جداً لموضوع واحد ، فقد احدثت صور كثيرة كعلامات لرأس الثور مثلاً . وكان هذا رمزاً لنقابة صناع الورق . وقد استخدم صانعوا الورق في هولندة عدة علامات ، منها خلية النحل . وقد اتخذ صانعوا الورق في انكلترا اشعاراً لهم صورة قلنسوة المجنون ، وهي التي اخذ عنها الاصطلاح الحديث المعروف الآن باسمFoolscap . وقد ظل الكثير من هذه العلامات الى يومنا هذا ؛ وهي تستعمل في الدلالة على احجام معينة من الورق كحجم الفولسكاب مثلاً . وقد انتشر عن طريق اوربا بعد ذلك استعمال العلامات المائية ووصلت الى الشرق الذي اخذت اوربا عنه صناعة الورق ، كما وصلت الى امريكا .

ولقد تعددت احجام وانواع الورق الذي تنتجه المعامل في ايامنا هذه تنوعاً هائلاً . فهناك اردأ انواع الورق المستعمل في الجرائد والذي يستعمله الباعة في صنع اكياس الورق وما ماثل ذلك من انواع . وهناك الورق العادي المستعمل في الكتابة ، وهناك الورق المستعمل في الطباعة ، وهناك الورق المقوى . وهناك الورق الفاخر جداً المستعمل لطباعة الكتب النادرة . وهناك الورق المستعمل لطبع الصور ووسائل الايضاح الملونة والسوداء والبيضاء . وهناك الورق الذي يقاوم انتشار الحبر والمواد الدهنية . كما وان هناك مختلف الاحجام ،فهناك حجم الربع وحجم النصف والفولسكاب وغيرها من الاحجام .

هذا وان تنوع الورق كماً وكيفاً يتيح للطابع ان ينتخب بدقة مايلائم مايريد طباعته بحيث يبدو الشيء المطبوع انيقاً جيد المظهر والمخبر . ولكن المشكلة التي

تواجهها صناعة الورق حالياً هو غلاء المواد الاولية وندرتها بحيث ان ذلك سيؤدي الى ارتفاع فاحش في اسعار الورق ، ويؤدي بالتالي الى نقص في استعماله . وهذا ما جعل البحث عن مواد اولية جديدة لاستعمالهافي صناعة الورق ضرورياً وملحاً كل الالحاح . ولذلك بدأت التجارب لانتاج الورق من الياف النباتات ولاسيما السيلولوزية منها . وعلى الرغم من نجاح العلماء وصناع الورق في انتاج ورق مصنوع من الياف النباتات ، الا ان نوعيتها تختلف عن نوعية الورق المصنوع من الخرق البالية (ذات الاصل القطني والكتاني) ، كما وانها لاتعيش نفس المدة التي تعيشها الاوراق المصنوعة من الخرق . ولازال العمل مستمراً في هذا الاتجاه ، والامل كبير في انتاج ورق ذي مواصفات عالية وباسعار معقولة من مواد ارخص ومتوفرة في الطبيعة .

الفصل السابع

الطباعة واختراعها في الشرق الأقصى

يجب النظر الى ابتداء وانتشار فن الطباعة في الشرق الاقصى واعتبارها شيئاً مستقلاً كل الاستقلال عن اصل الطباعة ونشوئها واختراعها في اوربا . ذلك ان الكتب في الشرق الاقصى طبعت في وقت سابق على طبعها في اوربا بحوالي ستة قرون . وكما ان الورق ظهر اول ماظهر في الصين ، كذلك ظهرت الكتب المطبوعة اول ظهورها في بلاد الصين .

لقد طبع اقدم الكتب المطبوعة في الصين بالحفر على الخشب وذلك باعداد الواح خشبية حفرت بحيث برزت الحروف الى اعلى وكذلك وسائل الايضاح . وهذه هي الطباعة الثابتة اللوحية . كذلك تم اختراع الحروف المتحركة في الصين ايضاً قبل ان يخترعها غوتنبرغGutenberg بزمن طويل . ولكن يبدو انه ، بسبب العدد الكبير من الرموز المنفصلة التي تتطلبها كتابة اللغة الصينية ، لم يكن بامكان الحروف المتحركة ان تكون ذات نفع كبير اوغناء في هذا المجال . وحتى بعد ان تم اختراع الحروف المتحركة اهملت لانه كان اسهل ان تحفر على الخشب صفحة للرموز المقطعية من ان تركب صفحة من الحروف المتحركة للاحرف المنفصلة المستقلة عن بعضها بعضاً .

اما في اوربا ذات اللغات التي تكتب الفبائياً ، فان اختراع الطباعة ، من اجل جميع الاهداف والغايات ، يتألف من اختراع عملية مرضية وايجاد طريقة عملية لانتاج الكمية المطلوبة والمرغوب بها من الحروف المتحركة . وعلى كل فان اختراع الطباعة في الصين كاسلوب عملي لانتاج الكتب كان عبارة عن اختراع طريقة الطبع بالحفر .

واذا عرفنا الطباعة انها ، بابسط صورها واشكالها ، فن الحصول ، بواسطة الضغط ، على صورة من شيء على مادة من المواد ، فان الطباعة بهذا المعنى بدأت قبل المسيح بزمن طويل . فقد استخدم المصريون والبابليون الاختام المعدنية او الخشبية من اجل طباعة الصور وطبع الاختام على الطين والشمع . ولقد استخدم البابليون الختم الاسطواني الذي يمكن بواسطته طبع فقرة كاملة على الطين الطري وذلك بدحرجة الختم الاسطواني على الطين . ولقد استخدم الصينيون الاختام مدة طويلة وكانوا يحفرون الاختام ويلوثونها بالحبر ثم يطبعونها على الورق ، وذلك خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين . وكانت هذه الاختام تصنع من الخشب ولذلك تعتبر مرحلة ابتدائية من الحفر على الخشب . واذا عرفنا ان الكلمة الصينية المستعملة للتعبير عن الطباعة ، اياً كان نوعها هيViN ومعناها الختم ايضاً ، ادركنا الصلة بين الطباعة والختم . ولقد جرى الانتقال من حفر الاختام التي كانت تستعمل للتأكد من صحة الوثائق او اضفاء الصفة الشرعية عليها الى حفر صفائح من الخشب لطبع الكتب او الاكثر اهمية منها . ويسمى فن حفر الحروف في لوحة خشبية لطباعتها باسمXylography .

هذا واول مثل على الكتاب المطبوع بواسطة الحفر على الخشب وجد في اليابان حوالي سنة ٧٧٠ م تحت حكم الامبراطورة شوتوكوShotuk (٧٤٨ - ٧٦٩ م) . فقد كانت اليابان آنذاك متأثرة كل التأثر بالنفوذ الصيني ، ذلك ان الصين هي التي نشرت البوذية في اليابان . وحدث ان تولت العرش سنة ٧٤٨ الامبراطورة شوتوكو ، وهي امبراطورة متحمسة كل الحماس لنشر المذهب البوذي ، فأمرت بطبع مليون نسخة من تعاليم بوذا على صفحة مستقلة لتوزع على الشعب ،وقد تم طبعها وتوزيعها سنة ٧٧٠م . وقد طبعت على ورق فاخر ووضعت في اطارات جميلة واشتراها اليابانيون وعلقوها في بيوتهم في أماكن العبادة . وهناك أخبار كثيرة عن هذا الموضوع لدى المؤرخين اليابانيين . وقد تأكدت هذه الأخبار باكتشاف عدد من اوراق التعاليم البوذية نفسها ، ولازال عدد من النسخ محفوظاً في المتحف البريطاني وابعاد هذه الأوراق (٨ / ٢) بوصة . هذا وان الورق الذي طبعت علية هذه التعاليم اقدم ورق صنع في اليابان .

ليس هناك شك انه تم اختراع الطباعة على لوحات خشبية محفورة في الصين قبل ظهور ذلك في اليابان بزمن طويل ، على الرغم من عدم وجود نماذج تثبت ذلك . ذلك ان الصين حكمها ابتداءً من سنة ٦١٨ م سلالة متنورة هي اسرة تانTang المشهورة التي كانت بوذية وازدهرت في عهدها الحضارة الصينية كل الازدهار ، وشجعت الفنون والاداب ، وطبق اباطرتها اساليب متحررة في معاملة الشعوب المحكومة ومنحوها الحرية الدينية المطلقة . ولقد اغتنم هذه الفرصة دعاة البوذية المتحمسون فنشروا تعاليم دينهم لفظاً ، بالوعظ والارشاد والخطابة ، وكتابةً ، بكتابة المواعظ ونشر النصوص الدينية وغيرها من الطرق . ولاشك انهم استعملوا طريقة الطبع باستعمال الحفر على الخشب لانتاج اكبر عدد ممكن من النسخ . وهذا سهل عليهم ولاسيما اذا تذكرنا ان الورق متوفر عندهم منذ القرن الاول الميلادي . ولقد اكتشف في تركستان الوف والوف من صور بوذا مرسومة بشكل مصغر على اوراق صغيرة طبعت عليها صورة بوذا بواسطة الاختام . ويبدو معقولاً وشبه مؤكد ان البوذيين انتقلوا بسهولة من الختم الصغير الذي يضغط باليد الى الصفحة الخشبية الواسعة المحفور عليها الاحرف والرموز في القرن السابع او الثامن الميلادي . ومن الممكن ان نعثر ، يوماً ما ، على نماذج تثبت ذلك .

ولكن عصر التسامح والازدهار هذا زال من الصين حوالي سنة ٨٤٥ م وحل محله عصر اضطهاد ديني شديد وطورد البوذيون وهدمت معابدهم وازيلت آثارهم ، ولعل هذا هو السبب في عدم وجود آثار مطبوعة عائدة الى هذا العصر .

هذا وان اقدم تاريخ مؤكد وثابت للطباعة في الصين هو سنة ٨٦٨ م وهو تاريخ يتأخر قرناً من الزمان عن تاريخ اقدم الاثار المطبوعة بواسطة الحفر على الخشب التي وجدت في اليابان . ولكن البرهان على هذه الطباعة ليس مجرد قطعة من الورق المطبوع ، وانما كتاب كامل مطبوع . ولقد اكتشف هذا الكتاب سير اوريل ستينAurel Stein في كهف في صحراء تركستان سنة ١٩٠٧ م . وهو محفوظ في المتحف البريطاني . وهو عبارة عن ترجمة صينية لما يدعى**لؤلؤة سوترا** ، وهو احد اشهر الكتب البوذية الدينية . وقد طبع الكتاب على شريط من الورق

طوله ١٦ قدماً وعرضه قدم واحد ، وهو مكون من سبعة اطباق من الورق الصق احدها بالآخر ، وله صفحة عنوان موضحة وملونة . ولقد اذهل جميع الباحثين انهم وجدوا في نهاية النص هذا القول (تم طبعه في الحادي عشر من ايار سنة ٨٦٦ م على يد وان شيشWang Chich ليصار الى توزيعه مجاناً ، وذلك اكراماً لذكرى والديه وتخليداً لهما) . وهكذا عرفنا اسم اقدم كتاب مطبوع واسم اقدم طابع للكتب لدينا سجل مكتوب عنه .

يدل اسلوب طبع هذا الكتاب على ان الطباعة بالحفر على الواح من الخشب قد مرت في فترة طويلة من التطور ، ذلك ان اسلوب الحفر على الخشب ووسائل الايضاح التي استعملت في طبع هذا الكتاب اسلوب متطور متقدم متقن دقيق مما يدل على ان الطباعة كانت قد وصلت آنذاك الى درجة جيدة من الرقي والتطور .

كذلك اكتشف في نفس المكان الذي اكتشف فيه كتاب**لؤلؤة سترا** ومعه مجموعة كبرى من المواد المطبوعة بالحفر على الخشب ، منها ثلاثة كتب مطبوعة فقط ، على حين ان البيانات والادعية المطبوعة على صفحة واحدة بالحفر على الخشب كثيرة جداً . ومن بين الكتب الثلاثة التي وجدت مع كتاب**لؤلؤة سترا** ، يوجد كتاب واحد هو اقدم ممثل معروف لشكل جديد من اشكال الكتب . انه كتاب صغير من الادعية البوذية يعود تاريخه الى سنة ٩٤٩ م وهو موجود ايضاً في المتحف البريطاني . لقد طبع هذا الكتاب على وجه واحد من شريط طويل من الورق ولكن قسم النص الى صفحات ، ثم طوي الشريط الورقي على شكل الاوكورديون . ثم لصقت ظهور الصفحات البيضاء مع بعضها ، وكانت النتيجة ظهور كتاب مشابه الى حد كبير لشكل ومظهر الكتاب الحديث . ولايزال هذا النوع من شكل الكتب معروفاً في الصين واليابان حتى ايامنا هذه .

هذا وان المقاطعة الصينية المعروفة باسم شوينSzechuen والتي اطلق عليها فيما بعد اسم شوهي مهد ظهور الطباعة في الصين . فقد ورد ذكر الكتب المطبوعة على لسان موظف صيني رآها هناك في تلك الولاية سنة ٨٨٣ م . ولقد كتب ذلك الموظف يقول بعد ان وصف محتويات تلك الكتب : اغلب هذه الكتب طبعت بواسطة ضغطها على الواح محفورة من الخشب ، واستعمل الورق في

طباعتها ، ولكن طباعتها سقيمة وغير واضحة الى حد يجعلها غير صالحة للقراءة .

ولقد تبنت الحكومة الصينية حركة الطبع هذه وجعلتها عملاً من اعمال الحكومة الرسمية . وقد بدىء في سنة ٩٣٢ م بطباعة مؤلفات كونفوشيوس فيلسوف الصين العظيم التي تعتبر من اعظم منجزات الثقافة الصينية عبر تاريخها الطويل ، وكان ذلك رغبة من الحكومة في نشر مؤلفات هذا الفيلسوف بين الشعب ، ولكن السبب الاهم هو رغبتها في الحصول على نص صحيح لهذه المؤلفات الخالدة ومنع التزوير والاخطاء منها حتى لايبقى في البلاد الانص واحد لها هو النص المطبوع الذي تنشره الحكومة . ولقد الفت الحكومة لهذه الغاية لجنة وطنية من كبار البحاثة في البلاد لهذا العمل . واختارت اللجنة النص وعهدت بطبعه الى احذق الطابعين الذين حفروه بمنتهى الدقة على الواح من الخشب ، واستمر العمل بهمة في هذا المشروع مدة واحد وعشرين عاماً حتى تكلل بالنجاح وصدرت مؤلفات كونفوشيوس وشروحها معها في ١٣٠ جزءاً سنة ٩٥٣ م . ولقد نسبت المأثورات الصينية الى فين تاوFêng Tao ، وهو رئيس الوزراء الذي امر بطبع مؤلفات كونفوشيوس سالفة الذكر ، شرف اختراع الطباعة . ولكن الحقيقة هو ان تاو لم يكن مهتماً بالطباعة لذاتها وانما كان مهتماً بها باعتبارها وسيلة ناجحة لغاية اساسية بالنسبة اليه وهي ايجاد نص دقيق ومعترف به رسمياً لمؤلفات كونفوشيوس .

لم يبق لدينا شيء من الكتب الكونفوشيوسية التي طبعت في ذلك العهد ، ولكن الطباعة على الواح من الخشب المحفور اصبحت هي السائدة في بلاد الصين . ولدينا الآن اقدم الواح من الخشب المحفور استعملت في الطباعة في الصين يعود تاريخها الى سنة ١١٠٨ م ، وهي محفوظة في متحف التاريخ الطبيعي في شيكاغو .

هذا ولقد اثرت صناعة اوراق اللعب وانتشارها في الصين في تطور وانتشار فن طباعة الكتب على الالواح المحفورة على الخشب . ان اوراق اللعب هذه ذات اصل صيني عريق وعرفت في الصين اول امرها باسم (ورق الزهر) او (الزهر

الطائر) . ولقد تطور زهر الطاولة هذا ببساطة الى احجار الدومينو ، ثم لما طبعت اشكال الزهر على الورق اصبحت هي اوراق اللعب .

هذا وان استعمال اوراق اللعب في الصين يعود تاريخه الى حدود سنة ٩٦٤ م وربما ابكر من ذلك بكثير . وكان يتم الحصول عليها بواسطة الطباعة على الواح محفورة من الخشب . ولقد انتقلت اوراق اللعب الى اوربا في اواخر القرن الرابع عشر واستعمل في صنعها نفس الطريقة .

ولكن هل يمكن الاستنتاج ان اوربا التي اقتبست اوراق اللعب عن الصينيين اقتبست طريقة صنعها عنهم ؟ لايمكن القطع برأي جازم في الموضوع ، ولكن الفرض ان الاوربيين اقتبسوا طريقة الطباعة بواسطة الحفر على الخشب عن الصينيين عندما اخذوا عنهم اوراق اللعب فرض يبدو وجيهاً كل الوجاهة ومعقولاً تماماً .

لقد انتشر فن الطباعة الثابتة بواسطة الحفر على الواح من الخشب شرقاً عن كوريا واليابان ، وغرباً عن البلاد الاسلامية واوربا .

ولقد استخدم شعب الصين وسكان اسيا الطباعة بهذا الشكل في اغراض كثيرة ، عدا طبع الكتب . فقد طبع الصينيون انفسهم بهذه الطريقة الاوراق النقدية بالملايين بين القرنين التاسع والثالث عشر . كذلك استعمل شعب الايغور من شعوب اسيا الوسطى الطباعة وأخذوها عن الصين وطبقوها في طباعة كتبهم التي تكتب بكتابتهم الالفبائية . ولكنهم استعملوا الاسلوب الصيني بدقة مما جعلهم عاجزين عن تطوير هذا الفن ليلائم كتابتهم الالفبائية . كذلك استعمل هذا الاسلوب في طباعة الادعية والحجب وغيرها من الاغراض .

ولقد حدث احتكاك واسع وتبادل مباشر بين اوربا والشرق الاقصى زمن حكم جنكيز خان وخلفائه منذ اواسط القرن الثالث عشر حتى اواخر القرن الرابع عشر . وعلى الرغم من ان طبيعة هذا الاحتكاك كانت عدوانية وعنيفة ، الا انه حدثت اتصالات ثقافية وتبادلات اقتصادية هامة . ولقد سقطت امبراطورية المغول سنة ١٣٦٨ م واغلقت الطرق من جديد بين اوربا وشرقي اسيا . والاعتقاد السائد هو ان الحفر على الخشب كطريقة للطباعة اذا كان انتقل الى اوربا

عن طريق الشرق فيجب ان يكون قد انتقل اليها حول ذلك التاريخ . ولعل اوراق اللعب انتقلت الى اوربا عن طريق الصليبيين الذين شاهدوها في اسيا الصغرى ، او لعلها اتت الى اوربا عن طريق الروس الذين كانوا تحت النفوذ المغولي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . ولكن لا يوجد براهين على ذلك .

كذلك اكتشف في مصر ، في حفريات اجراها علماء نمساويون قرب الفيوم مجموعات كبرى من الوثائق يمتد تاريخها عبر سبعة وعشرين قرناً من الزمان ؛ فاقدمها تاريخه القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، واحدثها تاريخه القرن الرابع عشر الميلادي . هذه المجموعة موجودة في المكتبة الوطنية في فينا . ولقد وجد ضمن هذه المجموعة من الوثائق الوف القصاصات من الورق ؛ حوالي خمسين منها مطبوعة بطريقة الحفر على الخشب . وان لغة هذه القصاصات جميعها هي اللغة العربية وهي تحوي مقتبسات من القرآن الكريم والاحاديث الشريفة وبعض الادعية . . . وان اغلب هذه النصوص كانت تحوطها تزيينات ، ويختلف اسلوب الكتابة اختلافاً كبيراً . وقد أرخت هذه النماذج حسب انواع خطوطها بين سنتي ٩٠٠ و ١٣٥٠ م .

ليس هناك برهان عن اصل الطباعة الخشبية في مصر وتاريخها ، ولكن الرأي السائد أنها ربما اتت من الصين الى مصر عن طريق فارس . كذلك لايوجد اي دليل على وجود صلة او علاقة بين ظهور الطباعة في مصر بهذا الشكل وبين ظهورها في اوربا ، وكل مايمكن قوله في هذا المجال هو ان هناك شبهاً كبيراً جداً بين نماذج الطباعة التي اكتشفت في مصر وبين بدايات هذا الفن في اوربا ؛ او ربما احذ الاوربيون هذه الطريقة عن المصريين الذين كانوا آنذاك على احتكاك مستمر واتصال مباشر باوربا عن طريق موانىء ايطاليا وخاصة البندقية وجنوة .

كذلك اخترعت في بلاد الصين الطباعة بحروف متحركة كما اخترعت فيها الطباعة الثابتة بواسطة الحفر على الالواح الخشبية . ولقد تقدم هذا الاختراع الصيني للاحرف المتحركة وسبق اختراع غوتنبرغ باكثر من اربعمائة سنة . هذا ويسمى موجد هذا الاختراع العظيم بي شين Pi Sĥng وقد صنع حروفه من الصلصال المشوي لامن المعدن .

لقد ذكر هذا الاختراع عدد من المؤرخين الصينيين واولهم واهمهم المؤرخ شين كواShên Kua الصيني الذي كان معاصراً للمخترع ولعله كان صديقاً شخصياً له . كذلك ايد المؤرخون الآخرون ماذكره شين كوا عن الاختراع والمخترع . وهناك أيضاً سجلات تذكر صنع الحرف من معدن التوتياء . ولكن لم تعط هذه الحروف ولا الحروف المصنوعة من الصلصال المشوي نتيجة مرضية في الطباعة وذلك بسبب استعمال الحبر المائي الملون . ولذا ظلت طريقة الطباعة الثانية بالضغط على الالواح الخشبية المحفورة مستمراً على الرغم من اعتراض بي شين . وهناك سجل آخر يذكر ان وان شين Wang Chêngصنع الاحرف المتحركة من الخشب . وقد قيل ان وان جعل مطبعته بشكل دوار ، وانه اوجد اكثر من ستين الف حرف لطباعة كتاب في الزراعة ولطباعة كتب اخرى . ولكن هذه الرواية لاتزال تحتاج الى كثير من الدعم والتمحيص والتدقيق ؛ ولذا تبقى حكاية هذا الاختراع مرجوحة وغير مؤكدة وبحاجة الى اثبات .

ومع هذا فانه لايوجد شك البتة في ان الحروف الطباعية الخشبية المتحركة قد صنعت في الصين لانه تم الكشف عن بعضٍ من هذه الاحرف الطباعية نفسها ويعود تاريخها الى القرن الرابع عشر . وعلى الرغم من ان هذه الحروف الطباعية قد صنعت في الصين نفسها ، الا انها ليست حروف اللغة الصينية وانما هي حروف لغة الايغور ، وهم شعوب مستوطنة في اسيا الوسطى وحروفهم هذه حروف هجائية مشتقة من الارامية ، ولكن الحروف الطباعية المكتشفة تمثل كلمات لاأحرفاً .

ولم تنتشر هذه الطريقة في الصين انتشاراً كبيراً ، ويعود ذلك الى طبيعة الكتابة الصينية اذ يستعمل شعبها عدداً كبيراً جداً من العلامات والرموز ، حتى انه كان يلزم لطبع كتاب عادي عدد يتراوح بين اربعة الاف وخمسة الاف حرف .

ولكن هذه الشعلة لم تخب وانما انتقلت الى كوريا . فقد ازدهرت الحياة الادبية في كوريا في القرن الرابع عشر تحت ظل حكم اسرة يي Yi . ونجد في الحوليات الكورية سنة ١٣٩٢ م ذكراً لتأسيس مديرية للكتب ، من بين مهامها ومسؤولياتها صنع الاحرف المتحركة وطبع الكتب . هناك سجلات تذكر اختراع

الطباعة في كوريا باحرف متحركة طباعية في النصف الاول من القرن الثالث عشر . لذا يبدو ان هذا النشاط الذي تم في القرن الرابع عشر في حقل طباعة الكتب بالأحرف المتحركة هو انعاش لاسلوب من الطباعة كان مستعملاً ثم اهمل . ولقد تم صنع الاحرف الطباعية في هذه الفترة الاخيرة من المعدن . ولقد بدأت مديرية الكتب عملها سنة ١٤٠٣ م بعد شيء من التأخر . ولقد تم صنع بضعة مئات الالوف من الحروف الطباعية . ولقد صدر بين سنتي ١٤٠٣ و ١٤٥٥ م احد عشر مرسوماً ملكياً كلها تتعلق بمسائل الطباعة بالاحرف الطباعية المتحركة . ولقد صنعت في سنة ١٤٢٠ م احرف طباعية متحركة صغيرة الحجم ، ولكن وجد ان قراءتها صعبة وتتعب العين ولذلك اهملت وصنع عوضاً عنها احرف طباعية متحركة كبيرة الحجم في سنة ١٤٣٤ م . ولم يمض شهران الا وصنع مائتا حرف طباعي متحرك من الحجم الكبير .

ولاشك انه تم طبع عدد كبير جداً من الكتب في كوريا خلال تلك الحقبة المجيدة من تاريخها ولايزال موجوداً حتى الان عدد كبير من هذه الكتب في الاديار الكورية واليابانية .

كذلك توصل االكوريون الى صنع احرف طباعية متحركة تمثل حرفاً واحداً لامقطعاً . ذلك ان الرهبان البوذيين ادخلوا الى كوريا اعداداً غفيرة من الكتب المكتوبة بالكتابة السنسكريتية والكتابة التيبتية وازدهرت فيها دراسة الاداب الاجنبية . وقد تعلم العلماء الكوريون قراءة الكتابات ذات الاحرف الهجائية . واخيراً ظهرت الى الوجود الفبائية كورية صوتية في النصف الاول من القرن الخامس عشر . ولقد تم صنع احرف طباعية متحركة لهذه الالفبائية . وعندنا ذكر لكتاب وحيد جرى طبعه بهذه الاحرف وكان ذلك سنة ١٤٣٤ م .

كذلك صنع الكوريون قوالب لصناعة الاحرف الطباعية المتحركة واستخدموا الرمل في صنعها ، ولكنها لم تكن متطورة وأميل الى البدائية منها الى الجودة .

ولقد زال فن طباعة الكتب بالاحرف الطباعية المتحركة من كوريا في حدود سنة ١٤٥٥ م ولكنه لم يلبث ان عاد اليها سنة ١٧٧٠ م . كما وان اول كتاب طبع

في اليابان باحرف متحركة تم سنة ١٥٩٦ م ثم لم يلبث ان زال منها هذا الفن سنة ١٦٢٩ م .

وعلى الرغم من اهمية ما تم اكتشافه واختراعه في بلاد الشرق الاقصى ، الا ان هذه البلاد عجزت عن نشر وتطوير هذا الاختراع ، وذلك بسبب طبيعة كتابتها المقطعية التي تجعل من المستحيل تطويرها ، وكذلك بسبب الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها تلك البلاد . وبالرغم من ان اختراع اوربا للطباعة بأحرف معدنية متحركة قد تم بعد الختراع بلاد الشرق الاقصى له بزمن طويل ، الا انه لايوجد ، حتى الان ، أدنى دليل على ان اوربا اخذت هذا الاختراع عن بلاد الشرق الاقصى او تأثرت به . لقد عجزت بلاد الشرق الاقصى عن تطوير هذا الاختراع ونشره والاستفادة منه . ولكن اوربا ، بحروفها الهجائية تمكنت ان تحقق هذه الخطوة ، وفتحت بذلك عهداً جديداً في تاريخ الانسانية الثقافي .

الفصل الثامن

مقدمات الطباعة في أوربا

لقد شاهد القرن الخامس عشر في أوربا قدوم ثاني أهم حادثة في تاريخ تطور الاتصال الكتابي في تاريخ الانسان ، وبالتالي ثاني اهم حادثة في تاريخ الكتب والمكتبات ، فقد كانت الحادثة الاولى اختراع الكتابة ، اما الثانية فهي اختراع الطباعة باحرف متحركة في العالم الغربي . وبينما جعل اختراع الورق وصنعه اختراع الطباعة ممكناً ، فان اختراع الطباعة هو الذي اشاع واذاع استعمال الورق .

هذا وان الحماس الذي اثارته النهضة للتعلم استدعى طلباً متزايداً على الكتب لم يكن بامكان النسخ المخطوطة ان تلبيه او تسد حاجته ، وان الحاجة الى اسلوب جديد واسرع لنقل الافكار والمعرفة واذاعتها كانت ملحة وآنية . ولذلك ظهرت اولاً الطباعة اللوحية ومن بعدها الطباعة باحرف معدنية متحركة .

يرجع تاريخ الطباعة على الواح محفورة من الخشب في اوربا الى القرن الرابع عشر ، ويمثل هذا النوع من الطباعة صور الزعماء الدينيين وطباعة اوراق اللعب . ولايعرف بالضبط من اين اتت اوربا فكرة الطباعة هذه ، ولعلها اتتها عن طريق الصليبيين الذين شاهدوها في بلاد الشام واسيا الصغرى او لعلها أتتها عن طريق الروس الذين كانوا تحت النفوذ المغولي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، او لعلها اتتها عن طريق القوافل التي رجعت من بلاد الشرق الاقصى الى اوربا ومعها هذه النماذج .

هذا وان صور الزعماء الدينيين هي اقدم ممثل لهذا النوع من الطباعة وجدت في اوربا بشكل مؤكد . واول طبع للصور بطريقة الطباعة اللوحية تم في الاراضي

الواطئة . فقد كانت تطبع صور القديسين لتوزيعها على الفقراء لمساعدة الوعاظ في تثبيت مواعظهم في نفوس من يعظونهم . وكانت الصور اول امرها دينية محضة مثل صور السيد المسيح او امه او القديسين .

هذا وتعتبر صورة القديس كريستوفر التي صورت وطبعت بهذه الطريقة من اشهر اوائل الصور الاوربية اللوحية . وقد وجدت نسخة منها بمحض الصدفة داخل جلد خشبي للكتاب المقدس يعود تاريخ الصورة الى حوالي ١٤٢٣ م . وقد رسمت صورة القديس كريستوفر على ورق من حبر بني وهو يحمل السيد المسيح وهو طفل وهو يعبر جدولاً من الماء ، ويحمل كريستوفر في يده غصن نخيل كعصا ، وفي الزوايا الاربعة للصورة يوجد رسوم صغيرة تناسب الموضوع . وكتب تحت الصورة سطران باللسان اللاتيني . كذلك تعتبر صورة (مادونا مع القديسين الاربعة في الحديقة) (سنة ١٤١٨ م) مثلاً آخر نادراً على اقدم اشكال طبع الصور الدينية بالضغط على الالواح . والصورة محفوظة في المكتبة الملكية في بروكسل . ووجدت كذلك بطاقات تهنئة بحلول العام الجديد مطبوعة بواسطة الحفر على الخشب . وصورت صور الموت وطلوع الروح وأحوال النزاع في اشكال كثيرة .

ولقد صممت هذه الصور وحفرت على الخشب ليجري تلوينها بالالوان بعد طباعتها ، ولكن قسماً كبيراً منها لم يتم تلوينه وذلك بسبب الطلب المتزايد عليها مما ادى الى طباعتها بسرعة . ولقد تعاصر مع طباعة هذه الموضوعات الدينية طباعة اوراق اللعب التي طبعت بواسطة الطباعة اللوحية ، وفاقتها في الاهمية . ذلك ان عادة اللعب بالقمار واللعب بالورق انتشرت منذ القرن الثاني عشر في فرنسا ومنها انتقلت الى ارجاء اوربا . ولقد انتشر اللعب بالقمار ولعب الورق انتشاراً كبيراً حتى اضطر الملوك والاباطرة الى تحريم اللعب بالورق ولعب القمار . فعندنا سجل يذكر اوراق اللعب في المانيا سنة ١٣٧٧ م وقد صدرت عدة مراسيم تحرم استعمالها في نورنبرغ سنة ١٣٨٠ م وفي اولم سنة ١٣٩٧ م وفي اوغسبرغ سنة ١٤٠٠ م . ولقد كان انتاج اوراق اللعب يتم اولاً بشكل يدوي بسيط ، ولكن الطلب المستمر المتزايد على هذا النوع من اوراق اللعب وانتشار استعمالها وخاصة بين طبقات

العمال اقتضى ايجاد وسائل اقتصادية لانتاجها بكميات كبرى ، لذا لجأ الصناع الى ايجاد الواح محفورة وطبع اوراق اللعب عليها مع تلوينها . وان اقدم مثل حي على اوراق اللغب المطبوعة بهذه الطريقة تعود لسنة ١٤٥٥ م . وان الدافع الذي قدمه اختراع ورق اللعب للطباعة اللوحية كبير ومهم .

ولقد قدم اختراع وانتاج اوراق اللعب بطريقة الطباعة اللوحية ، في نفس الوقت ، الفرصة لانتاج صور مقدسة وصور مناظر دينية مطبوعة على مقياس واسع . ولقد ارضت هذه الصور الشعور الديني لدى الطبقات الدنيا من المجتمع الاوربي ، ذلك الشعور الذي استيقظ آنذاك وتطلب ارضاؤه انتاج مثل هذه الصور . ويبدو غريباً ان نقول ان انتاج الصور الدينية سار جنباً الى جنب مع انتاج اوراق اللعب ، وكان صناع اوراق اللعب هم انفسهم صناع الصور الدينية ، وقد صنعت اوراق اللعب والصور في نفس المعامل واستخدم في انتاجها نفس الادوات والاساليب واشتراها نفس البشر .

ولقد زاد عدد الحجاج في نهاية القرن الرابع عشر عندما وسع البابا بونيفاس التاسع دائرة الأماكن التي يمكن أن يحج إليها المسيحيون . ولذا بدأ صناع وعمال الطباعة في انتاج صور للاماكن المقدسة مطبوعة بواسطة الضغط على الخشب المحفور وبيعها للحجاج بكميات غزيرة ، وكان الحجاج يشترون هذه الصور ويحتفظون بها للتبرك .

ونحب ان ننوه هنا ان جميع الاشياء التي طبعت في اوائل القرن الخامس عشر لم يتم طبعها بواسطة الضغط على الواح محفورة من الخشب ، اذ ان بعضها على الاقل ، كان يتم طبعه بايجاد صفحة من النحاس حفرت عليها الاشياء التي يراد طبعها ، ثم طبعت المواد عنها . كذلك استعمل في بعضها النقش والحفر البارز على المعدن . ولقد تم حفر الاحرف على المعدن بنفس الطريقة التي كانت مستعملة للحفر على الخشب . ولقد كان المشتغلون بمثل هذا الحفر هم الصاغة ومن هم على شاكلتهم من عمال الطباعة .

كذلك وجد نوع خاص من هذه المطبوعات على ورقة واحدة . وهو المطبوعات بالعجينة . وتنحصر هذه الطريقة التي اخترعت في المانيا في ضغط لوح

الطباعة المكون من صفيحة معدنية محفورة ومغطاة بالحبر الاسود على الورق المغطى بعجينة لينة سريعة الجفاف . وكان تلوين العجينة يزيد من التأثير الذي تحدثه هذه الصور التي كانت تمثل مناظر دينية . ولم يبق من هذه المطبوعات بالعجينة الا مايقرب من المائة وخمسين صورة كلها في حالة سيئة .

الكتب اللوحية الاولى :

لم يبق على الانتقال من الطبع على الورقة الواحدة ، الى طبع الكتاب ذي الصفحات المتعددة غير مجرد خطوة واحدة . ولقد تم ذلك وخطيت هذه الخطوة في منتصف القرن الخامس عشر عندما تم طبع سلسلة من الصور وارفق بها نص يشرحها وجمعت كلها في كتاب وذلك بطريقة الالواح الخشبية او المعدنية وسميت باسم الكتب اللوحيةBlock Books . وتعتبر الاراضي الواطئة اولى البلدان التي ظهرت فيها الكتب اللوحية قبل غيرها ومنها انتشرت في ارجاء اوربا ، ويؤرخ ظهور هذه الكتب عادة بين سنتي ١٤٢٠ و ١٤٤٠ م . ولم يبق من هذه الكتب الا النذر اليسير ، فكل ماوصلنا منها هو ثلاثة وثلاثون كتاباً . ولما كان من المتعذر طبع الصورة على وجهي الورقة فقد جرت العادة ان تجمع الصفحات المطبوعة وان تلصق ظهراً لظهر احداهما مع الاخرى . وفيما بعد عندما بدىء في استعمال المكبس في طبع الالواح امكن طبع اللوحة على وجهي الورقة . ولقد انتشرت الكتب اللوحية كل الانتشار وازدهرت في الستينات والسبعينات من القرن الخامس عشر ولكنها انحطت في اواخر القرن الخامس عشر واستمرت في الوجود حتى اوائل القرن السادس عشر . ولقد ظهر آخر ممثل لهذا النوع من الكتب اللوحية في حدود سنة ١٥٣٠ م . ولقد استمر استخدام الطباعة اللوحية في انتاج اوراق اللعب حتى القرن الثامن عشر .

هذا وان الغاية من أوائل الكتب اللوحية كانت جعل قصص وتعاليم التوراة شعبية متداولة بكثرة في أيدي الطبقة الشعبية حتى أن الأشخاص الأُميين أو شبه الأُميين كانوا يستطيعون فهمها .ولقد كانت تصنع أول أمرها ، بالكتابة وترسم فيها المناظر الدينية باليد . ولما اتى الحفر على الخشب أو المعدن اتبع الصناع نفس الطريقة في الكتابة والتزيين فحفروا ذلك على الخشب أو المعدن ثم طبعوا العدد

المطلوب .

ولاشك ان عدد الكتب التي طبعت بهذه الطريقة كان كبيراً جداً لانتشارها بين طبقات الشعب لانها تناولت بصفة عامة الادب الشعبي . صحيح ان اغلب نصوصها كتبت باللاتينية ، الا ان صورها كانت اهم مافيها وخاصة في الكتب التعليمية العديدة التي كان يستخدمها صغار القساوسة في التعليم . فقد كان اغلبها صوراً مع شرح بسيط للصورة باللاتينية اسفل الصورة او حولها .

كانت قصص التوراة مع دروس وعظات أخلاقية أكثر الكتب رواجاً وشعبية وكانت أكثر الكتب رواجاً كتاب **توراة الفقراء** Biblica Pauperum وكتاب **مرآة الخلاص الانساني** Speculum Humanae Salvationis وكتاب **فن الموت** Ars Moriendi .

وقد انتشر كتاب فن الموت كل الانتشار وطبع اثنتي عشر مرة . ولقد اختلفت الصور بعض الاختلاف في كل طبعة من هذه طبعات على حين ظل النص تقريباً كما هو . وقد حوى هذا الكتاب نصوصاً باللاتينية والفرنسية والالمانية . ولقد وجدت من هذا الكتاب طبعات تحوي النص والصور مطبوعة على وجه واحد من الورقة ، ووجدت طبعات اخرى مطبوعة على الوجهين . وكانت الصور مخيفة تمثل الشيطان وهو يحاول جذب الشخص المتوفى اليه والملائكة وهي تحاول انقاذ روحه . وتدل صور هذا الكتاب على تقدم ملحوظ في فن الحفر .

كذلك انتشر كتاب**توراة الفقراء** انتشاراً واسعاً ووجد منه عشر طبعات . هذا وان موضوعات هذا الكتاب مستمدة من العهدين القديم والجديد ، وهناك تركيز على حياة السيد المسيح وتمثل الصور المشاهد وتشرح النصوص المأخوذة من التوراة هذه النصوص . وتمثل الصور الصراع بين الشيطان والسيد المسيح وانتصار السيد المسيح .

لم تكن الكتب اللوحية غالية الثمن ولذلك كانت شعبية وكانت تباع باعداد كبيرة جداً .ولقد استمر انتاج وطبع الكتب اللوحية فترة طويلة بعد اختراع الطباعة بالحروف المتحركة وحتى نافستها في بعض المجالات ، ولقد وقع صدام

بين صناع الطرفين واضطر اخيراً صناع الكتب اللوحية الى التسليم بالهزيمة .

هذا وان صعوبات العمل الفني والحاجة الى انتاج غزير رخيص انعكست في مواصفات الكتب اللوحية والصور ووسائل الايضاح التي رافقتها حيث تشعر انها قاسية صلبة وملامح الصور غير طبيعية ، ويكاد الظل يكون فيها معدوماً . هذا وعلى الرغم من ان اختفاء هذا النوع من الطباعة عزي الى تقدم فن الطباعة المتحركة ، الا انه يجب ملاحظة ان طبيعة الالواح نفسها لعبت دوراً مهماً في هذا الاختفاء ، فقد كانت هذه الالواح هشة قابلة للكسر والتفتت وسرعة السخونة والعفونة وغير ذلك من الافات مما يجعل حياتها المنتجة قصيرة .

كذلك لابد من ذكر لنوع آخر من الكتب اللوحيةالتي انتشرت كل الانتشار في اوربا خلال القرن الخامس عشر وهي كتب المدارس الاولية . وكان الكتاب الواحد يتكون من عدة صفحات من الرق تحتوي على حروف الهجاء والصلوات الرئيسية المسيحية . ولقد اختفت هذه الكتب رغم انها كانت واسعة الانتشار . ومن اشهر الامثلة على الكتب التعليمية التي كانت ذائعة الانتشار هو كتاب**قواعد نحو اللغة اللاتينية** المسمى دوناتDonat نسبة الى النحوي اللاتيني المسمى اليوس دوناتوسAelius Donatos .

كذلك يجب ذكر الطباعة على النسيج والقماش باعتباره احد اسلاف الطباعة المتحركة . ويبدو لنا ان اسلوب الطباعة على النسيج قد ظهر في اغلب الاماكن التي اسست فيها معامل النسيج . وقد بدأ هذا النوع من الطباعة يظهر منذ القرن الخامس الميلادي في مصر ، ووجدت امثلة منه في مصر والهند والصين بين القرنين الخامس والثامن الميلاديين . ويبدو ان هذا الفن فقد في اوربا ولم يعد اليها الا في القرن الثالث عشر .

وكانت عملية الطبع على القماش مشابهة لعملية الطبع على الورق . وقد ظهرت في اوربا مع ظهور الطباعة بالحفر على الخشب او لعلها ابكر بقليل .

ولابد ان نذكر هناان اوربا كانت آنذاك مهيأة لاختراع الطباعة وكانت شروطها الثقافية والاجتماعية تستدعي مثل هذا الاختراع وتشجع عليه . فقد استيقظت اوربا على طبول النهضة ونما الطلب على الكتب بشكل متزايد . وان

اي اختراع لابد له ، كي ينجح ، من وجود شرطين اساسيين في المجتمع الذي يولد به : الاول وجود مواد يستعملها المخترع حتى يبرز فكرته الى النور ، والثاني حاجة المجتمع الى ذلك الاختراع ، والا اهمل ذلك الاختراع واصبح مصيره الى الاهمال والنسيان اذا لم يكن ذلك المجتمع بحاجة اليه او لم يكن ناضجاً او مستعداً لتقبل ذلك الاختراع واستعماله والاستفادة منه . ولعل هذا الشرط اكثر اهمية من الشرط الاول .

وان القاء نظرة على الشروط السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي كانت سائدة في اوربا آنئذٍ قد يوحي بفكرة عن المكان الذي تم فيه اختراع الطباعة باحرف متحركة لاول مرة واحواله واوضاعه .

فقد كانت المانيا لاشيء اكثر من مجرد اصطلاح جغرافي في اواسط القرن الخامس عشر مؤلفة من عدد كبير جداً من الامارات الصغيرة يرأسها شبح هو امبراطور الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة . كذلك كانت ايطاليا مقسمة الى عدد كبير من الدول وغارقة في فوضى سياسية ، ولكن اسس الادب الاوربي الحديث كان قد غرسها في ايطاليا قبيل ذلك عدد من الادباء العظام امثال دانتي وبترارك وبوكاشيو الذين الفوا كتبهم بلغة الشعب لاباللغة اللاتينية التي كانت لاتزال لغة الباحثين ولغة الكنيسة . وكانت البندقية رئيسة الدول التجارية في اوربا آنذاك . وقد خرجت فرنسا لتوها من حرب المائة عام ضد انكلترا وتمكنت من تحرير كافة اراضيها من سيطرة الانكليز . ومع ذلك كانت فرنسا لاتزال مجتمعاً اقطاعياً يتحكم كل اقطاعي في اراضيه وممتلكاته ، وكبير الاقطاعيين هو الملك . ووجد آنذاك في اسبانيا النصرانية اربع امارات كانت تحارب مملكة غرناطة الاسلامية باستمرار وتمكنت هذه الدول ان تتوحد في دولة واحدة وان تنهي الوجود الاسلامي في اسبانيا عندما سقطت غرناطة آخر معقل اسلامي بيد الاسبان سنة ١٤٩٢ م . اما انكلترا فكانت آنذاك هزيلة بعد طردها من اوربا وتحرير الفرنسيين اراضيهم من احتلالها ، وان يكن ظهر قبيل ذلك تشوسر الذي عرف باسم أبي الشعر الانكليزي ، اذ انه نظم اشعاره باللغة الانكليزية لا اللاتينية . وتوفي تشوسر سنة ١٤٠٠ م . وكانت روسيا لاتزال مجرد تعبير جغرافي وغارقة في

فوضى رهيبة ، ولم تتحول اقسام من النروج والسويد والدانمرك الى النصرانية الا حديثاً . وكانت اوربا تجهل اشياء كثيرة من الشرق وعن الشرق ولاسيما الطرق الموصلة اليه ؛ فلم يتمكن الاوربيون من الدوران حول افريقية والوصول الى الهند الا في اواخر هذا القرن ، ولم تستكشف امريكا الا في سنة ١٤٩٢ م . وكانت اوربا كلها ترجف امام قوة الاتراك الزاحفة التي احتلت القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م وتابعت تقدمها في البلقان .

ولقد اعتبر سكان اوربا القرن الخامس عشر قرناً مظلماً اسود ، ولكنه بالحقيقة لم يكن كذلك ، فقد اخترعت فيه الطباعة وبدأت فيه النهضة في ايطاليا ومنها انتشرت في ارجاء اوربا . كذلك نشط العلماء في طول اوربا وعرضها لدراسة ليس فقط الاداب النصرانية وحدها ، وانما ايضاً الاداب الكلاسيكية والوثنية . ولقد احضر العلماء البيزنطيون الذين هربوا من القسطنطينية قبيل سقوطها بيد الاتراك روائع الادب اليوناني الى اوربا التي كانت نسيت اليونانية . ولقد شاهد هذا القرن ولادة حركة الاستكشافات الكبرى التي بدأت في اواخره .

وشاهد هذا القرن عدداً من الحركات هدفها اصلاح الكنيسة النصرانية في اوربا ، ذلك ان الكنيسة غرقت في فوضى عنيفة وتمزق وانقسام وانحطاط في القرن الرابع عشر ، وبلغ الكهنة ادنى درجة انحطاطهم . ولذا بدأت في هذا القرن محاولات لاصلاح هذه الاحوال والقضاء على الفساد والفوضى والجهل ، وتشكلت انظمة كنيسة همها رفع مستوى الكنيسة ورجالها والقضاء على المفاسد فيها .

كذلك كان من حسن حظ مخترع الطباعة ان وجد المواد اللازمة لاختراعه واهمها :

الورق : ذلك ان صناعة الورق كانت قد انتشرت في اوربا قبيل ذلك كما بينا آنفاً .

المكبس : الذي يجب استعماله لتثبيت وضغط حروف الطباعة الملونة بالحبر على صفحات الورق ، وقد كان هذا النوع من المكبس معروفاً في اوربا ومستعملاً فيها آنذاك من اجل عصر الزيتون واستخلاص الزيت منه .

واخيراً : صناع حاذقون قادرون على انجاح عملية صهر الحروف وذلك بايجاد جهاز خاص لذلك الغرض ، وهذا ما كان متوفراً في اوربا آنذاك .

ولقد استفاد مخترعوا الطباعة من كل هذا المعطيات التي وجدوها في مجتمعهم واوجدوا اختراعهم الذي يعتبر من اعظم الاختراعات الاساسية في تاريخ الانسانية كلها .

واذا قلنا ان المخترع استفاد من جميع العناصر والمواد التي كانت موجودة ، او انه وجدجميع عناصر اختراعه موجودة ، فهذا لايعني اننا نقلل من قيمة اختراعه او من اهميته او عظمته ، على العكس من ذلك تماماً ؛ فان الشخص العظيم حقاً هو الذي يستفيد من جميع معطيات عصره ويحسن استعمالها والاستفادة منها من اجل الاتيان بشيء جديد لاوجود له من قبل . وهذا هو الحال في اختراع الطباعة الذي ربما لايفوقه اختراع آخر في تاريخ الانسانية قاطبة .

الفصل التاسع

الطباعة بأحرف متحركة في أوربا واختراعها ومخترعيها جوهان غوتنبرغ

لايوجد في تاريخ الانسانية كلها اختراع يفوق في آثاره اختراع الطباعة بالاحرف المتحركة ، سواء اكانت تلك الآثار ايجابية ام سلبية ، جيدة ام سيئة . ولاادل على ذلك مما نشاهده في ايامنا هذه من الرقابة الصارمة بل الحصر المركز الذي تفرضه اغلب الحكومات ، وبشكل خاص الدول الشيوعية والاشتراكية والدول التي تدور في فلكها ، على المطبوعات في بلادها بقصد منع شعوبها وافرادها من الاطلاع الا على ماتريده حكومات تلك الدول من آراء ومبادىء ، وبقصد توجيه اراء ونشاطات شعوبها العقلية في الاتجاه الذي تريده تلك الحكومات . ولذا توجد اهمية خاصة لمعرفة مخترع هذا الاختراع العظيم واين ومتى تم ذلك الاختراع . وتبقى مشكلة معرفة المخترع من المشاكل التاريخية ذات الاهمية البالغة .

لقد رأينا سابقاً كيف ان الطباعة ، وحتى الطباعة باحرف متحركة ، تم اختراعها في بلاد الصين وكوريا في زمن مبكر عن ظهور الطباعة في اوربا ، ولكننا رأينا ولاحظنا الظروف الاجتماعية التي كانت سائدة هناك لم تساعد في تأصل هذا الاختراع وانتشاره في تلك البلاد . لذا يمكن اعتبار ظهور الطباعة في الشرق الاقصى شيئاً انعزالياً لم يكن له تأثير على مجرى الحضارة العالمية ، على حين ان اختراع الطباعة الذي تم في اوربا حوالي منتصف القرن الخامس عشر هو الذي فتح عهداً جديداً في تاريخ العالم الفكري والحضاري .

ومع ذلك لم يكن لظهور الكلمة المطبوعة ، اول ما ظهرت في اوربا ، تلك الاهمية التي نفترضها ومرت تلك الحادثة العظيمة بصمت وعدم اكتراث بحيث لم تترك صدىً تاريخياً واضحاً وذلك فيما يتعلق بابتدائها . ولم تأت نهاية القرن

الخامس عشر الا وانتشر فن الطباعة - ويسمى ايضاً الفن الاسود نسبة للمداد الاسود الذي يستعمل في طبع الاحرف - في كل اوربا الغربية . ولكن مخترع الطباعة الاول الذي كان يمتلك في يديه جميع وسائل الدعاية والاعلان عن نفسه وعن فنه ، ظل غارقاً في غموض لاندري ماسببه وكيف نسميه . وهكذا فنحن نجهل تقريباً أين ومتى بدأت الطباعة لاول مرة في اوربا . وعندما يرتفع السؤال :(من الذي اخترع الطباعة ؟) فان الجواب هو اننا لانعرف بالضبط من هو اول شخص صنع الاحرف المتحركة في اوربا وطبع بها .

ولقد جرت ابحاث ضخمة تاريخية قام بها عدد كبير من البحاثة وبذلت جهود مضنية من اجل معرفة الشخص الذي تمت على يديه في اوربا الطباعة باحرف متحركة لاول مرة . وبعد ابحاث كثيرة وجهود مضنية ودراسات مستفيضة ثبت ان جوهان غوتنبرغ هو الشخص الذي يستحق ان ينسب اليه شرف اختراع الطباعة باحرف متحركة في اوربا اكثر من اي شخص آخر . هذا مع العلم انه لاتوجد قطعة واحدة من المطبوعات التي تنسب اليه تحمل اسمه ، كما وانا لانجد ذكراً لغوتنبرغ في الفهرس الكبير الذي اعده المتحف البريطاني لاسماء اوائل الطابعين واعمالهم . ومع ذلك ، فان من المرجح والاعم الاغلب ، مالم تكتشف وثائق جديدة ، ان مخترع الطباعة الاول بأحرف متحركة في اوربا هو غوتنبرغ .

لايوجد لدينا وثيقة واحدة تثبت متى ولد غوتنبرغ ومتى توفي . والاخبار المتعلقة بحياته ونشأته ونشاطاته نادرة ومتضاربة . ولااحد يعرف اين دفن . ولقد اقيم في منيز متحف يحمل اسمه ويضم معروضات من طباعته مع حوالي خمسين صورة له . وقد ادعى بعض البحاثة ان قسماً ضئيلاً جداً مما حواه المتحف يعود لغوتنبرغ حقيقة .

ليس ما نورده فيما يلي عن حياة غوتنبرغ الا نبذة صغيرة تحوي بعض الحقائق الاكثر ثباتاً في الموضوع . فهو ينتمي الى اسرة كريمة من الطبقة الوسطى تدعى اسرة جنسفلايشGensfleish من مدينة منيز ، وقد ولد غوتنبرغ نفسه في منيز في حدود سنة ١٤٠٠ م . وهناك من يذكر انه ولد سنة ١٣٩٧ م . ولقد كانت امه

من اسرة نبيلة وكان اسمها ثزوم غوتنبرغZum Gutenberg . ولقد اتخذ جوهان اسم اسرة والدته نسبة له وذلك حسب عادات العصر التي كانت سائدة آنذاك . ولقد حدثت ثورة في منيز اثناء طفولة جوهان اضطرت اسرته على اثرها الى ترك البلدة . ويبدو ان جوهان استقر في ستراسبورغ في حدود سنة ١٤٣٠ او ١٤٣٤ م . وهناك عاش عيشة هادءئة من دخل له ، الى جانب ماكان يحصله من عمله في صناعة المرايا . كذلك يبدو انه اشتغل مع آخرين في ستراسبورغ في نشاط يشبه الطباعة ، وان كنا لانعلم شيئاً عن الموضوع ، وانما اخذت هذه المعلومات من ملف دعوى قضائية رفعت ضده من اجل رأس مال مدفوع ادعى به عليه احد شركائه في العمل . وحكم عليه في حدود سنة ١٤٤٠ م بسبب عجزه عن تعليم اثنين من شركائه القدامى في قضية سرية ، وهي غير مسماة ، ولكن يعتقد انها الطباعة المتحركة . ويقول احد المصادر انه اسس مطبعة سنة ١٤٣٨ م وبدأ في الطباعة .

وهناك عدد من البقايا يعتقد بعض العلماء انه طبعها في ستراسبورغ ،ولكن لايوجد اجماع على ذلك . ورجع غوتنبرغ الى منيز سنة ١٤٤٨ م ،وفي رواية اخرى سنة ١٤٤٠ م . وهناك حاول اقتراض مبلغ من المال لمتابعة مشاريعه التي يعتقد انها مشاريع طباعية كما يشهد بذلك عدد من معاصريه . واخيراً نجد ذكراً لجوهان سنة ١٤٥٥ م كخصم مدعى عليه في دعوى اقامها عليه صائغ ومراب من منيز . موجز القضية ان جوهان استدان من جوهان فوست في سنة ١٤٥٠ م مبلغ ٨٠٠ ليرة ذهبية من اجل (انهاء العمل) . ولقد قدم له جوهان فوست مرة اخرى سنة ١٤٥٢ م مبلغاً آخر مساوياً للاول مقداره ٨٠٠ ليرة ذهبية ، ووقع غوتنبرغ مع فوست عقداً يصبح بموجبه فوست شريكاً لغوتنبرغ في العمل . ولقد طالب فوست باسترداد رأس ماله مع الفائدة ، والمبلغ كله حوالي ٢٠٠٠ ليرة ذهبية . كذلك طالب فوست بوضع يده على الادوات والتجهيزات التي اوجدها جوهان من اجل المشروع .

لايوجد ادنى شك في ان النشاط المقصود في هذه الدعوى والمشروع المقصود هو فن الطباعة . ولانعلم بالضبط نتيجة الدعوى ، ولكن الحوادث التي حدثت فيما بعد تظهر ان غوتنبرغ خسر الدعوى وان فوست ربحها واستولى على القسم الاكبر من ادوات وتجهيزات جوهان غوتنبرغ ان لم يكن عليها كلها . وعندما انتهت أدوار التجارب الأولى في الطباعة برز فوست وصهره شوفور Sehoeffer ـ وهما في شركة واحدة ـ ابرز الطباعين في منيز .

ويبدو ان غوتنبرغ انشأ مطبعة اخرى ، ولكنها كانت صغيرة ولم تكن رابحة . وفي عام ١٤٦٥ م استقبل بحفاوة بالغة في بلاط اسقف مدينة منيز ادولف الذي عينه في بلاطه موظفاً مدى الحياة ، وذلك بسبب (الخدمات الجلى والتطوعية التي قدمها له ولفرقته الدينية والتي يمكن ان يقدمها في المستقبل) .

واخيراً توفي غوتنبرغ اما في اواخر سنة ١٤٦٧ م او اوائل سنة ١٤٦٨ م . ونحن لانعلم اين مات واين دفن ومآل اليه حاله بعد استقراره في منيز .

هناك مصدران مهمان يمكن استعمالها لاثبات ان غوتنبرغ هو مخترع الطباعة الاساسي الحقيقي ؛ الاول منهما هو ماتبقى من اوائل الكتب التي قام بطبعها غوتنبرغ ، والثاني شهادة المؤوخين والمؤلفين المعاصرين من أنه هو مخترع الطباعةبالأحرف المتحركة .

ومن اجل المصدر الاول يجب ان نلاحظ مايلي : لم يبق كتب كاملة من الكتب التي طبعت في المانيا ابان ذلك العهد . كل ماعثر عليه العلماء هو قصاصات من الرق والورق هي بقايا كتب طبعت في المانيا اوائل اختراع الطباعة . لقد فحصت هذه القصاصات بدقة بالغة ودرست دراسة عميقة مستفيضة وكتبت عنها مقالات كثيرة . وعلى الرغم من وجود خلاف في التفاصيل بين العلماء ، الا انهم جميعاً يوافقون على انها كلها طبعت بأحرف متشابهة كل التشابه ،ولقد استعمل هذه الاحرف الطباعية فيما بعد ، طابعون كانوا موجودين في منيز او جوارها . هذا وان الخلافات الثانوية التي وجدت بينها تعزز الرأي القائل ان تصميم الاحرف قد نبع من فكرة واحدة خلاقة هي التي اوحت بهذا التصميم ، وان التفاصيل اتت من الذين نفذوا هذه التصاميم . هذا وان اسلوب

طباعة هذه القصاصات جميعاً يعود كلياً الى ماسمي باسم اسلوب التوراة ذات الست وثلاثين سطراً ، وهو اسلوب وجد في منيز في حدود سنة ١٤٦٠ م . وتشير كل الدلائل الى ان جوهان غوتنبرغ هو الشخص الذي قام بطبع هذه الكتب او القسم الاعظم منها اذ كان موجوداً آنذاك في منيز وكان يقوم باعمال طباعية ورد ذكرها في الدعاوى التي رفعت ضده . وقد ثبت الان انه قد قام بطبع ثلاثة كتب الاول كتاب الغفران والثاني كتاب دوناتس (في النحو اللاتيني) والثالث كتاب الكاهنات العرافاتSibylles . وقد تم طبعها في ازمان متقاربة وذلك قبل ان يطبع التوراة الكبيرة باللاتينية سنة ١٤٥٥ م . هذا وان كتاب دوناتس توجد منه نسخة محفوظة في المكتبة الاهلية في باريس . واول عمل يحمل تاريخ الطبع هو الغفران البابوي الذي تاريخه ١٤٥٤ م . ويعتقد الدارسون ان التوراة ذات ٤٢ سطراً ، وسميت كذلك لان كل صفحة تحوي ٤٠ ـ ٤٢ سطراً مطبوعاً ، قد انجزت سنة ١٤٥٦ م . وقد تم طبعها في مطبعة غوتنبرغ التي اخذها فوست وشوفر ، ويعتقد الدارسون ان غوتنبرغ بدأ طباعتها واكملها فوست وشوفر . وهي تعرف رسمياً باسم توراة غوتنبرغ . ويوجد الآن منها في العالم ٣٢ نسخة . وتعتبر النسخة المحفوظة في المكتبة الاهلية في باريس ونسخة جامعة ييل اكمل النسخ . ويدل اسلوب الطباعة على انه اسلوب متطور وهي من اجمل ما تم طبعه مدى العصور . لذلك لايعتقد ان مثل هذا الكتاب وهذه الطباعة الفاخرة الانيقة هي اول انتاج المطبعة ، ولابد ان سبق هذا الكتاب سنوات طويلة من التجارب والمحاولات والاخطاء حتى وصل فن الطباعة الى ما وصل اليه من نضج وجمال واضح في طبع هذه التوراة . ويبدو ان هذه السنوات الطويلة من التجارب والاختبارات لم تقدم ربحاً مادياً بل ادت الى افقار غوتنبرغ وجنى خلفاؤه ومن حل محله في المطبعة فوائد عمله .

توراة ذات ٣٦ سطراً : وتعتبر هذه توراة غوتنبرغ الحقيقية . يوجد منها ٨ نسخ في الوجود . ليست طباعة هذه التوراة متقنة كاتقان طباعة التوراة ذات ٤٢ سطراً . فالاحرف كبيرة وترك فراغ ليملأ بالحروف الاولى والرموز على طريقة ترتيب المخطوطات ، وغالباً طبعت سنة ١٤٥٠ م باحرف اقل اتقاناً من الاحرف التي

حصل عليها فوست من غوتنبرغ .

وهناك مزمور صدر في منيز سنة ١٤٥٧ م وهو اول مطبوع يحمل اسم فوست وشوفر ويعتقد انه طبع في مطبعة غوتنبرغ التي اخذها فوست وشريكه . وهناك من ينسب الى غوتنبرغ انه طبع كتاباً اسمهCatholicon صدر سنة ١٤٦٠ م في منيز ، ولكن لادليل على ذلك ، وسنوات غوتنبرغ الاخيرة في منيز غامضة والروايات حولها متضاربة .

ونجد في شهادات عدد من المؤرخين المعاصرين ورجالات القرن الخامس عشر اشارات واضحة الى الطباعة والى ان مخترع الطباعة هو يوحنا غوتنبرغ ، ولنذكر قليلاً من كثير . فقد وجد في مخطوط فرنسي ما موجزه ان ملك فرنسا آنذاك (سنة ١٤٥٨ م) وهو شارل السابع سمع ان جوهان غوتنبرغ من منيز قد اخترع طريقة جديدة لطبع الكتب ، ولذلك طلب من مدير المصانع الملكية ان يرسل شخصاً ذكياً موثوقاً به الى منيز ليتعلم الاختراع الجديد .

كذلك وجد في نهاية الجزء الاخير من **مؤسسات جوستنيان** الذي طبع سنة ١٤٦٨ م في منيز في مطابع بيتر شوفر شعر لاتيني مؤلف من اربعة وعشرين بيتاً لايعرف قائله يذكر فيه الشاعر فن الطباعة الجديد ويذكر ان (شخصين اسم كل واحد منهما جوهان وكلاهما ولد في منيز هما اللذان بدءا فن الطباعة الجديد) ويضيف الشاعر اليهما اسم شخص ثالث هو بيتر . لذا فان الاستنتاج يفرض نفسه فرضاً في ان المقصود بجوهان الاول جوهان غوتنبرغ ، وجوهان الثاني هو جوهان فوست ، واما بيتر فهو بيتر شوفر .

وقد اكتشف في كتاب طبع في باريس سنة ١٤٧١/١٤٧٠ م رسالة ملحقة به وجهها أحد أساتذة جامعة السوربون في باريس واسمه غيوم فيشه Guillaume Fichet الى احد تلاميذه القدامى يتكلم فيها عن (الضوء الكبير) الذي مُنِحَ حديثاً للعالم الفكري وهو عبارة عن (نوعية جديدة في الكتابة نشرتها المانيا في كل الانحاء في ايامنا هذه) ويتابع قوله(هناك شخص اسمهIoannes Bonemontanus) كان (اول من اوجد فن الطباعة) . انه ليس صعباً ان نتعرف على اسم غوتنبرغ من الصيغة اللاتينية للاسم التي وردت باسم

بونموتانوس . يتابع فيشه قوله عن فن الطباعة بان (انتاج الكتب بواسطته لم يعد يتم بالقلم ، وانما بواسطة حروف معدنية ، وهذا شكل سريع وجذاب وجميل) ويقول فيشه(ان هذا الرجل يستحق ان يشرف بمكافأة خليقة باحد الآلهة) . (وهو الذي اعطى الاحرف شكلاً يجعل من الممكن ، اعتباراً من وقتنا الحاضر فما بعد ، كتابة اي شيء يمكن ان يقال او يفكر به بهذه الطريقة ، ونقل وتحويل الاشياء المخطوطة سابقاً التي كتبت باليد لتكتب بهذه الطريقة ، وبهذا يمكن ان تحفظ وتنقل الى الاجيال اللاحقة سليمة لاعيب فيها) .

وقد ورد في رسالة الاستاذ الفرنسي الباحث قوله ان غوتنبرغ اوجد كتابه في مكان (لايبعد كثيراً عن مدينة منيزHaut Procul a Civitate Maguncia) . وربما كان يعني المدينة نفسها . وان المهم في هذا النص هو ان باحثاً فرنسياً سجل منذ سنة ١٤٧٠ م ان غوتنبرغ هو مخترع فن الطباعة .

وقد ورد في كتاب طبع في بال من سويسرا سنة ١٤٧٢ م ذكر لمهد الطباعة وان ذلك المهد هو مدينة منيز (واذا كانت الطباعة قد اخترعت في منيز فانها لازالت بعيدة عن ايدي الرعاع في بال) ويهمنا من هذا النص ذكره ان منيز كانت مهد اختراع الطباعة .

وهناك اشارة في كتاب الفه تريتيميوسTrithemius المسمى باسمAnnals Hirsaugienses الى فن الطباعة ومخترعه(ان فن الطباعة المدهش قد اخترعه جوهان غوتنبرغ مواطن من منيز) . ويضيف المؤلف ، باضطراب خيالي غير متوقع ومثير الى نفس الجملة جملة اخرى فيها اسم جوهان فوست ويصفه بانه(المخترع الاول) مع غوتنبرغ .

ولقد زعمت بعض البلدان لنفسها شرف اختراع الطباعة ، وبشكل خاص تدعي البلدان الواطئة ان لوران كوسترCoster من هارلم هو الذي اخترع الطباعة باحرف متحركة في الثلاثينات من القرن الخامس عشر . ولكن البرهان على هذا الادعاء هزيل كل الهزال . فقد ذكر تاريخ كولونيا في سنة ١٤٩٩ م انه وجدت في هولندا كتب قواعد النحو اللاتينية مطبوعة ولكن يحتمل انها كانت كتباً لوحية . وعلى اية حال فان كتب كوستر لاتحمل تاريخاً ولاندري ان كانت سابقة على عهد

غوتنبرغ ، والطريقة التي استعملها في صهر الحروف يحتمل انها كانت غير عملية وشاقة . ولهذا- وحتى لوصدقنا الادعاءات القائلة ان غوتنبرغ قد شاهد طبعات كوستر في عيد الذخائر الدينيةفي مدينة آخن سنة ١٤٤٠ م وحرضه ذلك على الاهتمام بطباعة الكتب . وعلى الرغم من كل ذلك فانه تجدر الاشارة الى ان هذا الهولندي لم يعلم غوتنبرغ شيئاً ذا غناء ، بحيث يمكن الجزم ان فكرة الحروف المتحركة قد واتته عن طريق الحروف الزخرفية المستعملة في الطبع على التجليد ، اذ انها كانت هي نفسها نوعاً من الحروف المنفصلة التي يمكن جمعها ثم فكها عقب استعمالها . اضف الى ذلك تجليدات تحمل زخارف طبعت بحروف معدنية منفصلة عن بعضها بعضاً منذ العقود الاولى للقرن الخامس عشر .

كذلك ادعى بعض الاشخاص في عدد من مدن فرنسا وايطاليا والمانيا وتشكوسلوفاكيا انهم هم الذين اخترعوا الطباعة باحرف متحركة ، ولكن البراهين على ادعاءاتهم متهافتة .

وهكذا يعتبر اغلب الباحثين ان مخترع الطباعة الحقيقي والاول هو يوحنا غوتنبرغ . ومالم تحدث اكتشافات مهمة واساسية في حقل الطباعة فان غوتنبرغ سيظل مركزه ثابتاً في هذا المجال ، لانه هو الذي توصل الى تخيل آلة عملية سهلة لصهر الحروف والى جعل الطباعة سهلة حقاً . اما القول انه كان له مساعدون ، فهذا لاينقص من قدره لان مساعدي الرجل ينفذون افكاره ويتعلمون منه ، وهذا ما حدث لمساعدي غوتنبرغ ، هذا مع العلم اننا لانعلم بالضبط الدور الذي لعبه هؤلاء المساعدون في حال وجودهم . وهذا كله يجعلنا نعترف به مخترع الطباعة الاول .

لايمكن المبالغة في اهمية الطباعة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والتعليمية . فقد اصبح ، لاول مرة في التاريخ ، ولو نظرياً على الاقل ، انتاج اعداد لاتنتهي من اي كتاب ذلك ان بامكان المطبعة ، اذا قدمت لها الورق اللازم ، ان تصدر من نفس الكتاب او المطبوع ، الملايين وملايين الملايين والتي لانهاية لها من نفس العمل .

كذلك ساعدت الطباعة في رخص اثمان الكتب بما لايقدر وذلك لقلة كلفة

النسخة الواحدة من المطبوع بالموازنة مع المخطوط . وادى ذلك بالتالي الى نشر الكلمة المطبوعة بين اعداد متزايدة من بني البشر . وقد سهل ذلك عملية التعليم وانتشار الثقافة والتربية والتعليم بين افقر واحط طبقات المجتمع .

وساعد انتاج الكتب المطبوعة باعداد متزايدة على تحطيم الحصر الذي كان يفرضه الناسخون اليدويون الممتهنون والى فتح ابواب المعرفة لجميع افراد بني البشر .

كذلك لاحظ الحكام والملوك والرؤساء خطر انتشار الكلمة المطبوعة بين الجماهير فحاولوا ضبط هذه العملية بواسطة الرقابة على المطبوعات التي كانت ولاتزال سلاحاً خطراً ذا حدين في يد حكام الدول وزعمائها .

ولقد قامت تجارة نشطة للكتب المطبوعة وازداد تبادل المطبوعات بين الدول بازدياد عدد الكتب . وهذا لايعني انه لم يكن هناك تجارة للمخطوطات ، فقد كان هناك تجارة للمخطوطات بين الدول ، ولكن قدوم الكتاب المطبوع جعل هذه التجارة انشط بكثير مما كانت عليه في السابق .

الفصل العاشر

أنتشار الطباعة في أوربا
وأشهر الطابعين وأشهر الكتب المطبوعة

انتشر فن الطباعة بسرعة خاطفة في كل ارجاء اوربا ولكن بمعايير وسرعات مختلفة . ولعل المانيا كانت اول البلاد التي انتشر فيها هذا الفن بسرعة واتقان ، ثم تأتي بعد ذلك ايطاليا ففرنسا والاراضي الواطئة وانكلترا .

هذا وان فن الطباعة انتشر اول ما انتشر في جنوبي المانيا ، ويرجع السبب في ذلك الى ان معظم المدن التي انتشر فيها هذا الفن بشكل مبكر تقع قريباً من منيز مهد الطباعة الاول ، وهناك سبب اكثر اهمية ادى الى انتشار فن الطباعة في هذه المدن وذلك لوقوعها على الطرق التجارية التي كانت تصل المانيا واوربا بموانيء البحر الأبيض المتوسط والشرق . فضلاً عن أن المراكز التجارية الكبرى هي التي كانت تمد المطابع باحتياجاتها ومستلزمات العمل فيها ، على حين أن المدن الأقل أهمية لم تكن تجد عملاً كافياً إلا لفترة قصيرة جداً .

ولقد ازدهرت في نهاية القرن الخامس عشر تجارة الكتب ازدهاراً كبيراً بحيث شملت معظم مناطق اوربا الغربية ، وكان مركزها الرئيسي مدينة بال حيث جمع زعيم الحركة الانسانية فيها ايراسموس حوله جماعة بال الانسانية ، ومن بال انتشرت التيارات التجارية والثقافية الجديدة الى مدينة ليون مركز الطباعة في اوربا الغربية ، كما انتشرت نفس التيارات الى البندقية حيث عمل فيها عدد من الطابعين اشهرهم الدوس مانوتيوس .

الطباعة في المانيا :

ما ان استولى فوست على الات ومطابع غوتنبرغ حتى اسس مطبعة جديدة في منيز بالاشتراك مع الماني آخر هو بيتر شوفير الذي كان اول امره رساماً للمخطوطات وفناناً لصورها في باريس . وقد افتتحا عملهما عام ١٤٥٧ م بطبع كتاب المزامير الذي سنتحدث عنه فيما بعد .

وهناك سلسلة طويلة من الكتب التي صدرت بعد ذلك عن مطبعة الشريكين ـ من بينها توراة فاخرة ذات ثمانية واربعين سطراً طبعت سنة ١٤٦٢ م ـ تشهد كلها بمواهب شوفير الخارقة، كما تشهد بنشاطه السابق في فن الزخرفة والرسم حتى انه اصبح يعتبر الروح المحركة للمشروعات الطباعية التي مولها فوست . وقد استمر شوفير في ادارة المطبعة بعد وفاة فوست حتى وفاته هو سنة ١٥٠٢ م .

كان شوفير يصهر حروفه بنفسه ، كما كانت هذه الحروف تمتاز على حروف غوتنبرغ بالدقة والصلابة ، الى درجة انه لم يقنع بحروف غوتنبرغ التي بقي جانب منها محفوظاً لدى الطابع البرت فيستر بمدينة بامبرغ حتى سنة ١٤٦٠ م .

هذا وتعتبر مدينتا بامبرغ وستراسبورغ المدينتين الاوليين اللتين انتشر فيهما فن الطباعة بعد منيز مباشرة . ولقد اسس البرت فيستر في بامبورغ مطبعة سنة ١٤٦١ م استعمل حروف غوتنبرغ نفسه وقام بطبع مالايقل عن عشرة كتب .

كذلك اسس جوهان مانتيلينJohann Mentelin في ستراسبورغ مطبعة حوالي سنة ١٤٦١ م ، وانتج عدداً من الكتب وصلتنا نسخ منها وهي بحالة جيدة . ولقد خلف مانتيلين في ادارة المطبعة صهره ادولف راش ، ولكن اسمه لايظهر على اي من الكتب التي قام بطبعها هو ، ولكن راش كان اول طابع استخدم حروفاً رومانية في الطباعة ، وتميزت حروفه باستعمال حرف الR بشكله الكبير حتى انه اتخذ لقب الطابع آرR – Printer .

ولكن ما ان تأسست مطابع في كل من بامبرغ وستراسبورغ حتى حدث ما جعل معظم اصحاب المطابع في منيز وبامبرغ وستراسبورغ يهجرونها ويؤسسون

مطابع جديدة في غيرها . ذلك ان الصراع الداخلي في المانيا بين الامراء والكنيسة انفجر في منيز بما يسمى حرب الاساقفة حيث تحارب رجال الدين وانصارهم من الامراء ضد الامراء الآخرين من اجل النفوذ والسيطرة على البلد وكان ذلك سنة ١٤٦٢ م . ولقد دمر الكونت ادولف دوناساو زعيم الحزب المنتصر المدينة وطرد قسماً كبيراً من سكانها مما اضطر الطابعين بها الى هجرها . وكان من بين هؤلاء شوفير نفسه الذي استقر بمدينة فرانكفورت ، حتى لقد قيل ان تدمير منيز ساعد على سرعة انتشار الفن الحديث . ولقد بلغ عدد المدن الالمانية التي بها مطابع اكثر من عشرين مدينة خلال النصف قرن الذي تلي اختراع غوتنبرغ الطباعة .

وتعتبر مدينة نورنبرغ في المانيا اكثر المراكز اهمية في الطباعة ، وذلك في نهاية القرن الخامس عشر ، ونبغ بها عدد من الطابعين لعل اشهرهم انطون كوبرجرAnton Koberger ، وقد طبع كوبرجر عدداً من الكتب اشهرها على الاطلاق هو كتابLiber Chronicarum الذي اصدره سنة ١٤٩٣ م . واتت شهرته من انه زوده ب ١٨٠٠ وسيلة ايضاح كلها محفورة بالخشب .

ولقد استخدم اوائل الطابعين ادوات بدائية ، وهذه المطابع تمثل في جوهرها نفس مظهر مطابعنا قبل تعديلها وادخال الالات الحديثة عليها . فكانت المكابس الكبيرة المصنوعة من خشب البلوط تبدو ضخمة أكثر من ما هي عليه وهي مثبتة في قاعة المطبعة بالسقف والأرض . أما المكبس نفسه فكان يضغط على الورق بعد وضعها على الحروف المجمعة . ولكي يتم الضغط كان المكبس يدار بالقوة البدنية وكان مزوداً بمبرم خشبي ثقيل ، ولابد من بذل مجهود بدني حتى يتم الحصول على الضغط المطلوب .

وكان المكبس اصغر حجماً من اطار الحروف المجمعة ، ولهذا لم يكن من اليسير ، بوجه عام ، طبع ورقة كاملة دفعة واحدة مما اضطر الطابعين الى تقسيم الاوراق الى عدة اجزاء يطبع كل منها وحده ، ثم يجمعها المجلد فيما بعد .

وكان صف الحروف وجمعها يتم ـ وفقاً لنفس المبدأ المتبع في وقتنا الحاضر في المطابع اليدوية ـ بواسطة مخدتين من الجلد مزودتين بمقابض ، وتحبر الحروف المجمعة . ولابد من مران طويل لاكتساب الخبرة اللازمة لضبط عملية التحبير

وجعل الحبر ينتشر على جميع اجزاء الصفحة بدرجة واحدة ولتجنب المساس بحروف العمود المجمع ، مما قد يؤدي الى اختلال السطور .

غير ان حفر حروف الطباعة ، وبشكل خاص عملية صهر الحروف كانت ادق عملية بالنسبة لاولئك الرواد من الطابعين . وكان الجانب الاساسي من الآلة المستخدمة في صهر الحروف مصنوعاً من النحاس الاحمر او الاصفر ، اما الآلة نفسها فكانت مصنوعة من الرصاص ، وكانت تسمى القالب ، والرصاص مادة قابلة للتلف ، اذا كثر استعمالها بحيث ان الحروف كانت تفقد صلابتها وتتآكل حوافها الدقيقة مما كان يؤثر على انتظام حروفها عند الطبع .

اقدم الكتب المطبوعة :

على الرغم من تلك العيوب الفنية ، نجد اقدم الكتب المطبوعة على جانب كبير من الجمال الفني ، وذلك بسبب اتباعها للتقليد القديم الذي كان معروفاً في مخطوطات العصور الوسطى التي كانت نماذج لها . ذلك ان من البدهي ان يتخذ اوائل الطابعين المخطوطات نماذج لمطبوعاتهم ، فحفروا حروفهم الطباعية على نسق الكتابات المخطوطة مقلدين في ذلك حرفياً شكل الصحيفة العام من جميع نواحيها ، بل ومقلدين لها في جميع النقاط التي لم يكن الفن الطباعي آنذاك قادراً على تنفيذها ، وخاصة عند تصميم شكل الحروف الاولى الكبيرة ، وما اليها من زخارف ؛ حتى انهم اضطروا الى الرجوع الى الطرق القديمة ، كما لجأوا الى استعمال الالوان اليدوية حتى انتهى بهم الامر الى ان اتخذ الكتاب المطبوع الاول بشكل واضح مظهر المخطوطات المكتوبة على الرق التي كانت سائدة في العصر الوسيط والمكتوبة على الرق ، وادى هذا الى خلق روائع لاتقل اتقاناً وجمالاً عن المخطوطات المزخرفة المكتوبة على الرق .

توراة غوتنبرغ ١٤٥٥ م :

ان القاء نظرة فاحصة على توراة غوتنبرغ تجعل المرء يتأكد من صحة ما ذكرناه آنفاً عن هذه التوراة المطبوعة في مجلدين من حجم النصف في سنة ١٤٥٥ م . وقد سبق ذكر هذه التوراة عند كلامنا عن غوتنبرغ نفسه . واذا لم يفحص الانسان هذا الكتاب عن قرب ظنه مخطوطاً . وتعرف هذه التوراة باسم التوراة ذات الاثنين والاربعين سطراً ، وذلك لان الصفحة الواحدة من هذا الكتاب مقسومة الى عمودين متوازيين يحوي كل واحد منهما اثنين واربعين سطراً . كذلك يعرف هذا الكتاب باسم توراة مازاران ، ذلك لان اول نسخة من هذا الكتاب لفتت انظار خبراء الكتب كانت النسخة التي احتفظ بها الكاردينال مازاران الوزير الفرنسي الشهير في القرن السابع عشر في مكتبته الخاصة . وكما سبق وذكرنا قبل قليل فان الصفحة الواحدة من هذه التوراة المكونة من الف ومائتي صفحة مقسومة الى عمودين متقابلين ، كما وان اسلوب حروفها هو نسخة طبق الاصل عن الكتابة القوطية في آخر مراحلها ، كما تشاهد في المخطوطات الدينية الكبرى الفاخرة بكل ماتحويه من حروف قوية كبيرة كثيرة الزوايا . كما وان الطابع ترك مكاناً خالياً مناسباً ليرسم باليد فيها بعد وبعد انتهاء الطباعة ، رؤوس الفقرات والحروف الاولى وعناوين الفصول والرسوم الهامشية ، وان لم يمنع ذلك من طبع بعضها بالحبر الاحمر في بعض النسخ .

هذا ولم يزل باقياً حتى الآن احدى واربعون نسخة من توراة غوتنبرغ هذه ، منها اثنتا عشرة نسخة مطبوعة على الرق ، كما يحتمل ان الطبعة المذكورة من هذه التوراة لم تزد على مائة نسخة تقريباً . ولابد من التنويه انه دفعت اثمان خيالية بعدد قليل من نسخ هذه التوراة عند عرضها للبيع . فقد دفع في احدى نسخ هذه التوراة مبلغ اربعة الاف جنيه استرليني في لندن عندما عرضت في احد المزادات سنة ١٨٩٧ م . كذلك اشترى احد الامريكيين نسخة من هذه التوراة من دير ملكMelk النمساوي بمبلغ قدره مائة الف وخمسة الاف دولار وقدمها هدية الى مكتبة جامعة ييل الامريكيةYale الكائنة في مدينة نيوهافن ، وكان ذلك سنة ١٩٢٧ م .

وهناك توراة اخرى مشهورة هي توراة شلهورنShellhorn ، وهي توراة ذات ستة وثلاثين سطراً في كل عمود ، وتعزى هذه ايضاً ، كسابقتها ، الى غوتنبرغ ، وان كان من المحتمل ان يكون قد طبعها في مدينة بامبرغ بنفس الاحرف التي استخدمها غوتنبرغ سابقاً .

كتاب مزامير منيز سنة ١٤٥٧ م :

هناك ماهو اجمل من توراة غوتنبرغ ، وهو كتاب المزامير الذي طبعه في منيز سنة ١٤٥٧ م فوست وشوفير والذي مر ذكره . وهو ، بطباعته الفاخرة على الرق ، يمثل الاوج الذي وصل اليه فن الطباعة الاولى ، كما وانه يعتبر في نفس الوقت ، اول الكتب المطبوعة التي تشير الى زمن الطباعة والطابع :

وفيما يلي ترجمة دقيقة وافية للصيغة النهائية التي اثبتها الطابعان في نهاية الكتاب في الجزء المخصص لمثل هذه الامور والمسمىColophonوهي كما يلي : أنشيء كتاب المزامير هذا بفضل فن الطباعة وسبك الحروف دون ادنى استعمال للقلم في كتابته ، وطبع لتمجيد الله بفضل عناية ودقة جان فوست من اهالي مدينة منيز ، بالاشتراك مع بيتر شوفير من اهالي مدينة جيرنشايم وقد تم ذلك في عام ١٤٥٧ م ليلة صعود العذراء الى السماء(اي ١٥ من آب) .

نستنتج من هذا الاقرار ان هذا الكتاب قد تم طبعه كله على الالات الطابعة ، بما في ذلك الحروف الاولى بالغة الجمال والمطبوعة باللون الاحمر او الاحمر والازرق ، والتي يبدو انها حفرت على المعدن لاعلى الخشب . ويحمل كتاب المزامير هذا اول علامات الطابعين فيما نعلم ، فقد ظهرت علامة الطابعين تحت اسميهما في الكولوفون ، وتتألف من ترسين اسودين متدليين من غصن شجرة . ولم يلبث هذا التقليد ان عم استعماله وانتشر كل الانتشار واستعمله الطابعون ووقعوا به مطبوعاتهم ووسموها بعلامة خاصة او صورة صغيرة هي شعار هذا الطابع المميزة له عن غيره ، وذلك لما لها من اهمية وتأثير زخرفي عظيم . ولايزال في الوجود من هذه المزامير ما يقرب من عشرين نسخة موزعة في عدد من متاحف

العالم ومكتباته ، ولعل اجملها تلك النسخة التي تحتفظ بها المكتبة الاهلية في فينا .

نستخلص مما مر امتياز الكتب المطبوعة الاولى بخاصة تقليد المخطوطات ومحاكاتها . وما لبث ان شمل هذا التقليد أيضاً بعض التفاصيل الطباعية الاخرى ، كعلامات الاختزال التي كانت شائعة الاستعمال في المخطوطات ، كما امتازت بانعدام العنوان فيها . ونقصد بالعنوان هنا العنوان بالمعنى الحقيقي للكلمة او المعنى المفهوم المتعارف عليه لهذه الكلمة الآن . ذلك ان النص كان يُبدأ به من الصفحة الاولى مسبوقة بكلمات تمهيدية مثل كلمةIncipit اللاتينية (وتعني يبدأ) او مثل كلمتيHie Incipit (هنا يبدأ) . والاستثناء الوحيد لهذه القاعدة يقع في كتيب صغير عنوانه**نداء للمسيحية ضد الاتراك** ، وهو مطبوع بحروف غوتنبرغ في سنة ١٤٥٤ م . ولم يعد باقياً منه الان سوى نسخة واحدة موجودة في مكتبة الدولة في ميونيخ من المانيا . اما وجه الاستثناء فيه فينحصر في طبع عنوانه اعلى الصفحة الاولى ، بينما العنوان الحقيقي المتعارف عليه الآن يطبع على صفحة خاصة به ، وهذا لايظهر في الكتب المطبوعة الا منذ سنة ١٥٠٠ م تقريباً . يحمل هذا الكتاب ـ في قالب تقويم ـ نداءً موجهاً الى الدول المسيحية لقتال الاتراك الذين كانوا استولوا في السنة الماضية على القسطنطينية ، كما انه كان معداً للنشر على نطاق شعبي واسع ، شأنه في ذلك شان كتب المانية اخرى عديدة ، تعود الى العصر الاول للطباعة .

الطباعة في ايطاليا :

لم يلبث فن الطباعة ان انتشر في ارجاء اوربا ، واصبح للطابعين الالمان ، وبخاصة اولئك الذين عاشوا في منيز او اشتغلوا كطباعين بها ، شهرة عريضة جعلت كثيراً من الطباعين الالمان يدعون ، بحق او بغير حق ، انهم من منيز وانهم تعلموا مهنتهم فيها .

ولقد كانت ايطاليا من اوائل البلدان الاوربية التي انتشر فيها فن الطباعة في زمن مبكر ، ولاعجب من ذلك ، فقد كانت ايطاليا آنذاك لاتزال مركزاً ثقافياً وتجارياً مهماً ، كما وانها كانت مركز البابوية ، ولروما بشكل خاص ، مكان مرموق لدى العالم المسيحي كله . وقد اشتهرت مدن ايطاليا الاخرى ولاسيما البندقية وجنوة ، بغناها وثراها وتقاليدها الفنية ، ولذلك اجتذبت الطباعين من كل حدب وصوب ولاسيما من منيز ، ونخص بالذكر طابعين من منيز تركاها قاصدين روما ، وهما من تلاميذ شوفير ؛ الاول كوفراد زفاينهايمSweynheym والثاني ارنولد بانارتزPannartz . ولكنهما ذهبا الى مدينة سوبياكوSobiaco وديرها المعروف باسمها بالقرب من مدينة روما ، وهناك اسسا مطبعة في الدير سنة ١٤٦٤ م وطبعا اول كتاب طبع في ايطاليا وهو كتاب في النحو اللاتيني اسمه دوناتس ، ولم يصلنا منه ولانسخة . كذلك طبعا بعد ذلك كتابين آخرين الاول فن الخطابة لشيشيرون والثاني مجموعة مؤلفات لاكتانتيوسLactantius وقد صدر الكتابان سنة ١٤٦٥ وكتاب شيشرون اقدم من مجموعة لاكتانتيوس بحوالي شهرين .

ولقد بقي الطابعان الالمانيان في سوبياكو حتى سنة ١٤٦٧ م . وقد دعيا بعد ذلك للذهاب الى روما فذهبا اليها ، ولكنهما طبعا قبل ان يتركا سوبياكو كتاب القديس اوغسطين المسمى باسممدينة الله . وقد اسسا مطبعة في روما وعكفا هناك على طبع ونشر سلسلة طويلة من الكتب خلال السنوات السبع التالية ، ضمت ، حسب روايتهما الشخصية ، حوالي ستة وثلاثين كتاباً ، مكونة من ١٢٤٧٥ نسخة . وهذه المجاميع تحوي في اساسها نصوصاً دينية لاتينية قديمة . وكانا يطبعان من كل كتاب بين ٢٧٥ الى ٣٠٠ نسخة . واخيراً افترق الشريكان عن بعضهما سنة ١٤٧٤ م . وقد استمر بانارتز في عمله بالطباعة في روما حتى وفاته سنة ١٤٧٦ م . على حين التفت زفاينهايم الى انتاج الخرائط بالحفر على المعدن لحساب احد الطابعين ، وظل يعمل حتى وفاته سنة ١٤٧٧ م . وقد وجد في روما في ذلك الزمن حوالي عشرة طابعين ، كلهم من المانيا ويعملون في الطباعة في ايطاليا .

ولقد هاجر الى ايطاليا عدد كبير من الطابعين الالمان واستقر بعضهم في روما ، بينما استقر عدد آخر من الطابعين الالمان في عدد من المدن الايطالية الشهيرة الكبيرة كالبندقية وجنوة .

ولقد كانت ظروف العمل في البندقية اكثر ملاءمة للعمل الطباعي من غيرها ، ذلك لغنى البلدة واشتغالها بالتجارة وعلاقاتها الواسعة مع ارجاء كثيرة من العالم . ونجد فيها ان طبع الكتب اصبح ـ لاول مرة ـ عملاً تجارياً له قواعده واصوله . ولقد صدر فيها من الكتب المطبوعة عدد يفوق ماصدر في جميع المدن الايطالية الاخرى مجتمعة . ولهذا هاجر اليها منذ سنة ١٤٦٩ م عدد من الطابعين الالمان من اقدمهم الاخوان جوهان ووندلن دي سبير اللذان طبعا اول كتاب باللغة الايطالية وهو كتاب اشعار بترارك .

كذلك هاجر الى البندقية نيقولا جينسون من فرنسا الذي كان حفاراً لقوالب صك العملة في بلاط شارل السابع ملك فرنسا آنذاك ، ثم اوفده الملك ، على مايقال ، الى منيز سنة ١٤٥٨ م ليتعلم فيها الفن الجديد . ويعتبر جينسون هذا من اعظم واشهر مصممي حروف الطباعة مدى العصور . ولقد استعمل جينسون اسلوب الخط الروماني الذي كان يستعمله الانسانيون في شمالي ايطاليا . ولكنه طوره وابتكر منه حرفاً رومانياً ظل الى ايامنا هذه نموذجاً يحتذيه الاخرون . وهو حرف سهل التركيب والمظهر يريح العين في القراءة وعلى جانب عظيم جداً من الجمال . وقد تم ذلك في البندقية منذ سنة ١٤٧٠ م . ولقد بلغ عدد الكتب التي طبعها جينسون في مطبعته في البندقية اكثر من ١٥٠ عنواناً مختلفاً . ولقد كانت اوائل الكتب التي طبعها كتباً كلاسيكية لاتينية ، ثم التفت الى طباعة كتب في مختلف الموضوعات ، ثم اخترع حرفاً يونانياً . واثبت مقدرته كناشر ومحقق للكتب التي طبعها . اذ كان باحثاً وقام بنفسه بتحقيق النصوص التي تولى طبعها ، وتشهد كتبه التي طبعها بدقتها العظيمة . ولقد ساعد جنيسون كل المساعدة في جعل الكتب المطبوعة شعبية وساهم في توسعة دائرة القراءة والمطالعة .

ويعتبر الدوس مانوشيوسAldus Manutius الطباع الثاني الشهير في تاريخ البندقية الذي يناقض جينسون من حيث هو بحاثة على حين ان جينسون كان رجل مهنة وفناناً في عمله اكثر من كونه باحثاً . فقد استخدم الدوس الطباعة وسيلة ، وهو نفسه كان يعرف اللاتينية والاغريقية والف كتباً في هاتين اللغتين ونحوهما . وقد انتقل الدوس الى البندقية سنة ١٤٩٤ م واسس مطبعة فيها سنة ١٤٩٥ م وكان هدفه نشر طبعات نقدية للمؤلفين الكلاسيكيين القدامى خاصة ، ولذا فقد صدر عن مطبعته حتى حزيران سنة ١٤٩٩ م ثلاثون كتاباً ، ثمانية عشر واحداً منها باللغة الاغريقية ، وهي معاجم وكتب نحو وصرف .

ولكن الدوس ، على الرغم من كونه بحاثة ، الا انه كان رجل اعمال واراد ان ينتج كتباً علمية يقرؤها الجميع لاالبحاثة والعلماء فقط ، ولذلك فقد اخترع ما يمكن ان نسميه الكتابة السريعة . ذلك انه استعمل اولاً الحروف الرومانية التي كان قد اخترعها واستعملها بنجاح نقولا جينسون ، واخرج كتبه بحجمي النصف والربع ، وهي الاحجام التي كانت شائعة الاستعمال في ايطاليا ؛ الا انه ما لبث ان خرج عن هذا التقليد سنة ١٥٠١ م عندما طبع كتاباً لفيرجيل بحجم الثمن . ثم بدأ يطبع المؤلفات الاكلاسيكية بحجم الثمن أيضاً ، وهي ما يمكن ان يسمى بمفهوم العصر الحاضر كتب الجيب وحجم الجيب . واستخدم لهذه الطبعات حروفاً جديدة تماماً كانت منسجمة كل الانسجام مع حجم الصفحات الجديد في تلك الكتب الصغيرة . وتقول احدى الروايات ان هذه الحروف مستوحاة من خط بترارك نفسه .

وان اول عمل مهم قام بنشره الدوس هو مؤلفات ارسطو . ذلك انه بدأ بنشرها اعتباراً من اول سنة ١٤٩٥ م ولم ينته من نشرها الا في سنة ١٤٩٩٠ م . وقد اصدرها في خمسة اجزاء ضخمة من حجم النصف . وتعتبر اول طبعة كاملة باللغة الاغريقية .

وكما ذكرنا آنفاً ، فقد اشتهر الدوس بطبعه المؤلفات الكلاسيكية القديمة وسميت هذه الطبعات باسم طابعها الطبعات الالدية للمؤلفات الكلاسيكية ، ويعني بذلك خاصة الطبعات الصغيرة للمؤلفات الكلاسيكية التي طبعها الدوس

بالحروف السريعة والتي نشرها بكميات كبرى خلال حياته ؛ ومن بينها الثمان وعشرون طبعة الاولى ، وهي الطبعات الاولى التي بنيت مباشرة على اساس المخطوطات القديمة غير المنشورة .

وكان الدوس ، في اول امره ، يقوم بنفسه بالابحاث اللغوية اللازمة . غير انه عندما اتسعت دائرة ابحاثه بعد ذلك ، اضطر الى استخدام مساعدين ، فجمع حوله في داره جماعة من المساعدين عرفت باسم اكادمية الدوس الجديدة . وبفضل هذه الطبعات الالدية الصغيرة الرخيصة الثمن ، سهل انتشار مؤلفات الكلاسيكيين ومعها ثقافة الانسانيين اكثر من ذي قبل . وما لبثت هذه الطبعات الجميلة الالدية ـ بالشارة الطباعية الجميلة على صفحتها الاولى والمكونة من درفيل ملتف حول مرساة ـ ان صارت طبعات شهيرة شعبية واشتد عليها الطلب الى درجة ان صار لها مقلدون ، وخاصة في مدينة ليون ، حيث وجد عدد كبير من هذه المطبوعات المقلدة . ولقد استخدم هذه الطبعات الالدية شباب الطلاب اكثر من غيرهم ، ولذا تلف عدد كبير منها تلفاً تاماً بسبب كثرة استعمالها ، حتى اصبحت اليوم لايمكن العثور عليها تقريباً ، على ان شهرة هذه المطبوعات لاتعزى فقط الى حجمها وحداثة حروفها السريعة وطباعتها النظيفة وجودة ورقها ـ وانما تعزى ايضاً الى عنايتها بتحقيق النص ، وباختصار الى المجهود العلمي والفني الذي خصص لها .

ولقد اشتهر ايضاً الدوس بالزخارف الجميلة التي ادخلها على فن طباعة الكتب . فلم يكن الحرف المائل هو الحدث الوحيد الذي استحدثه الدوس في فن الكتاب ، وانما استعمل ، بذكاء وفهم ، عدداً من الافاريز الزخرفية والاطارات التي زين بها كتبه دون اسراف . ولقد جرى الدوس على رسم الزخارف على الاطارات وحدها ، وترك قاعدة الرسم وخلفيته خالية من اية اضافة اخرى . وقد بلغ الدوس نهاية الهامه وقمة مجده عندما قام سنة ١٤٩٩ م بنشر رواية **معركة** في الحلم للراهب الدومينيكاني كولونا . ويحوي الكتاب حوالي ٢٠٠ رسم مرسومة بالخط الرفيع الذي يلتزم حدود الطراز الكلاسيكي وان مايرفع من قيمة هذا الكتاب هو الترابط والتآلف الموجود بين مختلف الزخارف وبينها وبين احرف النص

حتى ان الكثير من البحاثة لايزالون يعتبرون هذا الكتاب اجمل كتاب اخرجته المطابع حتى اليوم واكمله .

كذلك امتاز الدوس بالتجليدات الرائعة التي كان يجلد بها كتبه ، وكان بعضها يجلد على البارد ، وبعضها الآخر ادخل اليه التذهيب .

ولابد من ذكر ان حياة الدوس لم تكن سهلة في البندقية ، فقد عانى صعوبات مالية ، واوقف مرة بتهمة انه جاسوس واحرقت مطبعته وسويت الارض . وقد استمرت اسرته تقوم بالطباعة في البندقية اكثر من ١٠٠ سنة بعده . وان قبر الدوس موجود في كنيسة في البندقية قرب مطبعته .

هذا وقد وصل عدد الطابعين في البندقية قبل سنة ١٥٠٠ م ٢٦٨ طابعاً ، و٦٣ طابعاً في ميلانو و٤١ طابعاً في روما .

الطباعة في الاراضي الواطئة :

انتشر فن الطباعة في الاراضي الواطئة في السنوات التاية لعام ١٤٧٠ م ، واول مطبعة اسست في مدينة اوترخت . وان اقدم الكتب التي طبعت هنا لاتحمل اسم الطابع ولاتاريخ الطباعة . كذلك استخدم الطابعون هنا ، كما في المانيا ، الحروف القوطية في الطباعة . على ان الفن الهولندي الخاص بالتصوير بطريقة الحفر على الخشب ، والذي ساعدت كثرة انتاج الكتب اللوحية على تقدمه في هذه البلاد ، كان مزدهراً . ومن اشهر مطبوعات هذه المدينة كتاب مصور اشتهر بجماله وهو كتاب**الفارس الحكيم** المطبوع سنة ١٤٨٦ م .

ولقد انتقل فن الطباعة سنة ١٤٨٠ م الى انفرس التي اصبحت المركز الثقافي الرئيسي في الاراضي الواطئة مما ساعدها على احتلال مكانة مرموقة في ميدان انتاج الكتب . ويعتبر جيراردلي من اشهر الطابعين ومن انشطهم في حقل طباعة الكتب الانكليزية وتصديرها الى انكلترا . ولكن اول من طبع كتاباً باللغة الانكليزية هو وليم كاكستون . وقد طبعه في بروج من بلدان الاراضي الواطئة واسمه**مجموعة تواريخ طروادة** .

الطباعة في فرنسا :

ان اول كتاب طبع في فرنسا كان في باريس سنة ١٤٧٠ م وقد قام بطبعه ثلاثة من الطابعين الالمان الذين استدعاهم لتأسيس مطبعة في فرنسا اثنان من اساتذة السوربون ، احدهما غليوم فيشهFichet ؛ والكتاب الذي تم طبعه هو **مجموعة الرسائل اللاتينية** . ومن المهم ان نلاحظ ان غليوم فيشه ، وهو احد اساتذة السربون القلائل الذين ادركوا أهمية الفن الجديد ، ذكر ان باخوس Bacchus وسيرس Ceres قد عظمهما الناس ومجدوهما لانهما علما البشر استعمال وصنع وأهمية الخمر والخبز ، ولكن اختراع غوتنبرغ أكثر اهميةً وسمواً لانه مكن الانسان من الاحتفاظ ، لخير الانسانية كلها ،بجميع ماقيل وما انتجه الفكر الانساني . بعد ذلك تابع أولئك الطابعون عملهم وطبعوا بين سنتي ١٤٧٠و١٤٧٣م اثنين وعشرين كتاباً كلها باللغة اللاتينية .

واول كتاب طبع في فرنسا باللغة الفرنسية تم طبعه في باريس سنة ١٤٧٦ م على يد باسكيه بونوم ، وهو عبارة عن كتاب يقع في ثلاثة مجلدات تضم كتب**تواريخ فرنسا الشهيرة** .

غير ان فن الطباعة مالبث ان تطور وتقدم بسرعة وذلك بفضل رعاية ملك فرنسا آنذاك لويس الحادي عشر ، بحيث تأسس نحو سبعين مطبعة في باريس وحدها خلال الثلاثين سنة التالية .

ثم دخلت الطباعة مدينة ليون التي ظلت حتى نهاية القرن السادس عشر من اهم المدن التجارية في اوربا . كذلك كانت مرموقة لمكانتها الثقافية ولكونها مركزاً رئيسياً من مراكز انتاج الكتب في اوربا الغربية كلها . ولقد اشتهر ، في تاريخ الطباعة في فرنسا ، عدد من الطابعين الذين لهم مكانة عظيمة في هذا الفن ، والذين اشتهروا كمزخرفين الى جانب كونهم طابعين . من هؤلاء جان دوبريه الطابع العظيم والفنان العبقري الذي طبع عدداً من الكتب كلها مزخرفة بالصور المحفورة على الخشب . وقد طبع سنة ١٤٨١ م كتاب**صلوات الكنيسة**بباريس محلى بصورتين . كما طبع بعد ذلك بسبع سنين كتاباً دينياً من كتب**ساعات**

الفروض ، وكان محلى بصور رائعة . ويجب ان نذكر هنا ايضاً كتاب القديس اوغسطين**مدينة الله** ، وقد طبعه نفس الفنان وابدع في تصويره وزخرفته مما جعل له مكانة عظمى ولامعة في فن الطباعة الفرنسي في عهده المبكر هذا . وهو نفسه ، اي جان دوبريه هذا ، هو الذي ادخل الحروف الاولى الكبيرة المحفورة على الخشب في الكتاب الفرنسي سنة ١٤٨٦ م .

ولعل اهم نوع من الكتب التي اشتهرت فرنسا في انتاجها آنذاك هو كتب ساعات الفروض ؛ وكانت هذه الكتب اكثر الكتب الدينية انتشاراً ، كما كانت اكثرها طباعة في عصر الطباعة الاول ، وقد ظهرت في طبعات رائعة الزخرفة .

على ان اشهر ناشر وطابع فرنسي هو رسام المخطوطات القديم انطوان فرار ، وان لم يكن قد قام بطبع كتبه بنفسه ، ذلك انه كان يستخدم عدداً معيناً من الطابعين الآخرين . وهكذا تمكن ان يدير خلال حوالي ثلاثين سنة من حياته ـ وهي الفترة التي ظهر فيها نشاطه ـ تجارة كبيرة في عالم روايات الفروسية والتاريخ وكتب الدين . وكانت كلها تقريباً باللغة الفرنسية ، بحيث اضمحلت تجارة الكتب الدينية المخطوطة باليد في هذه الفترة بشكل ملحوظ ، مما جعل الكتاب المطبوع يحرز قصب السبق ويتفوق على الكتاب المخطوط .

ولهذا نجح فرار في انشاء وتأسيس مؤسسة عظيمة ، كما باع كتباً دينية فاخرة للغاية كانت مطبوعة ومزخرفة ، وكانت هذه الكتب مطلوبة ومرغوبة وخاصة علية القوم ولاسيما الملك شارل الثامن الذي طبع له فرار نسخاً فاخرة وخاصة من كتاب**ساعات الفروض** . وكان فرار قد بدأ في انتاج هذه الكتب اعتباراً من سنة ١٤٨٥ م واصدر في السنوات التي تلتها سلسلتين من الكتب الاولى :**كتب الساعات الصغيرة** والثانية**كتب الساعات الكبيرة** ، وكان قسم من الاخيرة مطبوعاً على رق ، وقد صورت وزينت بصور محفورة على الخشب ورسمت باليد مع التذهيب والالوان الساطعة . ويلاحظ ان الزخارف في هذه الكتب تكاد تطغى على النص . وكانت باريس اكبر مركز لانتاج هذه الكتب التي جرت العادة بتصويرها بعناية شديدة ؛ لهذا صدرت باريس هذه الكتب بكميات وفيرة ، لاللاقاليم فحسب ، بل للخارج ايضاً . ولقد ظلت باريس زعيمة اوربا في انتاج

هذا النوع من الكتب حتى اواسط القرن السادس عشر .

كذلك يجب ان نذكر كتاب **الفارس الحكيم** المطبوع سنة ١٤٨٨ م من بين كتب فرار المصورة الاخرى والتي تمتاز بقيمة فنية عظيمة ، وكتاب **الاسطورة الذهبية** سنة ١٤٩٦ م وغيرهما من الكتب .

ولم يكن فرار هو الطابع الفرنسي الوحيد الذي عكف على نشر كتب ساعات الفروض ، فهناك معاصره الذي ذكرناه آنفاً جان دوبريه ، الذي طبع عدداً من كتب ساعات الفروض ذات الرسوم التي لم تصنع بطريقة الحفر على الخشب وانما طبعت على كليشيهات من النحاس المحفور على البارز .

كذلك يجب ان نذكر الناشر فوستر الذي لايقل عن فيرار في كل شيء يتعلق بالذوق الفني والنشاط التجاري . وهناك من بين ساعات الفروض التي طبعها فوستر مايعتبر من اجمل ما ظهر في فرنسا .

الطباعة في انكلترا :

من الغرابة بمكان ان اول كتاب باللغة الانكليزية لم يطبع في انكلترا وانما في بروج من الاراضي الواطئة وقد قام بطبعه وليم كاكستون بين سنتي ١٤٧٤ و ١٤٧٦ م الذي تعلم فن الطباعة وطباعة الكتاب بالانكليزية بعد ان قام هو نفسه بنقله الى الانكليزية ، والكتاب هو **مجموعة تواريخ طروادة** . ولقد انتقل كاكستون الى انكلترا سنة ١٤٧٦ م حيث اسس هناك مطبعة احضرها معه من الاراضي الواطئة . وقد استأجر مكاناً مناسباً قرب كنيسة وستمنسر وهناك قام بطبع عدد كبير من الكتب . واول كتاب طبعه كاكستون في انكلترا هو كتاب **اقوال الفلاسفة** سنة ١٤٧٧ م . كذلك قام بطبع مؤلفات الاديب الانكليزي تشوسر واشهر كتبه **قصص كنتربري** . ولقد كان كاكستون دقيقاً كل الدقة في طبع كتبه ولكنه لم يهتم كثيراً بزخرفة كتبه ، شأن جميع الطابعين الانكليز القدامى . وقد انتشرت المطابع في انكلترا كل الانتشار بعد وفاة كاكستون سنة ١٤٩١ م .

الطباعة في المانيا الشمالية والدول الاسكاندينافية :

بدأ فن الطباعة في الانتشار في المانيا الشمالية في نفس الوقت تقريباً الذي بدأ يظهر في الاراضي الواطئة وفرنسا حيث وجد عدد كبير من الطابعين المقتدرين . ولقد تركز الفن بمدينة لوبيك المشهورة بنشاطها . واول طابع عرف انه استقر في هذا المكان هو لوكاس برانديس الذي كان من بين مطبوعاته كتاب في التاريخ العام يدعى **خلاصة الانباء** . وهو كتاب كبير فاخر محلى بصور محفورة على الخشب .

كذلك ادخل الطباعة الى كل من الدانمرك والسويد طابع من لوبيك اسمه جوهان سنل Snell .

وهكذا لم تأت نهاية القرن الخامس عشر حتى انتشر فن الطباعة في جميع ارجاء اوربا ، باستثناء روسيا وعدد من دول البلقان ، كما وان اول مطبعة اسست في استانبول سنة ١٤٩٩ م .

وهناك مأثورات سعبية تذكر ان ثلاثة طابعين ذهبوا الى موسكو سنة ١٤٩٠ م ، ولكن ذلك غير مؤكد ، الا ان من المؤكد ان اول طابع معروف اتى الى العاصمة الروسية في سنة ١٥٦٣ م . ووصل الفن الطباعي الى فلسطين سنة ١٥٦٣ م والهند سنة ١٥٥٦ م واليابان ١٥٩٠ م . ووصلت الطباعة الى امريكا اللاتينية قبل مائة سنة من وصولها الى المستعمرات الانكليزية في امريكا ، فقد وجد في مدينة مكسيكو مطبعة وطابع في حدود سنة ١٥٣٠ م وفي البيرو سنة ١٥٨٠ م واول مطبعة اسست في المستعمرات الانكليزية هي التي تأسست في مستعمرة ماساشوسيتس سنة ١٦٣٩ م ، ووصلت الطباعة الى الفيليبين سنة ١٦٠٢ م وايران سنة ١٦٤٠ م والصين سنة ١٦٤٤ م .

لقد وجد في اوربا مطابع في حوالي ٢٦٠ موضعاً قبل سنة ١٥٠٠ م ، وبلغ انتاجها حوالي ٢٧ الف عنوان . لقد كان عدد النسخ الذي تصدره المطابع من كل كتاب يطبع في اول الامر قليلاً يتراوح بين ١٠٠ و ٣٠٠ نسخة .

ولقد حقق فن الطباعة تقدماً كبيراً في القرن الخامس عشر ، فقد ظهرت اول صفحة خلفية للعنوانColophon سنة ١٤٥٧ م ، وبدأت تضاف الى الكتب المطبوعة وسائل الايضاح المصنوعة بالحفر على الخشب منذ سنة ١٤٦١ م ، واستعمل النحاس المحفور منذ سنة ١٤٧٦ م . وقد ظهرت اول صفحة عنوان امامية سنة ١٤٦٣ م واول صفحة محتويات سنة ١٤٧٠ م وعملت محاولات لايجاد فهارس منذ سنة ١٤٨٠ م . وقد وصلت المطابع سنة ١٥٠٠ م الى درجة من التطور لم يحدث بعد ذلك وعلى مدى ٣٠٠ سنة بعد ذلك التاريخ الا في اضيق الحدود ووصل فن الخط المطبوع الى درجة من الكمال لم يبدأ في تخطيها الا منذ مائة سنة . ان اختراع الطباعة قد ادى الى ثورة ثقافية لم يسببها اختراع آخر مفرد منذ اختراع الكتابة . فقد اصبحت منذ ذلك الحين عملية ايصال الافكار الانسانية عبر الزمان والمكان عملية سريعة واقل كلفة .

ان حوالي نصف ماانتجته المطابع في القرن الخامس عشر كان كتباً دينية ، اما الباقي فكان موسوعات وكراسات وتقاويم وبعض كتب في الرياضيات والفلك .

ان مجموع ما انتجته المطابع في القرن الخامس عشر مدهش في عدده وفي كميته وفي مستواه وتنوعه . فقد وجد حوالي ٥٠٠ طبعة للتوراة او اجزائها ، وعدة مئات من الطبعات للكتب الدينية الاخرى مثل كتب الصلوات والمزامير . واذا اضيف الى هذا ما طبع من كتب آباء الكنيسة والقديسين واوائل الفلاسفة المسيحيين ترتفع نسبة الكتب الدينية التي طبعت في القرن الخامس عشر ، كما ذكرنا ذلك آنفاً ، الى حوالي ٥٠٪ من مجموع ماطبع .. كما وان نسبة ماطبع من كتب القانون الروماني تصل حتى ١٠٪ من مجموع ماطبع بما في ذلك القانون الكنسي والشروح على القانونين . وبلغت نسبة كتب الادب ٢٠٪ بين كلاسيكية ووسيطة . على حين لاتبلغ نسبة جميع الكتب العلمية ١٠٪ وماتبقى تشمل كتباً

تاريخية ومدرسية ورحلات ومتنوعات .

ولقد تمتعت مؤلفات شيشرون وفيرجيل واوفيد وسينكا وهوراس وجوفينال وتيرانس بشهرة واسعة بين الكتب الكلاسيكية اللاتينية التي تم طبعها وطبعت اكثر من غيرها . وقد طبعت مؤلفات ارسطو وارستوفانيس وايسوب وهومير وجالينوس وثيوفراستوس وثيوكريتوس ويوربيديس من كتب التراث اليوناني . وطبعت اعمال بترارك وبوكاشيو ودانتي من اعمال مؤلفي القرون الوسطى . ويعتبر كتاب **حوليات نورنبرغ** من اشهر الكتب التي صدرت في حقل التاريخ .

الفصل الحادي عشر

الشروط الفنية والاقتصادية للطباعة والكتب المطبوعة

في القرن الخامس عشر

لاحظنا سابقاً ان اوائل الطابعين اتخذوا المخطوطات نماذج لهم ، وانهم كانوا يحاولون جعل الكتاب المطبوع تقليداً امنياً للكتاب المخطوط ، ولاسيما فيما يتعلق بالزخرفة والتصوير حيث كانوا يتركون في المطبوع فراغاً مناسباً لاضافة الزخارف له - فيما بعد - يدوياً . ولكن هذا الاتجاه مالبث ان زال واقلع الطابعون عن اتخاذ المخطوطات نماذج لهم وبدأوا يطبعون رسوماً مع النصوص نفسها ، وذلك بدلاً من تكليف بعض الفنانين برسمها باليد عقب انتهاء الطباعة . وهذا مااتبع في الكتب اللوحية التي كانت لاتزال واسعة الانتشار خلال العقود الاولى من عهد ظهور الطباعة ، حيث ظهرت فيها الرسوم المطبوعة نتيجة لحفر صورها وطبعها في نفس الوقت مع النصوص المكتوبة فوق الواح من الخشب . وكان طبيعياً ان تنتقل تلك الصور المحفورة على الخشب فيما بعد الى الكتب المطبوعة بحروف متحركة ، بحيث كانت كليشيهاتها الخشبية المحفورة عليها الصور توضع كجزء مكمل للعمود ، بل وتطبع في نفس الوقت مع الحروف المجمعة .

هذا وان اول كتاب استخدم في تزيينه وسائل الايضاح والصور المحفورة على الخشب هو ذلك الكتاب الذي طبعه البرخت فيسترAlbrech PFister من بامبرغ . ويحتمل ان يكون قد بدأ حياته رساماً يلون صور القديسين في كتب الصلوات واوراق اللعب وما اليها من المطبوعات اللوحية الاخرى . ولذا فقد كان خبيراً بالصور المحفورة على الخشب .

وقد قام سنة ١٤٦١م بطبع كتيب شعبي صغير ، وهو غنيٌ بصوره العديدة المحفورة على الخشب وهو كتاب اسمه **حجر كريم** وهو عبارة عن مجموعة قصص خرافية . وفضلاً عن طرافة موضوعه فهو اول كتاب الماني مطبوع ولاتزال توجد منه نسخة واحدة ناقصة مبتورة . وتشكل الخطوط القوية المحفورة في الخشب والتي تصلح للطباعة صلاحية تفوق الوصف ، مضافاً اليها قوة الحروف القوطية ، كلاً له قيمة زخرفية عظيمة .

اضف الى ذلك ان كتب فيستر ومعاصريه لم تكن تهدف الى اي تأثير زخرفي بحال من الاحوال ، ولذا يجب اعتبارها مجرد رسوم حقيقية الغرض منها توضيح النص للقارىء الساذج الذي اعد الكتاب له .

وقد انتشر فن الحفر على الخشب انتشاراً عظيماً بعيد ذلك ، ووجد عدد من الفنانين الالمان الذين كانوا اول من اشاع استعمال الحروف الاولى والمزخرفة على الخشب . ونجد في مختلف كتب الفترة الاولى ان الحفر على الخشب بشكل من الاشكال قد استخدم لتوضيح اشياء مختلفة تمام الاختلاف . فنجد الشكل الواحد يستخدم غالباً في تمثيل عدد من الشخصيات مختلفة كلياً عن بعضها بعضاً . وقد يكون ذلك راجعاً الى الرغبة في الاقتصاد ، وقد يرجع ذلك ايضاً الى ان الفنان القدير كان يلزمه وقت كبير لحفر صورة واحدة فوق قطعة من خشب الزان او الكمثرى . وربما كان ذلك راجعاً الى ضعف الخيال عند الرسام نفسه .

على ان الصور الموجودة في كتب فيستر وغيره من الكتب التي صدرت في تلك الفترة الاولى للتصوير لايمكن اهمالها كلياً من حيث قيمتها الفنية على الرغم مما بها من عيوب . بل ربما اثارت اهتماماً خاصاً لدى البعض بسبب طبيعتها البدائية وسذاجتها . ولهذا لايمكن انكار صلتها بصور القديسين المحفورة على الخشب ، وكذلك صلتها بالصور الواردة في الكتب اللوحية ، ومع ذلك فقد كانت تحمل في ثناياها نواة هذا الفن القائم على الخشب ، وهو الفن الذي مالبث ان سما وارتفع شأنه بعد بضعة عقود من السنين على يد الفنانين دورير وهولباين ، كما وجد في ايطاليا آفاقاً جديدة .

توراة كولونيا المحفورة سنة ١٤٨٠ م :

تمثل هذه التوراة تقدماً جديداً في الحفر على الخشب بالنسبة للفترة القديمة السابقة ، وهي ولاشك اشهر كتب التوراة العديدة المصورة والتي اعتبرت على مر الزمن ممثلة لمرحلة خاصة في تاريخ الكتب . اما صورها فقد رسمها فنان عظيم ، ولكنا نجهل اسمه ، كما لانعلم اسم الحفار المبدع الذي حفر كليشيهات الخشب حسب رسومها .

نجد هذه التوراة ، على عكس معظم الكتب التي مر ذكرها ، تمثل صوراً على الخشب لاتعني مجرد تحديد لمعالم الرسم فحسب ، وانما امكنها ، بخطوطها القوية ، ان تخلع على الشخصيات مظهراً مجسماً ، ومثل هذه الحياة البادية في الرسوم لم تكن معروفة من قبل في الكتب السابقة .

ومالبث فن الحفر على الخشب ان تقدم وتطور حتى اصبح يشكل عنصراً زخرفياً بكل مافي هذه الكلمة من معنى متوافقاً توافقاً تاماً مع النص الوارد في الكتاب . ولعل اهم كتاب صدر في اواخر هذا القرن (١٤٩٣م) يمثل هذا التقدم السريع في فن الحفر على الخشب هو كتاب**تاريخ العالم** ، والذي يعتبر ، بما حواه من الفي صورة مطبوعة على الخشب ، من اثمن الكتب المزودة بالصور والتي ظهرت حتى الآن .

ولقد وصل فن الزخرفة إلى درجات عليا من التطور على يد الألماني راتدولت Ratadolt الذي أسس مطبعة في البندقية سنة ١٤٧٠ م وافتتح فن البندقية الخاص بالحفر على الخشب ذلك الفن الذي قدر له أن يتطور تطوراً عظيماً في الفترة التالية .

ولاشك ان الحروف الكبيرة الاولى والاطارات المحفورة على الخشب التي صنعها راتدولت هذا تعتبر اول مايحمل طابع النهضة ، اذ نجد بها الزخارف القديمة المعروفة في مخطوطات عصر النهضة ، وان كانت محاكاتها قد تمت دون تقليد حرفي . وقد اكتسبت تلك الزخارف ثوباً فنياً بارعاً من السواد والبياض ، الناتج من الحفر على الخشب ، وله نفس الروعة التي امتاز بها في الماضي بهاء الالوان البراقة في المخطوطات .

وحتى بعد ان غادر راتدولت ايطاليا سنة ١٤٨٦ م نجد اثره مستمرا فيها ، اذ لاتنقطع في السنوات التالية زيادة عدد الكتب التي تمتاز صحيفتها الاولى باحاطتها ـ على نسق كتب راتدولت ـ باطار عريض من طراز عصر النهضة ، تتعدد فيه زخارف الاعمدة والاصص واوراق الغار والكرم والحيوانات الخرافية والاقنعة والرؤوس الآدمية وغيرها ، ممتازة في ذلك كله بخيال واسع خصيب .

وهكذا نجد فن الطابعين الالمان الاوائل ، المتخصصين بالحفر على الخشب قد اتحد اتحاداً مثمراً مع الادراك الجمالي الذي كان سائداً في عصر النهضة وخاصة في البندقية من ايطاليا حتى بلغ فن الكتاب ، في وقت قصير للغاية بهاءً لم يبلغه منذ ذلك الوقت في ميدان الطباعة . وعلى الرغم من تجارب القرون التالية ، بل وعلى الرغم من التحسينات الضخمة التي ادخلت على الادوات المستعملة في عصرنا الحالي ، الا اننا في شك ما اذا كنا قادرين على خلق كتب يمكنها ان تنافس او تضاهي الكتب التي طبعت في البندقية في حدود سنة ١٥٠٠ م .

ومن اشهر الكتب المصورة الصادرة في هذه الفترة في ايطاليا كتاب **ترجمة التوراة** الصادر سنة ١٤٨٠ م . ولاشك ان صور هذا الكتاب الصغيرة العديدة المحفورة على الخشب بدقة عظيمة قد تأثرت بصور **توراة كولونيا** .

ولقد ازدهر فن الحفر على الخشب في المانيا اوائل القرن السادس عشر حتى اعتبرت هذه الفترة العصر الذهبي للحفر على الخشب . ويعتبر رائد هذا الفن في المانيا الفنان البرخت دورير Albrech Durer الذي ظهر له في مدينة نورنبرغ سنة ١٤٩٨ م كتاب **رؤيا يوحنا** ، وهو كتاب تمثل لوحاته الخمس عشرة المحفورة على الخشب احد الاعمال الفنية التي تحدد عصراً في فن الطباعة . اذ تزدهر هنا الصورة المطبوعة بالاسود والابيض بحرية تامة ودون اعتماد على تلوين ، بحيث تؤثر تأثيراً رائعاً كاملاً في المشاهدين ، وذلك عن طريق احداث الظل والضوء الناتج عن التباين الذي يظهره مجرد رسم الخطوط السوداء على الورق الابيض فقط .

ولقد انتشر فن الحفر على الخشب في المانيا كلها بسرعة تدعوا الى الدهشة ووصل اقصى نضجه ثم صار بعد ذلك نزعة شائعة في المجتمع مات بعدها من اثر التخمة . ولقد كانت ستراسبورغ من اشهر مراكز هذا الفن في المانيا ، كما كانت

البندقية من اشهر مراكزه في ايطاليا ، وكانت بال من اشهر مراكزه في سويسرا .

ولقد نبغ في بال عدد من الطابعين والحفارين على الخشب اشهرهم هولباين الذي انتج عدداً كبيراً من الكتب المليئة بالزخارف المحفورة على الخشب ، وتعتبر الصورة التي زين بها هولباين كتاب**العهد القديم** الذي اصدره سنة ١٥٣٦ م من اجمل مااصدره من رسوم . فالخطوط الواضحة البسيطة التي تكون صور هولباين انما يبدو انها خلقت خصيصاً ، لما بها من انسجام تام ، مع الحروف الرومانية الدقيقة او المائلة .

ولقد ساعد على تقدم هذا الفن تشجيع الحكام لمثل هذا النوع من الفن وجمعهم الفنانين لانتاج كتب ذات صور محفورة على الخشب ينتجها فنانون قديرون ، كما فعل الامبراطور مكسيميليان الذي جمع حوله خيرة فناني عصره فانتجوا له كتباً غاية في الروعة طباعة وتجليداً وملأوها بالصور الفنية الزاهية المحفورة على الخشب .

ولكن هذه الكتب الفاخرة يجب الاتنسينا بقية الكتب العادية التي صدرت آنذاك ، وهي كثيرة ، لاستعمال الرجل العادي ، على حين ان الكتب سالفة الذكر كانت للاغنياء والمترفين .

هذا وان اغلب الموضوعات التي تحويها تلك الكتب العادبة هي موضوعات دينية امرت الكنيسة غالباً بطبعها بكميات كبيرة وبيعها لافراد الشعب باسعار معقولة ، وهي كتب الصلوات والتراتيل وكتب الفروض الدينية ومااليها من موضوعات . وكان لتلك الكتب الكبيرة اثر زخرفي جليل بفضل حروفها الكبيرة والصغيرة التي تميز فصول النص المختلفة ، بالاضافة الى التعاقب المستمر في الطباعة باللونين الاحمر والاسود . وقد تخصص كثير من المطابع في انتاج هذا النوع من الكتب ، وكذلك الحال في كتب ساعات الفروض الفرنسية الصغيرة وكتب العبادات الالمانية المشابهة .

كذلك تطور فن التجليد تطوراً عظيماً واصبح تجليد الكتب صناعة لها تنظيمها الخاص ، وكان الشائع في الوقت الذي تلا اختراع الطباعة ان يشتغل الطابعون بتجليد الكتب الى جانب طباعتها . ولقد ظهرت في الاراضي الواطئة اواخر القرن السادس عشر طريقة للتجليد كان زخرف الغلاف فيها يحفر كله على لوحة واحدة تطبع بواسطتها الزخارف دفعة واحدة بحيث تبدو الزخرفة بارزة على سطح الجلد . ولقد انتشرت طريقة التجليد هذه والمسماة طريقة التجليند البارزة ، في كل من المانيا وانكلترا وفرنسا عن طريق اعضاء نقابات المجلدين والمهاجرين الذين أسسوا مصانع للتجليد في كل من كمبردج وباريس وليون .

اما التجليد في ايطاليا فقد سار في خط تطوري مغاير كل المغايرة لفن التجليد في كل من المانيا وفرنسا وانكلترا . ذلك ان ايطاليا عامة والبندقية خاصة ، كانت على صلات وثيقة ومستمرة مع الشرق الاسلامي آنذاك ، وقد وفد على ايطاليا مجلدون شرقيون في نهاية القرن الخامس عشر حيث ارتقت الطباعة فيها آنذاك رقياً عظيماً .

ولم ينقل اولئك المجلدون الشرقيون الى زملائهم الايطاليين بعض الخصائص الفنية فحسب ، بل عرفوهم فوق ذلك على اشكال زخرفية جديدة .

واول ما تعلمه الايطاليون من اساتذتهم الشرقيين المسلمين ونفذوه في تجليداتهم هو التذهيب وبدأ المجلدون الايطاليون يمزجون بين التذهيب وبين التجليد على البارد بحيث نشأ من هذا المزج فن تجليدي خليط .

ثم مالبث ان طغى التجليد المذهب على انواع التجليدات الاخرى كما نرى في تجليدات الدوس في ايطاليا التي نفذها لحساب كبار هواة التجليد في عصره امثال غروليه وغيره من الاغنياء .

تأثير الطباعة على المكتبة وعلى شكل الكتاب نفسه :

لقد انتشرت الكتب المطبوعة بغزارة في اواخر القرن الخامس عشر واوائل القرن السادس عشر ، وقد وجد اناس كثيرون يقرأون الكتب ، فادى الطلب على

الكتب الى زيادة الانتاج فيها ، كما ان زيادة حجم انتاج الكتب ادى الى زيادة البشر الذين يقرأون . ومع ازدياد عدد البشر الذين يقرأون اتت العصور السوداء المظلمة الى نهايتها في اوربا . ولعل المطبعة ، اكثر من اي عامل اخر ، مسؤولة عن انتهاء العصور المظلمة وبداية العصور الحديثة .

ولقد غيرت المطبعة ، بشكل خاص ، عالم الكتب ؛ وقد تم هذا التغيير تدريجياً وفي فترة استغرقت نصف قرن او اكثر ، وذلك حسب انتاج المطابع المتزايد الذي ملأ رفوف المكتبات في اوربا . فلم يعد بائع الكتب تاجر المخطوطات ووسيطها ، وانما اصبح تاجر الكتب يخزن الكتب المطبوعة ويبيعها باعداد غفيرة . ولقد ساهمت صناعة الكتاب والاتجار به في ازدياد عدد افراد الطبقة الوسطى ازدياداً سريعاً . ولقد كانت صناعة الكتاب وتجارته شيئاً جديداً ومربحاً ، ووجد عدد من الناشرين اصبحوا اغنياء حقيقيين من جراء اشتغالهم بصناعة الكتاب والاتجار به .

ولقد جلب الكتاب المطبوع الى المكتبة نفسها كثيراً من التغيرات ، ولكن ليس في اول الامر ، ذلك ان كثيراً من امناء المكتبات في القرن الخامس عشر وجامعي الكتب رفضوا اول الامر اضافة الكتب المطبوعة الى مكتباتهم ، فقد كانت الصفحة المطبوعة في نظرهم تقليداً هزيلاً لشيء حقيقي هي الصفحة المخطوطة . ولكن بالتدريج حل الكتاب المطبوع محل المخطوط واصبح المخطوط فيما بعد شيئاً نادراً اكثر مما هو شيء عادي يمكن استعماله باستمرار . ولقد زالت المناسخ من المكتبات مع قدوم الكتب المطبوعة التي وضعت على الرفوف المفتوحة . وان غزارة الكتب المطبوعة وتنوعها جعل بالامكان اعارتها اعارة خارجية ، وقد ادى ذلك بالتالي الى تأسيس مكتبات الاعارة باجرة فيما بعد في القرن الثامن عشر . كذلك تطلب وجود الكتب باعداد وفيرة وتزايدها المستمر اختراع اساليب جديدة من التصنيف واعيد ترتيب الكتب على الرفوف واجريت في هذا المجال عدة تجارب .

ولقد تنوعت الكتب كثيراً في حجمها ومحتوياتها في العهود الاولى من اختراع الطباعة . فقد كان كثير منها لايزال ذا حجم كبير ، بحجم النصف او الثلث .

وكانت هذه الكتب تشابه في حجمها المخطوطات المجلدة ، ولكن بعد فترة بدأت تظهر كتب ذات حجم صغير ـ هي كتب بحجم الثمن ـ ورائدها هو الدوس في البندقية . وظلت المطبوعات الدينية تفوق جميع انواع المطبوعات الاخرى . ولكن بعد فترة بدأت تنتشر الاعمال المعاصرة من علم وادب ورحلات وقصص ، الى جانب ان بدأ الطابعون يطبعون كتباً ، يتزايد عددها يوماً بعد يوم ، باللغات المحلية . وبعد فترة حل الحفر على النحاس محل الحفر على الخشب ، وتغيرت اشكال الحروف الطباعية في عدد من الدول باستثناء المانيا . فقد بسط الطابعون الذين اتوا في اواخر القرن الخامس عشر ومابعده الحرف القوطي الاسود الغامق ، واوجدوا خطاً اخف واقل سواداً وذاع استعماله .

صفحة العنوان :

كذلك تطورت صفحة العنوان في الكتب المطبوعة ، ذلك ان اول صفحة للعنوان استعملت في اوائل الكتب المطبوعة هو الكولوفونColopfon ، وكان مكانه في آخر الكتاب ويحمل اسم الكتاب واسم المؤلف والناشر او الطابع .

واننا لنجد الكولوفون موجوداً في ملفات البردى القديمة ، اذ كان يذكر في آخر الملف اسم المؤلف وعنوان الكتاب وموضوعه . ولقد تطور الكولوفون مع قدوم الكتاب الكراس ، فعندما حل الكتاب الكراس محل الكتاب الملف في القرن الخامس ، اعتاد بعض الناسخين ان يضيفوا اسماءهم وتاريخ ومكان النسخ الى آخر المخطوط ، وكانوا يوجهون الشكر ، بعض الاحيان ، لله تعالى ، لمساعدته اياهم في انجاز العمل ، ويسألون القارىء الدعوات الصالحات . وقد اعتاد بعض الناسخين ان يرتبوا الكولوفون في شكل هندسي .

ووجد هناك نساخ آخرون كانوا يضيفون الى الكولوفون بعض المعلومات التي يهمهم ان يطلع عليها القراء مثل : طريقة استخدام المخطوط او التحذير من اللصوص . ونجد في المخطوطات الشرقية في كثير من الاحيان دعوات صالحة موجهة للناسخ والواقف ، الى جانب تاريخ الانتهاء من النسخ وتوقيع الناسخ او ختمه .

واول كولوفون ظهر في الكتب المطبوعة هو الكولوفون الذي اضافه فوست وشوفير الى كتاب المزامير الذي تم طبعه سنة ١٤٥٧ م ويحوي اسميهما وتاريخ الانتهاء من الطباعة . كذلك ظهر الكولوفون في كتاب التوراة الذي طبعه نفس الطابعين سنة ١٤٦٢ م ، واضافا الى ما سبق ان ذكرناه شعارهما المؤلف من ترسين توأمين يتدليان من احد الاغصان . ومنذ ذلك الحين انتشرت عادة تسجيل اسم الطابع ومكان الطبع وتاريخه وعلامة الطابع في الكولوفون .

ويمكن تتبع تاريخ الطباعة وانتشارها عن طريق دراسة هذه الكولوفونات . لم يرد ذكر لغوتنبرغ في اي من الكولوفونات على انه مخترع الطباعة ، ولكن ورد اسم مدينة منيز على انها المدينة التي ظهر فيها فن الطباعة لأول مرة وتكامل . ولقد اضاف المصحح لكولوفون كتاب مؤسسات جوستنيان الذي طبع سنة ١٤٦٨ م اشعاراً يذكر فيها ان فن الطباعة اوجده اثنان اسم كل منهما جان ، وآخر اسمه بيتر . وربما كان ذلك اشارة الى جوهان غوتنبرغ وجوهان فوست وبيتر شوفير .

وقد مدحت الغالبية العظمى من الطابعين لطباعتها لكتابها في الكولوفون ونسبت الاخطاء المطبعية الموجودة في الكتاب الى العمال الذين قاموا بصف الاحرف وابدوا اسفهم لذلك . ولقد اعتبر الطابعون انفسهم ورثاء للناسسخين ولذا فقد نظروا الى عملهم على انه شيء مقدس وسألوا القراء ان يباركوا اعمالهم ، كما طلبوا الحماية من الله تعالى او من العذراء السيدة مريم او من القديس انطوني (من بادوا) الذي اعتبر حامي الطابعين . ولقد تغير شكل الكولوفون وتصميمه لجذب انتباه القارىء له . كذلك حوت بعض الكولوفونات فكاهة ، ووجد في بعض الكتب كولوفون مضاعف ، بل ووجد في عدد من الكتب عدد من الكولوفونات احدها للطابع وآخر للناشر وثالث للمؤلف وهكذا . . .

وقد اعتاد بعض الطابعين ان يجعلوا الكولوفون طويلاً جداً ، واعتاد آخرون ان يعلنوا في الكولوفون عن كتب طبعوها هم انفسهم وعن كتب سيطبعونها مما جعلها وسيلة للدعاية والاعلان . هذا وقد حوت بعض الكولوفونات التي صدرت في القرن الخامس عشر ، الى جانب الاخبار المألوفة والمعلومات المعروفة

عن الطابع والناشر والمؤلف ومكان وتاريخ الطبع ، اخباراً تتعلق بالطاعون والطوفانات والزلازل والحكام ووفاة بعض الطابعين القدامى وبروز طابعين جدد .

وتكشف الكولوفونات الملحقة بالكتب التي طبعت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر عن تطور مهم حصل في حقل الطباعة ، ذلك ان بعض الكولوفونات ذكرت حقوقاً ومميزات جديدة منحت للطابعين والناشرين . واول ذكر لامتياز من هذا النوع ورد في كولوفون ملحق بكتاب طبع سنة ١٤٩٢ م . فقد ورد فيه ان للطابع حق اعادة طبعه لمدة عشر سنوات وتفرض غرامة خمسين ليرة على من يخالف ذلك . وقد بدأ الامتياز في ايطاليا في القرن الخامس عشر ثم انتشر الى بقية البلدان . ولقد نقصت اهمية الكولوفون في القرن السادس عشر ، ولكن وجد بعض الطابعين الذين استمروا في استعماله .

هذا ويجب قراءة كولوفونات القرنين الخامس عشر والسادس عشر بعناية وحذر وذلك لوجود كثير من الاخطاء والمغالطات فيها ووجود كثير من الاكذوبات والتلاعب بالتواريخ . وان اشهر حالات ذلك هو اعادة طبع كتب من جديد دون تغيير الكولوفون الذي اخذ من الطبعة السابقة . ولما لم يكن هناك حفظ لحقوق التأليف فقد انتشرت السرقة والقرصنة . كما كان بعض الطابعين يعيدون طبع الكتاب مع الكولوفون السابق ويضيفون كولوفونهم الخاص فيوجد في الطبعة المتأخرة كولوفونات او كولوفون مضاعف . واحياناً كانوا يعيدون طباعة الكتاب ويضعون اسمهم في الكولوفون مكان اسم الطابع القديم . ولقد اهمل الناشرون في القرنين السابع عشر والثامن عشر الطابعين كثيراً ولم يعد الكولوفون يستعمل الا في بعض المناسبات ؛ فقد استعمل ليصحح صفحة العنوان او ليكمل المعلومات الموجودة في صفحة العنوان .

ولقد حاول وليم موريسWilliam Morris احياء استعمال الكولوفون في الكتب المطبوعة ، وكان ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما بدأ في احياء وابراز المعايير الرفيعة التي استعملت في الطباعة في القرن الخامس عشر . وفي ايامنا هذه فان اغلب المطابع الخاصة ـ في الولايات المتحدة الامريكية ـ

تستعمل الكولوفون ، بعضها مختصر ويحوي انباءً صحيحة ، وبعضها مطول يحوي ملحاً وفكاهات .

الظروف الاقتصادية للطباعة الاولى :

كان عدد كبير من الطابعين يتجول في انحاء اوربا من مكان الى مكان ويحيا حياة متنقلة من بلد الى بلد ، ويرجع السبب في ذلك الى ان بعض الكنائس الخاصة والمؤسسات الكنسية الاخرى كانت مواردها اضعف من ان تمول مطبعة خاصة بها باستمرار ، مما اضطرها عادة الى استدعاء احد الطابعين لمدة محدودة من اجل طبع كتبها الدينية ، كما كانت الحال مثلاً مع الطابعين سنيلSnell وآرنديس .

منافسة المخطوط للمطبوع :

كان تجار الكتب قد انشأوا نقابة تضم النساخين والرسامين والمجلدين ، وحاولوا بمساعدة الجامعات ، التقليل من شأن منافسيهم الجدد (الطابعين) وتحقيرهم . ولكن جهودهم باءت في النهاية بالخيبة والخذلان . ولقد حافظت المخطوطات في العهود الاولى على سيادتها اذ ظلت موضع التقدير والاعتبار ، كما كانت الحال في العصر القديم بالنسبة لملفات البردى عندما نافستها كتب الرق الاولى ، او كما هي الحال في العصور الحديثة بالنسبة للكتب المطبوعة بطريقة جمع الحروف باليد امام منافسة الكتب المجموعة حروفها آلياً . والواقع ان كثيراً من هواة جمع الكتب في هذا العصر كانوا معادين عداوة صريحة للكتاب المطبوع ، الى حد انهم لم يطيقوا أبداً اضافته الى مجموعات كتبهم ، كما فعل الدوق فريدريك دوربان . وتعتبر محاولات اقدم الطابعين لمحاكاة المخطوطات دليلاً على مقدار المكانة العظيمة التي كانت تحتلها تلك الكتب المخطوطة . ومع ذلك يجب ان نقرر انه حوالي نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر بدأ فن تصوير المخطوطات ، وبالتالي محاولات تقليد المطبوع للمخطوط في الاضمحلال ، وان

ظل له في الواقع عدد معين من الانصار وعدد معين من المختصين الاكفاء . ولكن ايام المخطوط الذهبية ولت الى غير رجعة .

ومهما يكن من امر فقد رسخت اقدام الكتاب المطبوع في وقت قصير ، بحيث تحول كثير من الخطاطين والنساخين والرسامين القدامى الى طابعين ناشرين ، او الى حفارين على الخشب ، كما اتخذ الكتاب المطبوع مكانه شيئاً فشيئاً على رفوف خزائن الكتب ، هذا على الرغم من ان بعض المكتبات ظل يصر على اعطاء مكان الصدارة في مجموعاتها للمخطوطات دون الكتب المطبوعة ، مع وجود اعداد ضخمة من الكتب المطبوعة .

ولقد استدعت الكنيسة الطابعين لخدمتها ، وحل في الاديرة المطبعة محل المنسخ القديم . كذلك ادرك الانسانيون الايطاليون فائدة واهمية فن الطباعة الجديد وما يمكن ان يؤديه من خدمات ، على الرغم من تفضيلهم المخطوط ، ولذا سرعان ما بدأوا في استخدامه .

المنافسة بين الطابعين :

لقد ذرت المنافسة بين الطابعين قرنها بعد ذلك التطور السريع في مجال الطباعة ، اذ ان تخفيض الاسعار كان مما يساعد على اتساع سوق الكتب ، فلم يكن ظهور مؤلفات شعبية كثيرة في انتاج هذه الفترة الاولى ، امراً يرجع الى محض الصدفة ، وكان من بين هذه المؤلفات الشعبية التي صدرت باللغة الوطنية ، كتب تاريخ وكتب خرافات ومواعظ دينية او مغامرات او غير ذلك من الكتب . وكانت هذه الكتب تزين بصور جذابة بقصد ان تنال انتشاراً واسعاً بين طبقات الشعب العامة التي ظلت حتى آنذاك بعيدة عن دائرة مشترى الكتب .

ومع هذا فان هذا الجمهور لم يكن كبيراً للغاية ، ولاقادراً على امتصاص ذلك التيار الجارف من الكتب . حقاً ان الظروف في ايطاليا كانت اكثر ملاءمة . اما في الاقطار الاخرى فلم يكن للطابعين بها ارباح طائلة مما جعل بعضهم يتجول بين عدد من الاقطار وهم يحملون معهم آلاتهم الطباعية . والمعروف انه بلغ عدد الكتب المطبوعة حتى سنة ١٥٠٠م حوالي ٣٠ الف كتاب (ثلثها في المانيا

وحدها) . ومع ان عدد النسخ المطبوعة من كل كتاب كانت تتراوح في اغلب الاحيان بين ١٠٠ و ٣٠٠ وقلما تصل الى ١٠٠٠ ، الا اننا نجد انفسنا امام انتاج غزير كل الغزارة .

باعة الكتب المتجولون :

كان اغلب الطابعين في تلك الفترة هم بائعو الكتب في الوقت ذاته ، فيقوم ببيع الكتب التي طبعها . ولكن لم يلبث ان ظهر الباعة المتجولون للكتب ، وهم الوكلاء الذين يتنقلون من بلد الى بلد لبيع الكتب التي يشترونها من الطابعين .

ولايزال يوجد حتى زماننا هذا نشرات وزعها الباعة المتجولون ترجع الى عام ١٤٩٦ م تعلن وصولها الى المدينة ، كما كانت هذه النشرات تحوي اسماء الكتب التي يعرضها الباعة ، داعية الزبائن الى زيارة محلهم الذي اقاموه في الفندق حيث ينزلون .

كبار الناشرين :

لم يحقق ارباحاً مجزية من هؤلاء الطابعين غير بضعة نفر منهم ممن كانت صفقاتهم كبيرة وممن استطاعوا افتتاح الحوانيت على نفقتهم في المدن التجارية الكبرى من امثال شوفير في باريس ، ذلك لان سوق الادب اللاتيني لم يكن وقفاً على حدود بلد اوربي واحد .

وصارت فرانكفورت وكولونيا وستراسبورغ مراكز لتجارة نشطة في الكتب . وكان من بين الذين اشتغلوا بهذه المدينة الاخيرة جان منتلان الذي طبع اول توراة المانية ، وكان يقوم بطبع الكتب ويكلف الطابعين الآخرين بطبع الكتب له ، وكان يدفع لهم اجر انتاجهم ورقاً ابيض يعادل ضعف ماكانوا يقدمون له من ورق مطبوع . على ان اعظم هؤلاء الطابعين الناشرين كان انطون كوبرجرKoberger الذي كانت مؤسسته في نورنبرغ اعظم المؤسسات الالمانية في عصره حتى بلغ عدد الكتب التي نشرها بنفسه ما يقرب من مائتي وعشرين كتاباً . وكان له فروع في فرانكفورت وباريس وليون ، كما كانت له صلات تجارية مع تجار

الكتب في ايطاليا وهولندا والنمسا والمجر ، ولقد نشر مندوبوه المتجولون النشطون كتبه لافي ارجاء المانيا وحدها ، وانما في الدول المجاورة ايضاً . كذلك احتل في ايطاليا نقولا جينسون الذي كان مقره البندقية المكانة الاولى حول نهاية القرن الخامس عشر .

الاعمال التجارية :

لم يكن من النادر ان يشترك طابع وحفار على الخشب وممول في انتاج كتاب ضخم . وهذا ما فعله انطون كوبرجر سنة ١٤٩٢ م عندما عقد اتفاقاً مع بعض الفنانين والممولين بقصد نشركتاب**تاريخ العالم** لمؤلفه شدل باللغتين الفرنسية والالمانية . وكان مقرراً صدوره في طبعتين احداهما ملونة بالحفر على الخشب والاخرى غير ملونة . وكان من المقرر ان ينال جميع المشتركين في هذا المشروع نصيباً من الارباح . وكان بعض طابعي هذه الفترة المبكرة على قدر كبير من الثقافة ، كما كان بعض البحاثة يلتحقون بخدمة المطابع الهامة كناشرين ومصححين .

متجر الكتب :

لقد بدأت متاجر الكتب المتنوعة تظهر في المدن الكبرى والمتوسطة في اواخر القرن الخامس عشر ؛ وقد اسسها واستخدمها كبار الناشرين ، واستطاعوا بهذه الوسيلة ليس فقط بيع كتبهم التي يقومون بطبعها ، وانما يستطيعون بيع الكتب الاخرى التي ينشرها غيرهم من الناشرين . كما تأسست متاجر كتب مستقلة لبيع الكتب المتنوعة وذلك في كل مكان وجدت فيه تسهيلات تجارية وخاصة المراكز التجارية والجامعية الكبرى . ومن المؤكد ان الناشر كان يمنح خصماً لتاجر الكتب بالتجزئة ، وان كان لايعرف بوجه عام الكثير من العلاقات بين الطرفين ولامعدلات الاسعار في تلك الحقبة المبكرة من تاريخ الطباعة .

التقليد :

يحتمل ان كثرة عدد النسخ المقلدة ـ التي انتشرت انتشاراً واسعاً في العهد الاول للطباعة ـ كان من جملة اسباب هبوط اسعار الكتب تدريجياً ، ولم يكن هناك اي سبيل امام الناشرين والطابعين للمحافظة على حقوق ملكيتهم . وقد قلدت كتب كثيرة منذ ظهورها . وربما فسر التطور السريع لعلامات الطابعين رغبتهم في اثبات ملكيتهم لهذه الكتب . ولاجدال في ان اول علامة لطابع فرنسي كانت للطابع الباريسي انطوان كايو الذي قلد كتب**ساعات الفروض** التي نشرها جان دوبريه . ومع هذا فلم يمنع هذا من ظهور مقلدين ايضاً لعلامات الطابعين نفسها ، مما اظهر عدم كفايتها لحماية حقوق الطبع .

دراسة اقدم المطبوعات : INCUNABULA

يطلق على اقدم الكتب المطبوعة ، حتى ١٥٠٠ م ، اسمLncunabula ، وهي كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينيةCunabulum ومعناها المهد . وقد درست هذه الكتب دراسة مكثفة جداً ، والف عنها العديد من الكتب واعدت لها الفهارس المتعددة المتقنة . وعرف عددها واماكن وجودها ، كما درست خصائصها الفنية والطباعية واحرفها التي طبعت بها مما يشكل موضوعاً مستقلاً قائماً بذاته .

الفصل الثاني عشر

تطور صناعة الكتاب في أوربا
خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر

حدثت خلال هذين القرنين تطورات سياسية ودينية واقتصادية وثقافية ضخمة لم تمر دون ان تترك اثارها على الكتاب وصناعته .

فقد ظهر الاصلاح الديني في القرن السادس عشر وانشقت الكنيسة على نفسها وظهرت الحركة البروتستانتية التي دعت الى اصلاح الكنيسة واعتمدت على نشر الكلمة المطبوعة بين الجماهير مما ادى الى انتشار الكتب الدينية ، كما دعت الى استعمال اللغة القومية في العبادات بدلاً من اللاتينية مما ادى الى رقي وازدهار اللغات القومية . ولقد نتج عن حركة الاصلاح الديني التي بدأها لوثر في سنة ١٥١٧ م والاصلاح المعاكس حروب كثيرة جداً مما ادى الى احراق الكتب وتدمير المكتبات ، وكان مسرح هذه الحوادث المانيا في الاعم الاغلب فانحطت حركة طباعة الكتب فيها لهذا السبب . ولقد برزت في هذا العصر الدول القومية الكبرى وبدأ الصراع بينها من اجل السيادة والاستعمار كفرنسا وانكلترا وهولندا واسبانيا ، وشاهدت نهاية هذا العصر افول نجم كل من اسبانيا وهولندا وبقيت فرنسا وانكلترا في الميدان .

ولقد شجع الملوك ، ولاسيما ملوك فرنسا ، الفنانين والكتاب والادباء واغدقوا عليهم المنح والاموال مما كان له اثره في ازدهار فن الكتاب في فرنسا في هذين القرنين من الزمن . كذلك انتقل فن الطباعة في اواخر هذا العصر الى العالم الجديد وفتحت بذلك امامه افاق واسعة وامكانات ضخمة .

ولقد استغل لوثر وانصاره في المانيا ، الذين ثاروا ضد الكنيسة الكاثوليكية وسلطتها وفسادها ، الطباعة احسن استغلال لنشر مبادئهم بين الناس . وكانت العادة سابقاً ان تنشر الكتب الدينية باللغة اللاتينية ، فقام لوثر بنشر كتبه والف

هذه الكتب باللغة الالمانية وطبعها باعداد ضخمة . ولقد انهالت سيول المطبوعات على المانيا والبلاد المجاورة اعتباراً من سنة ١٥١٧ م فما بعد ، ووجدت به الحركة الدينية الجديدة سلاحاً من امضى اسلحتها ، حتى انه يحق القول ان الانتصار السريع الذي ناله الاصلاح الديني ، انما يرجع الفضل فيه الى اختراع الطباعة .

ومن الجلي الواضح ان الغاية من الطباعة لم تكن آنذاك النواحي الفنية ـ جمال المظهر والثوب الزخرفي للمطبوع ـ اذ كانت المطبوعات الدينية الخاصة بالمناسبات تباع بثمن بخس لتحقيق الاهداف التي يريدها المصلحون الدينيون . ولذلك فقد انحط نوع الورق واستعملت في الزخرفة الكليشيهات التالفة للزخارف المحفورة على الخشب الى النهاية ، واصبحت الطباعة بالتدريج عملية آلية قبيحة .

كان هذا هو الاتجاه العام للغالبية العظمى من مطبوعات عصر الاصلاح الديني ، فيما عدا بعض الحالات النادرة جداً . ومع هذا يجب الانسى ان الاصلاح سبب نشر الكتاب بين افراد الشعب الى حد لم يكن معروفاً آنذاك ، وبلغ تأثيره حداً كبيراً ، بحيث ننسب ، بحق ، اصل الجهود المبذولة فيأيامناهذه ـ في اوربا ـ من اجل التعليم الشعبي الى اهتمام اللوثرية بالحياة العقلية لابناء الشعب .

ولايقتصر هذا التدهور في مستوى الطباعة على الكتب الشعبية الرخيصة المعدة للتوزيع على افراد الشعب لتعليمهم مبادىء الديانة الجديدة او الدفاع عنها ، وانما يشمل ايضاً المطبوعات الدينينة البروتستانتية وكتب التوراة المصورة ، فلا يمكن ان توازن بمثيلاتها من الكتب الكاثوليكية المطبوعة في نفس الفترة . ولقد انتهى العصر الذهبي للكتب الدينية الكبيرة حوالي نهاية القرن السادس عشر ، كما اختفت الطبعات الخاصة العديدة التي كانت تنشرها الاسقفيات .

ولقد احتلت المانيا الشمالية المكانة الاولى في كل المانيا في القرن السادس عشر وتحولت مدينة ووتنبرغ الى مركز هام في عالم الكتب . كما صار انتاج لوثر الغزير في العظات والمؤلفات الدينية الجدلية والتهذيبية موضع تقليد متعدد من قبل

المطابع ، كما ساعد التجار المتجولون على تنشيط بيع هذه الكتب نشاطاً ضخماً بزيادة نشر التوراة والمزامير باللغة الالمانية .

ولقد نفدت خلال ثلاثة شهور الطبعة الاولى من ترجمة العهد الجديد للوثر والتي طبعت سنة ١٥٢٢ م في ووتنبرغ في خمسة الاف نسخة على الرغم من ارتفاع ثمنها النسبي . ثم اعيد طبع هذا الكتاب بكميات هائلة (مائة الف نسخة) .

ولكن طباعة الكتاب وصلت مرحلة راقية كل الرقي في فرنسا على يد فنان الكتب القدير غودفروا ثوري . كان ملوك فرنسا آنذاك ملوكاً متنورين جمعوا حولهم العلماء والفنانين ، ولذلك ازدهرت في فرنسا نهضة ادبية ، وكان فن الطباعة مزدهراً ، ولقد ارتقى هذا الفن رقياً عظيماً عندما هجر فنان الكتب غودفروا ثوري ميدان العلم الى عالم الفن حوالي سنة ١٥٢٠ م .

كانت الحروف القوطية لم تزل سائدة في عالم الطباعة في فرنسا ، وان يكن الاثر الايطالي قد بدا في الظهور في هذا الميدان بحيث ان قد بدأ استخدام الحروف الرومانية التي ادخلت الى باريس سنة ١٥٠٢ م في طبع كثير من الكتب الفرنسية . غير ان ازدهار الحرف الروماني وتنسيق حركة الكتاب لم يبدأ في فرنسا الا على يد توري المذكور آنفاً . فقد كان توري ذا مواهب عالية كرسام وحفار للكليشيهات الزخرفية الطباعية . وقد درس علوم اللغة وصار استاذاً لها في كلية برغونديا في باريس ، وزار ايطاليا مرتين في شبابه ، وما ان عاد الى باريس سنة ١٥١٨ م حتى دخل ميدان الطباعة مستوحياً النماذج الايطالية فصار تاجر كتب وطابعاً ، وما لبث ان احتل بسرعة مكانة مرموقة في هذا الميدان بفضل مواهبه العديدة كرسام وحفار وصاهر للحروف وصاحب نظريات في فن الطباعة .

وقد انعكست روح النهضة في مؤلفاته وبشكل خاص في كتاب من اشهر كتبه اصدره سنة ١٥٢٩ م بعنوانChampfleury ، وهو يعالج في كتابه هذا تصحيح الاسلوب ، كما يعالج الجمال الفني للطباعة . ويعتبر هذا الكتاب من اشهر واوائل الكتب التي تحاول تحديد النسب بين حروف الطباعة واعطاء نظريات عامة تتعلق بالزخرفة وعلاقتها بالنص . ويعتبر هذا الكتاب عملاً مبتكراً ويبدأ عصراً جديداً في تاريخ فن الكتاب الفرنسي .

ولقد خطت الطباعة كلها ، والحروف الرومانية بخاصة ، خطوات واسعة في سبيل التطور ، وقد تم هذا التطور على يد اسرة أستين الشهيرة التي نبغ منها عدد كبير من الطابعين وظلت اكثر من نصف قرن اكبر طابع للكتب في فرنسا كلها .

كذلك اشتهر في اواخر القرن السادس عشر في هولندا طابع وفنان من اشهر من عرفه عالم الكتب هو الفنان بلانتان الذي اسس مطبعة في أنفرس واشتهر بفنه الى حد ان اسمه صار علماً في تاريخ الطباعة .

انتج بلانتان خلال حياته واثناء اشتغاله بطبع الكتب في مدينة انفرس حتى وفاته سنة ١٥٨٩ م اكثر من الف وستمائة كتاب ، وكان بعضها على اعظم جانب من الاهمية . وطبع باغلب اللغات الاوربية . ولقد اصدر توراة كبيرة في ثمانية مجلدات ، طبع نصها بخمس لغات مختلفة بين عامي ١٥٦٩ و ١٥٧٣ م .

وكان لبلانتان سوق واسعة جداً واغرقت كتبه المانيا واسكندنافيا وفرنسا واسبانيا وانكلترا ، وقد طبع كتباً علمية ولغوية وقانونية ورياضية وغير ذلك ، كما طبع عدداً كبيراً من الكتب الدينية ، وكلها تحمل شارته الطباعية ، وهي عبارة عن يد وفرجار .

وقد استعمل بلانتان الحروف الرومانية القوية العريضة وجعل لها عدداً من المميزات الفنية حتى تفوقت على الحروف الاخرى التي كانت سائدة آنذاك . وقد كان له تلاميذ واقارب ورثوا مصانعه واعماله ، وظلت هذه المصانع والمطابع حية تنتج حتى سنة ١٨٧٦ م عندما اشترت الحكومة البلجيكية البيت الذي كان مقراً لمؤسسة بلانتان بانفرس واقامت به متحفاً سمي باسم متحف بلانتان ـ مورتيوس ـ وهو مشهور في جميع ارجاء العالم . ولم تزل المطابع القديمة موجودة فيه وتشرح بالدليل العملي ظروف الطباعة آنذاك .

ويعتبر تأسيس ريشيليو للمطبعة الملكية في اللوفر سنة ١٦٤٠ م حدثاً هاماً في تطور صناعة الكتاب في فرنسا في القرن السابع عشر ، اذ خرجت منها سلسلة كاملة من الكتب الفاخرة ، منها توراة سنة ١٦٤٢ م .

واشتهر في فرنسا في هذا القرن الفنان لوكليرLecler الذي كان شغوفاً بالرياضيات . ومع ذلك ، وعلى الرغم من النشاط العظيم الذي ظهر في فرنسا في حقل الكتب وطبعها في القرن السابع عشر ، الا اننا لانجد في هذا القرن ناشرين فرنسيين يمكن موازنتهم بامثال انطوان فرار او سيمون فوستر .

وتعتبر بلجيكا وهولندا البلدين اللذين احتلا مكان الصدارة في فن انتاج الكتب في هذا القرن . ولابد من ارجاع اسباب هذا التفوق الى السيادة السياسية للاراضي الواطئة في ذلك العصر من ناحية ، والى تفوق مركزها في عالم العلم من ناحية اخرى . ولاعزو في ذلك فقد كانت جامعة ليدن يؤمها افواج الطلاب من جميع انحاء الدنيا ، ممن وفدوا عليها لحضور دروسها التي كان يلقيها عدد كبير من مشاهير الاساتذة .

ولقد اشتهرت في هولندا اسرة الزفيرElzevir في ميدان الطباعة شهرة واسعة حتى ان سمعتها انتشرت في كل اوربا في هذا القرن . بدأ لودفيك الزفير عمله ببيع الكتب للطلاب في جامعة ليدن ؛ ثم توسع في تجارة الكتب تدريجياً توسعاً فاق الوصف ؛ اذ ان نشاطه قد امتد من حدود مدينته ـ ليدن ـ ووطنه ، فبنى فرعاً دائماً له في فرانكفورت كانت تشتري منه كل المانيا الجنوبية حاجتها من الكتب الاجنبية .

ولقد خلف لودفيك الزفير اسرة كبيرة من الناشرين والطابعين وامتد نشاطها الى الكثير من المدن الهولندية ، مما اعطى اسم هذه الاسرة شهرة واسعة في كل انحاء اوربا . وكان اشهر افراد هذه الاسرة شقيق لودفيك وحفيده ، وتعتبر فترة نشاطهما (١٦٢٥ ـ ١٦٥٢ م) ذروة مجد الزفير . ولقد اشتهرت هذه الاسرة بطبعاتها الشعبية ذات الحجم الاثنى عشر لعدد كبير من الكتب . وقد اعتبرت هذه الكتب شيئاً ذا صبغة شعبية ومالبث الطلب ان اشتد عليها بسبب حجمها السهل وثمنها المعتدل . وهذا يذكرنا بطبعات الدوس للكتب الكلاسيكية في البندقية . ولكن هذه الطبعات لاتوازن بطبعات الدوس من حيث دقة النص ، الا انها بفضل نقاء حروفها وصفائها اكتسبت مظهراً مهيباً .

كذلك قامت اسرة الزفير بطبع كتب اخرى غير كلاسيكية بجانب الكتب الكلاسيكية . ولقد استقر احد احفاد لودفيك الزفير ، واسمه لودفيك الصغير في امستردام وطبع كتب الفيلسوف الفرنسي ديكارت ، كما قام بطبع مؤلفات مشاهير الكتاب الفرنسيين من امثال موليير وكورني وراسين. . .

لقد فاق نشاط اسرة الزفير في حقل تجارة الكتب نشاط جميع معاصريهم ، فلم يضارعهم احد في سعة علاقاتهم التجارية ، وقد هيأوا للادب الفرنسي انتشاراً كبيراً باعادة طبع الكتب الفرنسية ونجحوا في عقد صفقات ضخمة مع انكلترا ، ذلك ان كل تجارة الكتب التي قامت بين انكلترا والقارة الاوربية كانت تمر آنئذ بهولندا ، وكان لاسرة الزفير المكانة الاولى في هذا الميدان .

كذلك وجد في هولندا مؤسسة طباعية اسستها اسرة بلاي ، وهي اسرة اشتهرت بطبعها المصورات والاطالس والخرائط ، وقد نالت هذه الاسرة شهرة واسعة بطبعها اطلساً شهيراً كل الشهرة وضعه احد ابنائها جوان وتم طبعه سنة ١٦٠٢ م في احد عشر مجلداً بحجم النصف . وعلى الرغم من كبر حجم هذا الاطلس وارتفاع ثمنه الا انه كان مطلوباً للغاية ، ولم يزل هذا الاطلس عظيم القيمة حتى ايامنا هذه .

واذا القينا نظرة عجلى على تطور فن الكتاب ـ ونقصد بفن الكتاب زخرفته وتجليده وما الى ذلك من عناصر جمالية تضفي على الكتاب مسحة جمالية ـ وجدنا ان هذا العصر شاهد اتجاهين متعاكسين : الاول اضمحلال الحفر على الخشب ، والثاني ازدهار الحفر على النحاس .

ولقد ظل الحفر على الخشب سائداً في اوربا اوائل القرن السادس عشر ، وان يكن فقد الكثير من اهميته وقيمته الفنية . ولقد اصبحت فرانكفورت في المانيا مركزاً لهذا النوع من النشاط الفني ، فقد وجد فيها عدد من كبار الفنانين الكبار المتخصصين في تزيين الكتب وقاموا بنشاط كبير وزخرفوا عدداً كبيراً من الكتب ، ومن اشهرها واكثرها شيوعاً كتاب مصور بصور محفورة على الخشب اصدره سنة ١٥٦٤ م جوست آمان Jost Amman بعنوان **وصف جميع حرف الارض** .

ونجد في هذا الكتاب اقدم الصور التي تمثل مطبعة ومصنعاً للتجليد وآخر للورق . . .

غير ان الحفر على الخشب مالبث ان اضمحل تدريجياً بوجه عام خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر ؛ ولكن ماان بدأ الحفر على الخشب يضمحل حتى أطل برأسه الحفر على النحاس الذي كان ظهر في الكتب عرضاً ، ودخل في صراع عنيف مع الحفر على الخشب حتى تمكن في النهاية من طرد الحفر على الخشب والحلول محله . وكان الطابع بلانتان قد استخدم الحفر على النحاس في الكثير من طبعاته الجميلة على نطاق واسع ، واصبح الحفر على النحاس مطلوباً للغاية ، ولم يستعد الحفر على الخشب عرشه الذي فقده الا في القرن التاسع عشر .

ظهر اول كتاب مصور بصور محفورة على النحاس في فلورنسة سنة ١٤٧٧ م ، اما في فرنسا فقد ظهر لاول مرة سنة ١٤٨٨ م في ليون ، ولقد استخدم هذا الفن في القرن السادس عشر عرضاً .

طريقة الحفر على النحاس :

كان الرسم في عملية الحفر على الخشب ، يحفر على اللوحة الخشبية بحيث يكون ناتئاً ، ويسمى ذلك باسم (الطبع على البارز) . اما في الحفر على النحاس فعلى العكس من ذلك ، كان الرسم بعد نقله على لوحة النحاس يحفر فيها حفراً باطنياً ، فكان طبع الصور يتم بواسطة المحفورات الغائرة هذه . وعلى هذا كان الطبع يتم على دفعتين عند طبع كتاب يحوي صوراً محفورة على النحاس ، وذلك بطبع الصور اولاً ، ثم النص بعد ذلك ، او العكس .

استعمل الحفر على النحاس ، اول الامر ، من اجل طبع لوحات مستقلة لتظهر في الكتب كصورة منفصلة عن النص ؛ ثم ظهرت اللوحات المحفورة على النحاس في الكتب الكبيرة المصورة التي زاد انتاجها تدريجياً ، وشاركتها في ذلك الكتب العلمية الكبيرة المصورة التي كان للصور فيها دور خاص ، وكذلك الحال

في كتب التاريخ الطبيعي والجغرافيا وتاريخ الفن والاثار . وظهر خلال القرن السابع عشر عدد كبير من الكتب الضخمة المحتوية على لوحات ونماذج من فن العمارة والحفريات ، او الاشياء التي عثر عليها في الحفريات الاثرية ، كما نشر عدد كبير من الكتب المصورة التي تصف الرحلات ، والمؤلفات الجغرافية المزودة بالخرائط والمناظر الطبيعية ومناظر المدن والآثار . ومن اشهر امثلة هذا النوع من الكتب كتاب ثيودور دوبيري عن الهند المنشور في عدة مجلدات بين عامي ١٥٩٠ و ١٦٢٥ م وكتاب وصف المدن لجورج براون .

كان الحفر على النحاس صالحاً بصفة خاصة لطبع اللوحات الفنية المحفورة المصورة ، وذلك بفضل قدرته على ابراز الفروق بين الالوان بدقة وقدرته على تقليد الاثر الفني للمناظر الطبيعية ، ولهذا لم يكن محض صدفة ان يتفق انتشاره السريع مع العصر الذهبي لفن التصوير . وفيما يتعلق بالمساهمة الفنية الابداعية للحفار نجد انها كانت اقل بالنسبة للحفار على النحاس منها بالنسبة للحفار على الخشب . وهذا لايعني ان الحفارين على النحاس لم يكن لديهم مواهب فنية ، فضلاً عن البراعة الكبيرة ؛ فقد وجد بين الحفارين فنانون موهوبون نالوا شهرة واسعة كحفارين على النحاس من امثال السويسري ماثيو مريان وغيره .

ولقد ساد في اواسط القرن السابع عشر طراز خليط في زخرفة الكتاب وهو طراز خليط من الرمزية والواقعية امتزجا كل الامتزاج في شكل فخم انيق لابراز صور الكتاب في اطار فني جميل .

ولعل اشهر رسام تميز آنذاك بهذا النوع من الصور هو الرسام الشهير روبينزRubens ، وتعين صوره وصور تلاميذه اتجاه الذوق الفني في ذلك العصر نحو الصور الرمزية ؛ وان كانت عبقرية الرسام في فن الصور لم تقل عما كانت عليه ، بحيث نجد في هذه الصور ، على الرغم من فخامة مظهرها وبعد رموزها ، براعة فنية يندر وجودها في زخرفة الكتب في هذا العصر .

كذلك ازدهر فن الحفر على النحاس في فرنسا ابان القرن االسابع عشر ازدهاراً كبيراً ونبغ فيها رسامون فنانون رفعوا هذا الفن الى مرتبة عالية . وقد

اشتهر ليونارغولتيهGualtiex كحفار لصور الاشخاص ـ الذي صار تدريجياً من اكثر ميادين النشاط الفني انتاجاً . كذلك برز روبير نانتي وتلاميذه وقد تخصصوا في صور الاشخاص المحفورة واخرجوا عدداً كبيراً من الصور المواجهة للعنوان التي تمثل اما صورة المؤلف ، او صورة شخصية لرجل عظيم اهدى الكتاب اليه .

على ان اشهر حفاري الصور على النحاس في فرنسا في القرن السابع عشر فهو جاك كالو الذي عاش في ايطاليا ثم استدعاه ملك فرنسا لويس الثالث عشر الى بلاطه في باريس . ولقد تأثر كالو بالفن الايطالي ولذا ادخل هذا الفن الى فرنسا . ومن اهم اعماله التي رسمها وحفرها بنفسه الصور التي الحقها بكتاب**نور الدير** الذي ظهر سنة ١٦٤٦ م . ولم يكن كالو مجرد رسام بارع دقيق الملاحظة موهوب عنده الكثير من الحماس الممزوج بروح الفكاهة فقط ، وانما كان فوق ذلك صانعاً بلغ القمة حتى انه ابتكر طريقة لتغطية اللوحة النحاسية وحفرها بالحامض عدة مرات متوالية مما يعطي الصورة المحفورة مظهراً مبتكراً للظلال والابعاد .

ولقد اثرت عبقرية كالو أيما تأثير في الكثير من معاصريه او خلفائه المباشرين ، ولعل اشهر هؤلاء كان ابراهام بوس الذي حاكى كالو محاكاة تامة لما ابداه في صوره العديدة المتتابعة ورسومه للكتب ، من قدرة على محاكاة الطبيعة بصدق وعمق ، مما جعل اعمال ابراهام بوس هذا وثائق هامة عن حياة فرنسا في عصره .

ومع هذا فان اكبر اسم في فن الحفر على النحاس في فرنسا خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر هو لوكلير . كان لوكلير تلميذاً لكالو ، وكان شغوفاً بالرياضيات ، فرسم مجموعة من الاشكال التي تختلط فيها الخطوط الهندسية الجامدة بمناظر الطبيعة الجميلة . ويجب اعتباره احد الرواد الاوائل في فن الزخارف الصغيرة التي ازدهرت كل الازدهار فيما بعد .

واذا انتقلنا الآن الى بحث التجليد الفني للكتب وجدنا هناك في المانيا اتجاهاً نحو التجليدات البارزة بضغط اللوحات المعدنية ، ثم اخترعت العجلة الصغيرة فكانت الزخرفة تتم باستعمال هذه العجلة الصغيرة . ثم انتشر بعد ذلك التذهيب كما عم في الزخرفة استعمال الرسوم الهندسية العربية والدوائر المتداخلة التي

اشتهرت بها التجليدات الايطالية سابقاً . وقد صنعت تجليدات فاخرة جداً للملوك والحكام آنذاك .

كذلك انتشر فن التجليد المطبوع بالذهب والمتأثر بالمؤثرات الايطالية في فرنسا في عهد ملوكها لويس الثاني عشر وفرنسوا الاول وهنري الثاني وزوجته . وقد امتازت هذه التجليدات كلها بالاناقة وبغناها بالزخارف وبالتذهيب وبالروح الفنية المتمثلة فيها .

اما معظم التجليدات التي ظهرت في القرن السابع عشر فمن النوع العادي الذي لايعود الى ذلك النوع الفاخر الذي ساد في القرن السابق ، اذ انها كانت مجرد تجليدات للاستعمال العادي ، ولكن الملوك والاغنياء والهواة لم يقنعوا بذاك وانما اوجدوا لانفسهم تجليدات فاخرة سادت فيها طرز فنية متعددة .

واذا انتقلنا الى بحث الجوانب الاقتصادية للكتاب في القرنين السادس عشر والسابع عشر نجد ان هذين القرنين ، اللذين زاد فيهما انتاج الكتب زيادة هائلة ، كانا عصرين سيئين بالنسبة لمصير الكتب ، ولاسيما القرن السابع عشر الذي كان مليئاً بالحروب وفيه اتلفت كثير من الكتب وصودر كثير منها ونهب عدد هائل من المكتبات في ارجاء اوربا .

اسواق الكتب في القرن السادس عشر في المانيا :

اعتاد جميع تجار الكتب ـ ناشرين ووسطاء ـ ان يجتمعوا مرتين كل عام في الربيع والخريف بسوق مدينة فرانكفورت ، حيث يزاولون تجارة الكتب عن طريق المبادلة بها ورقة بورقة بحيث كانت المحلات التجارية تفيض بالحياة والعمل ، وترتب على ذلك رحيل اصحاب المكتبات كلهم من ايطاليا وفرنسا والاراضي الواطئة الى هذه السوق بفضل موقع المدينة الذي جعل منها احد المراكز الهامة في اوربا في ذلك العصر . اما حي اصحاب دور الكتب في هذه المدينة فكان يقع في الجانب الجنوبي منها حيث صار من المعتاد رؤية البراميل الضخمة المكدسة التي كانت تستخدم عادة في ذلك العصر في شحن الكتب . ولقد بلغ من اهمية سوق فرانكفورت ومعرضها للكتب ان سمح لها ان تراقب كتبها بنفسها على الرغم من

ان بقية المدن الالمانية كانت تحت سلطة الرقابة الامبراطورية .

ثم فاق سوق لاينبريغ بعد ذلك في الاهمية سوق فرانكفورت ، بحيث ظلت لاينبريغ حتى القرن العشرين مركزاً مهماً من مراكز الكتب الالمانية . وقد بدىء في سنة ١٥٦٤ م في طبع قوائم الكتب التي كانت تباع في السوق ، ومن قوائم السوق هذه خرجت البيبلوغرافيا الالمانية التي تصدر كل سنة مرتين للكتب الالمانية .

ولقد وجد اصحاب المطابع الالمانية انفسهم ـ وهم وسط معارك الاصلاح الديني ـ منساقين هم ايضاً للمشاركة في هذا النضال بين انصار الاراء القديمة والاراء الجديدة ، ووجدوا انفسهم مضطرين للانضمام الى احد المعسكرين . اما اغلبية المطابع الالمانية الكبيرة فكانت في ايدي البروتستانت ، بينما بقيت مطابع مدن كولونيا ومنيز وحدها تقوم بدور ما في خدمة الكاثوليك بحيث لم يظهر نشاط الطابعين والناشرين في المانيا الجنوبية الا عند قيام حركة الاصلاح الكاثوليكي ، بل وبعدها . ولقد اثار الاصلاح البروتستانتي نشاطاً ادبياً واسعاً ودعا الى نشر الثقافة والكلمة المطبوعة بين اكبر عدد ممكن من البشر ، الا انه كان نذيراً بالقضاء على عدد كبير من الكتب الموجودة ، ذلك انه اضطر ، في نضاله ضد الكنيسة الكاثوليكية ، الى مهاجمة المطبوعات البابوية . ومن المؤكد ان كثيراً من المخطوطات القديمة والمطبوعات الاولى قد نالها العبث في تلك الفترة المضطربة .

كذلك ساهمت الحروب التي نشبت في المانيا في القرن السادس عشر ، وخاصة حرب الفلاحين التي نشبت في المانيا ابتداءً من سنة ١٥٢٥ م في اندثار مكتبات الاديرة حيث بلغ عدد الاديرة التي نهبت في احدى مقاطعات المانيا (ثورنجيا) سبعين ديراً دمرت مكتباتها .

ويوجد تقارير تثبت المصير المؤلم الذي لقيته مكتبات الاديرة التي كانت في انحاء البلاد التي نشبت فيها الاضطرابات ، حيث احرقت الكتب او مزقت او القيت في الماء او بيعت في الوزن . وحدث ذلك ايضاً فيما بعد في كثير من مكتبات الاديرة في فرنسا في عصر الحروب الدينية كما حدث في مكتبات اديرة فلوري وكلوني .

ومع ذلك يجب الا نعد رجال الاصلاح الديني مسؤولين كلياً عما حدث للكتب والمخطوطات ، فقد كان هناك عوامل اخرى ساهمت في هذا التدمير الذي حدث للكتب ، كما وان عنف الصراع بين الطرفين ادى الى ما ادى ، علماً ان الكنيسة اللوثرية لم تغفل عن قيمة مخطوطات العصر الوسيط عقب فورة نضالها الاول ، من ذلك قرارها الذي اصدرته سنة ١٥٧٧ م وينص على ان (الكتب الكنيسة القديمة مثل كتب القداس والمزامير وكتب التوراة المدونة على الورق او الرق لاينبغي التخلص منها او استعمالها للتجليد) .

واخيراً يجب ان نذكر ان لوثر في رسالته التي وجهها الى مستشاري جميع المدن الالمانية الكبرى سنة ١٥٢٤ م يعلن بحزم (عدم ادخار ادنى جهد او مال في سبيل تأسيس محال لبيع الكتب ومكتبات عامة جيدة ، وبخاصة في المدن الكبرى) .

ولقد ازدهرت صناعة وتجارة الكتب في هولندا في القرن السادس عشر ، وقد رأينا سابقاً كيف ازدهرت مؤسسة الزفير في هولندا وكيف اتسع نشاطها في ميدان تجارة الكتب اتساعاً فاق نشاط كل من عاصرها . وقد نجح اعضاء هذه الاسرة بعقد صفقات ضخمة مع انكلترا ، ذلك ان كل تجارة الكتب التي قامت بين انكلترا والقارة الاوربية كانت تمر حينئذٍ بهولندا ، وكان لألزفير في هذا المضمار المكانة الاولى .

ولقد آلت حروف مؤسسة الزفير الطباعية في القرن الثامن عشر الى اسرة اخرى شهيرة من الطابعين الهولنديين وهي اسرة أنشيديهEnchede's في مدينة هارلم . ويحتمل ان هذه المؤسسة اوجدها احد افراد الاسرة سنة ١٧٠٣ م ، ولازالت هذه المؤسسة موجودة حتى اليوم وهي تملك ثروة من الحروف القديمة والجديدة تفوق ماعداها من دور المطابع الاوربية .

بيع الكتب بالمزاد في اوربا في القرن السابع عشر :

احتلت هولندا في القرن السابع عشر مكانة كبيرة في تجارة الكتب الاوربية ، حتى ان فرنسا على الرغم من ازدهارها الادبي اللامع ، لم تقم بالدور الاول في هذا المجال ، مما جعل الادب الفرنسي يدين بمعظم انتشاره الى التقليدات الهولندية . ولكن برع الفرنسيون في ميدان هواية جمع الكتب ؛ اذ ان فرنسا زخرت في هذا القرن بالملوك والنبلاء ورجال الدولة والاغنياء الذين كان همهم جمع الكتب الفخمة النادرة لمجرد الجمع حتى يقال : عند احدهم مكتبة رائعة ، مما اثار السخرية من امثال هؤلاء . وكان هم هؤلاء الاول فخامة الشكل ، وهي ميزة فرنسا التي فاقت بها دول اوربا منذ البداية .

كذلك ظهر في السنوات الاولى من القرن السابع عشر شكل جديد من اشكال تجارة الكتب ، حينما بدأت تدخل ميدان المزادات العامة لتباع فيها لمن يدفع اغلى ثمن . وهنا ايضاً كانت هولندا هي الرائدة في هذا الميدان ، وقد تمت في ليدن المبيعات الاولى للكتب بالمزاد .

وما لبث التجار ان ادركوا انهم اهتدوا الى طريقة لعقد صفقات تضمن مصلحة الشاري والبائع على حد سواء ، ولكن مالبثت ان ارتفعت الشكاوى من ان تجار الكتب القائمين على هذا النوع من المبيعات قد بدأوا يستغلون الفرص للتخلص من بعض الكتب التافهة ، وذلك عن طريق تصريفها خلسة ضمن الكتب المباعة بالمزاد . وكما يحدث اليوم كان يوزع على المتزايدين فهرس مطبوع للكتب المعروضة للبيع . وكان هذا الفهرس يقسم الكتب حسب احجامها كحجم النصف والربع والثمن .

ومالبثت عادة بيع الكتب بالمزاد العلني في هولندا ان لفتت انظار البلدان الاجنبية فاتخذت بذلك تدريجياً اهمية دولية . وقد ادخل هذه العادة الى انكلترا احد رجال الدين الانكليز الذي اقام في هولندا فترة من الوقت ، وكان ذلك سنة ١٦٧٦ م .

ولم يخلُ جو مزاودات الكتب من الجو المثير الذي يصاحب عادة كل المزاودات الاخرى . ومع ذلك فلم يزدهر انتشار مزاودات الكتب الا في القرن الثامن عشر .

وقد انتشرت هذا الطريقة أيضاً في المانيا وفرنسا . واذا اردنا ان نبحث العوامل التي اثرت على صناعة الكتاب وتجارته في المانيا خلال القرن السابع عشر لاحظنا ان حرب الثلاثين عاماً التي نشبت في المانيا بين سنتي ١٦١٨ و١٦٤٨ م كانت ذات اثر مدمر على اقتصاد المانيا ككل . وقد نال الكتاب حصته كاملة من دمار هذه الحرب . ذلك ان حرب الثلاثين عاماً استنفذت قوى المانيا سياسياً واقتصادياً ، كما تسببت في حدوث فقر شامل ، تلاه صعف في الثقافة العامة لم يزل الا تدريجياً . وقد حدث مثل ذلك في فرنسا قبل ذلك ببضعة عقود من السنين في عهد الحروب الدينية ١٥٦٢ ـ ١٥٩٨ م . كما وان الصراع الدامي والانقلاب الشامل في الحياة خلال تلك الفترة كان وبالاً على ثقافة الدراسات الادبية وهواية الكتب .

أزمة الكتاب الالماني :

لمعرفة تأثير تلك الحرب المدمرة على المانيا نذكر انه في سنة ١٦٣٥ م لم يرسل الناشرون الالمان الى اسواق فرانكفورت ولاينبرغ سوى ٢٨٦ كتاباً جديداً ، في مقابل ١٣٥٨ كتاباً عام ١٦١٣ م . ولم يعد الانتاج الى مستواه القديم الا في اواسط القرن الثامن عشر ، وهي نسبة تتفق تماماً مع التغييرات التي طرأت على عدد السكان ومستواهم الثقافي . وكان هذا التدهور هو الذي هيأ للهولنديين فرصة رفع مستواهم وبيع انتاجهم الى حد كبير . وقد عانت تجارة الكتب الكثير من التقليد الذي جعل حقوق الناشرين حبراً على ورق ، مما اضطر الكثيرين الى محاولة درء هذا الخطر بالحصول على امتيازات كان من مساوئها عدم امكان تنفيذها بدقة وبخاصة في بلد لم يكن موحداً كالمانيا .

حرفة الكتاب وتجارته في المانيا وفرنسا في القرن السابع عشر :

آ - المراكز الكبرى لمتاجر الكتب الألمانية :

شهدت متاجر الكتب الالمانية خلال القرن السابع عشر انتقال مركز الثقل في تجارتها من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي . وكانت سوق الكتب في لاينبرغ قد ازدهرت في نهاية القرن السادس عشر ازدهاراً كبيراً حيث بدأت فهارس هذه السوق في الظهور من سنة ١٥٩٤ م . على ان حرب الثلاثين عاماً القت بهذه السوق مرة اخرى في دائرة الاهمال بحيث احتفظ سوق فرانكفورت القديم بسيادته حتى حوالي عام ١٦٨٠ م عندما استعادت لاينبرغ المكانة الاولى وبقيت بيدها حتى نشوب الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ م . كذلك صارت مدن اخرى مثل ينيا ودرسدن مراكز هامة لتجارة الكتب في نفس الوقت ؛ وقد اضمحلت نشاطات مدن اخرى كان لها دور لامع في تجارة الكتب في الماضي مثل ستراسبورغ وكولونيا . وكان هذا التغيير مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بتقهقر المطبوعات اللاتينية وازدهار المطبوعات الالمانية .

ب - الطابعون والناشرون :

كان تجار الكتب ، اما ناشرين اووسطاء ، وان كانوا غالباً مايزاولون العملين معاً ، على ان احدى الصفتين ظلت غالبة على الاخرى على الدوام .

ولم يعد الامر متعلقاً بالجمع بين مهنتي الطابع وتاجر الكتب ، في يد واحدة ، اذ بدأ انفصال فرعي الصناعة احدهما عن الآخر . ومع هذا فقد ظلت الى ذلك الوقت فئة من الطابعين كانوا في الوقت ذاته من الناشرين . وهؤلاء هم الذين كانوا طابعي الحكومة والمجالس والدواوين والجامعات . وكان لهم ، بهذه الصفة ، امتياز طبع ونشر الوثائق الرسمية للسلطات والمؤسسات ، كما كان لهم ايضاً حق احتكار طبع الكتب المدرسية وكتب تعليم اصول الدين والتقاويم والجرائد ، كما التزموا بتقديم النسخ الاجبارية للدولة عن كل طبعة من طبعاتهم ، فضلاً عن التزامهم حدود اسعار معينة ، مع التقيد باستخدم مواد جيدة في صناعتهم . وقد تمتعوا في مقابل ذلك بامتيازات عدة : منها الاعفاء من الضرائب

والفوائد الجمركية ومجانية السكن . ولذا لانعجب اذ رأينا هؤلاء المحظوظين موضع حسد غيرهم من الطابعين والناشرين .

ج ـ المجلدون تجار الكتب : تجارة الكتب الصغرى .

يلاحظ من جانب آخر حدوث مخالفات أخرى في سائر ميادين تجارة الكتب . من ذلك مافعله المجلدون في المدن الصغرى ـ حيث كانت صناعتهم لاتدر عليهم ارباحاً كافية ـ من توسيع ميدان نشاطهم غالباً للاشتغال بالتجارة بالورق والكتب الشعبية الرخيصة والكتب الصغيرة ، كالكتب الوعظية والشعبية وتفسير الاحلام والأحاجي والتقاويم وما الى ذلك . وكان هناك ايضاً مؤسسات هامة للتجليد مضطرة للانسياق في ميدان تجارة الكتب ، بسبب ان بعض الناشرين كانوا يجلدون كتبهم الجديدة ، ويدفعون ثمن واجور هذه التجليدات كتباً اخرى جديدة يعيد المجلدون بيعها لحسابهم الخاص . ولقد اثارت هذه الاوضاع تعارضاً بين مصالح المجلدين ومصالح الوسطاء ؛ وبعد جدل طويل ومثير توصل الطرفان الى اتفاق لم يعد للمجلدين حق الاتجار الا في نطاق الكتب الصغرى .

د ـ الرقابة :

اذا كانت سوق الكتب قد عانت الكثير من الخلافات التي قامت بين التجار والصناع ، فقد قدر لها ان تواجه صعوبات من نوع آخر ؛ فمنذ عهد الطباعة الاول كان لابد من اخذ الرقابة بعين الاعتبار .
والرقابة نوعان : **دينية وسياسية** .

فقد خشيت الكنيسة من تسرب الافكار المناهضة للعقائد التي تدين بها الكنيسة الرسمية عبر الكتب التي تنتجها المطابع ، فحاولت مراقبة مايطبع . فقد اصدر رئيس اساقفة منيز عام ١٤٨٩ م مرسوماً في هذا الموضوع ؛ ثم تلته بعد ذلك عدة مراسيم بابوية تعلن صراحة وجوب مراقبة المطابع لحماية الكنيسة من خطر نشر المؤلفات الالحادية . وفي عام ١٥٦٣ م بدأت الكنيسة الكاثوليكية بنشر قوائمها باسماء الكتب المحرمة والتي يجب على المؤمنين بالمذهب الكاثوليكي الا

يقرأوها لانها محرمة . اما في جامعة باريس فكانت كلية اللاهوت فيها مختصة منذ عام ١٥٢٦ م برقابة جميع المؤلفات الدينية . وقد استعملت هذا الامتياز خاصة سنة ١٥٣٧ م ابان الحروب الدينية بغية تنفيذ المحاكمات الصارمة ضد الطابعين العاملين في خدمة انصار اللوثرية .

كذلك شاهد القرن السابع عشر بداية رقابة السلطة السياسية على المطبوعات والمطابع وان كان دورها بدأ ضئيلاً في هذا القرن ، ثم زاد شيئاً فشيئاً وتطور حتى اصبح دوراً هاماً كل الاهمية في القرن الثامن عشر . ولذا يمكن القول بحق ان القرن الساتبع عشر هو قرن الرقابة الدينية .

كان مقصد الرقابة اول الامر الدفاع عن الدين الرسمي والاخلاق ، وان كان من مبادئها ـ في نفس الوقت ـ تمثيل مصالح الدولة ايضاً ، ولذا كان لابد للحكام من مزاولة تلك السلطة داخل حدود بلادهم ؛ ومن اجل ذلك كانت الرقابة تزاول في مختلف المقاطعات الالمانية بطرق متباينة للغاية وبصرامة متفاوتة في حدتها بين ولاية واخرى .

على ان لجنة الكتب الامبراطورية ـ وهي اللجنة التي اسسها امبراطور المانيا باعتباره رأس الحكام الالمان لمزاولة الرقابة ـ كانت مهمتها ، في نفس الوقت ، تقوم على منع الاعتداء على الامتيازات الممنوحة لتجار الكتب . ولكن الوضع في فرنسا اقتضى ان يصدر مرسوم سنة ١٥٦٣ م يحرم (على اي شخص اياً كانت حالته وظروفه ان ينشر او يطبع اي كتاب او رسائل او غيرها ، ويعاقب كل مخالف لهذا المرسوم بالشنق والخنق) . على ان هذا القانون لم ينفذ بدقة في عهد هنري الرابع الذي امتاز عهده بالتسامح الكبير ؛ الا ان الرقابة مالبثت ان عادت الى شدتها وصرامتها في عهد لويس الثالث عشر ووزيره ريشيليو . وتعززت سلطة الرقابة في عهد الوزير مازاران اثناء طفولة لويس الرابع عشر . ولقد نشبت في فرنسا ثورة الفروند ضد مازاران وتحكمه في امور الدولة ، وكان من الخطر الماحق اثناء تلك الحرب ان يجرؤ المرء على طبع وبيع المازارانيات ـ وهي كتب تتحدث عن فضائح مازاران ومساوئه ـ والتي نشرت مع ذلك بالالاف . وعلى الرغم من ضخامة الجهاز القانوني المحيط بالرقابة ، الا انه لم يكن من النادر ان يفلت كتاب

من عيون الشبكة المراقبة . ونعلم ايضاً من كثير من الامثلة ان المنع كان غالباً بمثابة اعلان ولم يؤد الا الى زيادة بيع الكتب سراً .

هـ ـ التزوير وحق الأمتياز :

يلاحظ ان التزوير قد صار حوالي ذلك الوقت وباءً حقيقياً اشد من الرقابة بكثير بحيث قامت محاولة لحماية كل كتاب باقامة حق امتياز له . واقدم حق امتياز يرجع في المانيا الى اوائل القرن السادس عشر .

وقد حرم بمقتضاه اعادة طبع الكتاب . اما في حالة منح صاحب الكتاب امتيازاً امبراطورياً فمعنى ذلك ان قرار الحظر يشمل كل المانيا . وكان هذا الحق يسري لمدة سنة واحدة او اكثر . ولهذا الغرض كان الامر لصاحب الامتياز بالحماية يطبع في اول الكتاب . اما العقوبة ، عقوبة مخالفة هذا القرار ، فكانت توجب دفع غرامة تتفاوت قلة وكثرة . ومع كل هذا فقد ظل التزوير وانتشر ، وكثيراً ماشوه المزورون الطبعة الاصلية للكتاب ، وكانوا احياناً يضيفون اليه ملاحق وذيولاً ، لم يكن لها ادنى صلة بالطبعة الاصلية للكتاب .

ولقد سرى هذا الداء الى فرنسا ووجد فيها مزورون كثيرون حتى صدر مرسوم ملكي سنة ١٦٨٦ م يتعرض لمسألة التزوير ويحاول منعها وعلاجها . صدر هذا المرسوم اساساً لاعادة تنظيم تجارة الكتب في فرنسا ؛ مما وضع حداً لحالة الفوضى التي كانت سائدة فيها . وقد نص المرسوم ـ فيما يختص بباريس ـ على تحديد عدد التجار الطابعين بستة وثلاثين شخصاً ، وان يكونو يعرفون اليونانية واللاتينية ، وان يستقروا في حي الجامعة . ولم يكن عدد الرقباء الملكيين المكلفين بمراقبتهم يقل عن تسعة وسبعين رقيباً . كما كان للتجار والطابعين غرفة نقابية يرأسها نقيب واربعة مساعدين . هذا وقد حظيت المطابع والمكتبات التجارية بحرية كبيرة نسبياً طيلة القرن السابع عشر ، كما حظيت بظروف ملائمة لنموها في الغالب . وكانت المحافظة على حق الامتياز في فرنسا اسهل منها في المانيا المفككة . كما زاد في سهولة الاشراف عليها في فرنسا طبع اغلب الكتب في باريس وعدد قليل من المدن الاخرى . ولكن لم يستطع التجار والطابعون الفرنسيون الدفاع عن حقوقهم ضد تزويرات الهولنديين التي كانت ذائعة غاية الذيوع .

و ـ اسعار الكتب :

لم تكن اسعار الكتب قد تحددت بعد في القرن السابع عشر . وعلى الرغم من ان الناشر حدد ثمن بيع الكتاب في الاسواق ، الا ان الاضافات التي كان يضيفها التجار المحليون كانت متفاوتة كل التفاوت ؛ ولم يبدأ نشر فهارس التجار مبيناً فيها اسعار الكتب ، في المانيا ، الا بعد السنوات الاولى من القرن الثامن عشر .

وبموازنة تلك الاسعار بالاسعار الحالية ، يلاحظ انها كانت مرتفعة في ذلك الوقت . من امثلة ذلك في ميدان الادب الشعبي ، ان عاملاً من مدينة لاينبرغ دفع مبلغ سبعة غروسGros (وهي اصل كلمة غرش المستعملة باللغة العربية) من اجل كتاب الاناشيد سنة ١٧٠٠ م وهو ما يعادل اجره عن يوم كامل . على ان الانتاج المحلي ـ اذا ما قورن بالاسعار المتداولة للكتب الاجنبية في المانيا آنذاك ـ كان سعره اعلى بقليل ويتراوح بين بنسين وخمسة بنسات المانية للورقة الواحدة . على حين نجد الطبعات الالزيفيرية المنشورة سنة ١٦٩٢ م يصل ثمن الورقة الواحدة الى اثنى عشر بنساً ، وهو ثمن يتفق مع اخراج اعلى بكثير . ذلك لان انتاج الكتاب في القرن السابع عشر لم يصل ، بشكل عام ، الى مستوى رفيع .

ز ـ العادات النقابية والاستبداد النقابي في المانيا :

تحول صهر الحروف تدريجياً الى مهنة خاصة ، وذلك بعد ما كان يقوم به الطابع نفسه اول الامر ، على حين احتمت مهنة الطابعين وراء حواجز العادات النقابية الصارمة .

وكانت مدة المران للصانع تتراوح بين اربعة اعوام وثمانية ، وحتى بعد نتهاء التمرين كان على الصبي ان يمضي بعض الوقت في مرحلة انتقالية قبل ان يصبح زميلاً في نقابة الطابعين . ولبلوغ ذلك كان عليه ان يرشحه احد الاعضاء القدامى وان يقبل ترشيحه ، بمعنى انه كان عليه الخضوع لسلسلة من المراسم تتفاوت في غرابتها وغموضها ، وكانت عبارة عن سلسلة من الاعمال الرمزية التي

كانت مطبقة في جامعات العصور الوسطى عندما كانت تستقبل تلاميذها الجدد الصغار ، فضلاً عن ان المرشح كان عليه ان يدفع ضريبة معينة وان يقيم وليمة لزملائه .

وكان الزميل ، بعد ان يصبح عضواً في النقابة ، يمضي بضع سنوات ، غالباً ، في التجوال في المانيا ، حيث كان يقابله زملاؤه بالترحاب حيثما حل او نزل ، اذا كان ملماً بعرف النقابة وعاداتها . وكان عليه ـ مقابل ذلك ـ الا يقبل اي عمل اطلاقاً في اي مطبعة من المطابع السرية العديدة التي كانت تعيش ـ دون ترخيص من الرقابة ـ على طبع كتب جدلية مجهولة المؤلف اومنشورات تشهير . ومن المؤكد ان النظام الصارم الذي خضعت له النقابات فيما بعد ، كان في اول امره نظاماً دفاعياً عن الطابعين ضد منافسة المطابع السرية . غير ان تلك الانظمة النقابية مالبثت ان فسدت حتى اصبحت استبداداً حقيقياً . ولقد جرى نفس الشيء في الدول الاسكندنافيةحيث كانت المطابع غالباً في ايدي المان وواقعة تحت النفوذ الالماني كلياً . اما الطابعون في هولندا وفرنسا وانكلترا فقد رفضوا هذا الاستبداد النقابي . ولم تختف تلك العادات النقابية اختفاء تاماً الا مع بداية القرن التاسع عشر .

نشوء البيبليوغرافيات :

يعتبر نشوء البيبليوغرافيات بانواعها المختلفة نتيجة من نتائج اختراع الطباعة وبروز تجارة الكتب . فقد ازدهرت تجارة الكتب في القرن السادس عشر في اوربا وبشكل خاص في المانيا ، حيث وجد فيها مركزان لتجارة الكتب ، وذلك على مستوى القارة الاوربية : هما سوق فرانكفزرت وسوق لاينبرغ . فقد وسع بائعوا الكتب المعلومات عن الكتب واعتاد المشرفون على سوق فرانكفورت ان يصدروافهرس سوق كتب فرانكفورت الذي يمثل حصراً شبه كامل وشبه تام للاداب الاوربية . ولقد قام الطبيب الالماني في اواسط القرن السادس عشر بعمل ماسمي باسم البيبليوغرافيا العالميةBibliotheca Universalis . كما وان البيبليوغرافيا القومية ظهرت سنة ١٥٩٥ م . وقد تطورت تحت تأثير عدد من

العوامل حتى اصبحت ذات جوانب متعددة ، وذلك في اوائل القرن الثامن عشر .

ولقد تأثرت المكتبات بعاملين ونشاطين اساسيين : فقد اصبح بناء مجموعات الكتب اسهل ذلك لان المعلومات عن الكتب الجديدة اصبحت جاهزة ، وان لم تكن دقيقة كل الدقة . وقد قدم فهرس سوق فرانكفورت ، الذي مر ذكره آنفاً ، وبعض الفهارس التي دخلت هذا المجال بعد فترة ثبتاً باسماء الاعمال اللاتينية والالمانية الموجودة والمتداولة بحرية في السوق البروتستانتية . كذلك كان يرد في هذه الفهارس ، عرضاً ، بعض العناوين الفرنسية والايطالية والاسبانية ، ثم ظهرت بعد فترة العناوين الانكليزية .

ولقد كان التطبيق العملي الغالب في انكلترا هو ان تسجل الكتب بصرف النظر عما اذا كانت موجودة في محال بيع الكتب . وقد ساعدت هذه الظاهرة ، التي ظهرت في اماكن اخرى ، على التفريق بين البيبليوغرافيا القومية والبيبليوغرافيا التجارية . كذلك تميزت البيبليوغرافيات الانكليزية بالتركيز التام والانتباه الى المنشورات الانكليزية . ولم تظهر في انكلترا بيبليوغرافيا جارية حتى سنة ١٦١٨ م وذلك عندما اخذ جون بيلBill ، الذي خدم بودلي وزار معرض فرانكفورت بانتظام من سنة ١٦٠٥ الى سنة ١٦٢٢ م ، على عاتقه اصدار طبعة لندنية لفهارس المعرض . ولقد تجاهل في منشوره هذا الاعمال الالمانية ، ولكنه اثبت العناوين اللاتينية . ثم اصدر بيل نفسه سنة ١٦٢٢ م لائحة بيبليوغرافية اخرى لها علاقة بالمعرض ، ولكن يد الرقابة الصارمة التي مارستها الكنيسة الانكليزية على الكتب والمطبوعات في عهد تشارلس الاول ضررت وانقصت انقاصاً كبيراً تجارة الكتب في انكلترا اكثر مما ضررتها في اوربا حروب الثلاثين عاماً . وصدر سنة ١٦٣١ م فهرس آخر حوى بعض العناوين ونشر غفلاً من اسم المؤلف ، ولم يصدر غيره في انكلترا حتى نهاية حكم كروموبل .

ولقد حوت البيبليوغرافيا التجارية اللندنية التي اصدرها وليم سنة ١٦٥٨ م اكثر من ٣٠٠٠ عنوان هي اكثر الكتب المباعة في انكلترا ، واغلبها حديث ومهم وباللغة الانكليزية ، وكلها في مخازنه ؛ ثم اصدر ذيلاً لها يحوي المنشورات بين

سنتي ١٦٥٨ و ١٦٥٩ م ويبلغ عددها حوالي المائة ، وهو الاول من نوعه في انكلترا . ثم اصدر ذيلاً آخر سنة ١٦٦٠ م حوى مانشر خلال سنة واحدة ومقداره ٤٠٠ عنوان ، وهو آخر ماصدره .

واصدر طابع من امستردام بين سنتي ١٦٤٠ و ١٦٥٢ م اول ببيليوغرافيا جارية وطنية دورياً ، احياناً بشكل سنوي واحياناً بشكل نصف سنوي . وقد حوت ماتنتجه البلاد الواطئة من كتب ، وترتيب اللغات بحسب اللغات ، واللغة اللاتينية هي الغالبة .

وقام جاكوب في فرنسا فاصدر لائحة ببيليوغرافية باسماء الكتب التي كانت متداولة في باريس بين سنتي ١٦٤٣ و ١٦٤٤ م . كذلك اوجد نودي Naude' سجلاً للاعمال التي تنشر في فرنسا واصدره في نشرة سنة ١٦٥٤ م حوت اكثر من ٣٥٠٠ عمل ، من بينها ٢٣٥١ عملاً بالفرنسية ، وقد نشر من هذا العدد في باريس ٣١٠٠ عمل . ولكن حدوث اضطرابات عنيفة في فرنسا وغيرها عاقت متابعة هذا العمل الذي بدأه جاكوب ونودي وغيرهما .

ولقد توقف اصدار النشرات الببيليوغرافية القومية خلال حرب الثلاثين عاماً ١٦١٨ ـ ١٦٤٨ م . ولكن معرضي فرانكفورت ولاينبرغ نشطا بعد الحرب بشكل خاص . ولكن ظهور دور النشر الكبيرة الذي تم بعد فترة انقص كثيراً من اهمية هذين السوقين .

بروز النشرات الدورية :

ان اختراع الطباعة ، قد ادى الى تطورات اخرى في عالم الكتب والنشر ، بجانب نمو المكتبات . فقد ظهرت اشكال جديدة من المواد القرائية مثل الدوريات والجرائد والموسوعات .

فقد بدأت الدوريات بكراسة بدأت تصدر في القرن السادس عشر . وقد تطورت حتى اصبحت سلسلة غير منتظمة من الكراسات تربطها علاقة مابعضها ، ثم تطورت حتى اصبحت سجلاً سنوياً او كل سنتين مرة يحمل الانباء واخيراً وصلت اواخر القرن السابع عشر الى ان اتخذت شكل دورية منتظمة .

فقد تطورت الجريدة من نشرة الاخبار التي صدرت في القرن السادس عشر واصبحت عامة في اواخر القرن السابع عشر . فمنذ سنة ١٥٤٨ م بدأ طابعو فرانكفورت في اصدار نشرة اخبار لفترة قصيرة . كذلك ظهرت عدة منشورات من هذا النوع قبل سنة ١٦٠٠ م . ولكن اول جريدة صدرت بشكل منتظم هيAvisa Relation Oder Zeitung التي صدرت في ستراسبورغ سنة ١٦٠٩ م . كذلك صدرت اول جريدة في انكلترا على يد جون ارشرArcher سنة ١٦٢١ م . ولقد الغى الملك شارل سنة ١٦٢٥ م جميع نشرات الانباء واصبحت نادرة كل الندرة طوال القرن السابع عشر . ولقد صدرت في اواخر القرن السابع عشر الدوريات ، وكانت تتألف من اربع الى ثمان صفحات وتحوي آخر الانباء السياسية والعسكرية ، مع بعض الادب المعاصر واراء المحرر في عدد من الموضوعات المختلفة . وهناك ثلاث دوريات هي من اقدم الدوريات التي صدرت الاولى**دورية العلماء**Journal des Scavans التي بدأت تصدر في فرنسا سنة ١٦٦٥ م ، والثانية**وقائع جلسات الجمعية الفلسفية الملكية**في انكلترا في نفس العام ، والثالثة دورية صدرت في المانيا سنة ١٦٨٢ م باللاتينية بعنوانActa Eruditorium . ثم تتابع صدور الدوريات في اواخر القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر ، ولقد كان اغلبها ذا حياة قصيرة مالم تتمتع بدعم سياسي او حكومي . وقد اصبحت الدوريات والصحف والمجلات والحوليات منتشرة في انكلترا بين الطبقات العليا في حدود سنة ١٧٥٠ م . وقد وجد مجلات عامة ومجلات اخبار مثل**مجلة جنتلمان** ، ودوريات ادبية مثل مجلة ريشارد ستيل تاتلرTatler ، ومجلة جوزيف اديسون المسماةSpectator ، وكتب حولية مهمة مثل السجل السنويThe Annual Register .

وهكذا توسع اثر الكلمة المطبوعة اكثر من ذي قبل ، واصبح للطابع مصدر جديد من مصادر الدخل للاغتناء .

الفصل الثالث عشر

الطباعة في العالم الجديد

يعتبر اكتشاف القارة الامريكية سنة ١٤٩٢ م على يد كريستوف كولومبوس من الحوادث الكبرى في التاريخ العالمي وايذاناً بانتهاء العصور الوسطى وابتداء العصور الحديثة . ولايمكن قط المبالغة في اهمية هذا الاكتشاف الذي كان احدى ثمار عصر النهضة المبكر وعهد الاستكشافات الجغرافية الكبرى التي بدأت في اواخر القرن الخامس عشر .

لقد اكتشفت امريكا بعد اختراع الطباعة بنصف قرن او أقل . ولذا ليس مفاجأة ان نعلم ان انتشار الطباعة ودخولها الى امريكا تبع انتشار الحضارة الاوربية فيها . واذا كانت الطباعة في اوربا ظهرت في مجتمع متحضر بدأ يستيقظ من سبات طويل ، فان الطباعة في القارة الامريكية كانت مخاطرة تطوعية في القفر . لقد كانت الكلمة المطبوعة هدية اوربا لامريكا .

كان الاسبانيون اول من دبروا لانفسهم مستقرات دائمة في العالم الجديد ، وكان مركزهم الرئيسي فيما عرف الآن باسم المكسيك ، وقد اسموها اسبانيا الجديدة . وكانت دوافعهم اقتصادية وسياسية ودينية ، وكان من جملة اهدافهم ان ينصروا سكان البلاد المستعمرة ، ولما كانت الكلمة المطبوعة عنصراً فعالاً في هذا المجال فقد كان من الطبيعي ان يزودوا بعثاتهم التبشيرية الاولى بآلة طباعة .

لم تكن الطباعة قد انتشرت في كل ارجاء اوربا ، اذ كان لايزال عدد من البلدان الاوربية بدون طباعة ، عندما ارسل سنة ١٥٣٩ م طابع اسباني متميز من اشبيلية اسمه خوان كرومبيرجرJuan Kromberger حملة طباعية الى مدينة مكسيكو للقيام باعمال الطباعة فيها . وقد شجع هذا العمل اسقف مكسيكو الاسباني زوماراجاZuma'rraga ونائب الملك في المنطقة . ذلك ان هذا الاسقف

عهد الى كرومبيرجر ان يقوم بطبع عدد من الكتب الدينية بلغة القبائل المحلية في مكسيكو وتسمى Nahuatl . وقد بدأ الطابع عمله في اشبيلية ، ولكنه لاحظ ان العمل يمكن انجازه بشكل اجود واسرع لوتم في البلد الذي سيوزع فيه . ولذلك ارسل هذه الحملة بقيادة طابع معروف وعدد من المساعدين ؛ هذا الطابع هو خوان بابلو Juan Pablos ، وهو من اصل ايطالي ولكنه يعمل في اسبانيا ، وقد عقد بينه وبين كرومبيرجر اتفاق جعل لكرومبيرجر اليد العليا على بابلو ، وان على بابلو ان يؤسس وان يدير مطبعة في مدينة مكسيكو باسم ولحساب كرومبيرجر ، وان يطبع كل يوم ثلاث الاف صفحة ، وهو مسؤول عن جميع الاخطاء والتلف الذي يمكن ان يحصل في المطبعة ، وليس له حق في اي دخل من المطبعة ، وعليه ان يعمل عشر سنوات تحت كنف واسم كرومبيرجر . ولكن بابلو لم يطبع سوى ثمانية عناوين ، وكانت الطباعة سيئة هزيلة ، وبقع الحبر منتشرة على الصفحات ؛ واسوأ مافيها قبعة الكاردينال التي هي علامة الطابع .

ولقد صدر عن مطبعة مكسيكو هذه عدد من الاعمال في اوائل الاربعينات من القرن السادس عشر ، واغلب مطبوعاتها دينية ، ولكنه تم طبع كتب مدرسية اولية للاطفال وبعض المنشورات الحكومية الرسمية . هذا وان اول كتاب طبعه بابلو هو كتاب عنوانه Breve Y mas Compendiosa Doctrina Christiana وتاريخه سنة ١٥٣٩ م مكسيكو . ومهما يكن من شيء فانه لم يبق الان سوى اعداد قليلة جداً مما اصدرته مطبعة مدينة مكسيكو .

ولقد تأسس اول مصنع للورق في العالم الجديد سنة ١٥٧٥ م وبدأ انتاجه ، وقد اسس في ضواحي مدينة مكسيكو . ولم ينتشر فن الطباعة في المكسيك انتشاراً كبيراً ولم يوجد بها الا عدد ضئيل من المطابع خارج مدينة مكسيكو ، وظل الوضع قريباً من هذا حتى سنة ١٨٠٠ م .

هذا وان ثاني بلد في العالم الجديد اسست فيه مطبعة هي البيرو الحالية . فقد حضر الى ليما عاصمة البيرو المساة باسم (مدينة الملوك) انطونيو ريكاردو Antonio Ricardo سنة ١٥٨٤ م ، وهو اصلاً من ايطاليا وعمل طابعاً في المكسيك ، واسس مطبعة وبدأ عمله الطباعي هناك . واول ما طبعه هو

مرسوم صادر عن البابا غريغوري الثالث عشر من اربع صفحات ، ولاتزال نسخة واحدة منه محفوظة في مكتبة جان كارتر براون الموجودة في مدينة بروفيدانس من ولاية رودآيلاند الامريكية . ولم ينتشر فن الطباعة في بقية بلدان امريكا اللاتينية الا ببطء شديد . فقد تأسست في الارجنتين اول مطبعة سنة ١٧٠٠ م ، ولكن سبقتها غواتيمالا بذلك اذ تأسس فيها مطبعة سنة ١٦٦٠ م بتأثير مكسيكي . وامتلكت كوبا اول مطبعة سنة ١٧٢٣ م . اما بقية دول امريكا اللاتينية فقد تأسست فيها مطابع بعد ذلك في منتصف القرن الثامن عشر . وكانت اغلب المطبوعات ذات صبغة دينية .

الطباعة في المستعمرات الامريكية :

لقد زحف فن الطباعة مع المستكشفين الاوائل وحل معهم اينما حلوا . فقد نزل اوائل الرواد الانكليز سنة ١٦٢٠ م على ساحل بلايموث روكPlymouth Roek وتأسست اول مطبعة في ولاية ماساشوسيتس سنة ١٦٣٨ م وبدأت عملها سنة ١٦٣٩ م .

ذلك ان سكان المستعمرات بدأوا حوالي ذلك الوقت اهتمامهم بالتربية فأسسوا المدارس وبدأوا البحث في تأسيس كلية . ولقد تحمس لهذا المشروع رجل دين من انكلترا اسمه جوزيف غلوفرJosef Glover كان قد هاجر الى المستعمرات واستقر فيها . وقد اعتقد هذا القسيس ان وجود مطبعة في المستعمرات الجديدة سيسهل عمل الكنيسة البوريتانية وقضية تأسيس كلية دينية لتخريج رجال الدين والمبشرين ، ولذلك فقد ابحر الى انكلترا وهناك جمع مبلغاً من المال واشترى مطبعة ولوازمها من حبر وورق ونحوه واستأجر طابعاً ذا خبرة هو ستيفن داي مع ولديه وشحن الجميع في سفينة من كمبردج في انكلترا إلى كمبردج في ماساشوستيس .

ولقد توفي غلوفر اثناء الرحلة ، ولكن الرحلة تمت في المسار المرسوم لها ووصلت المطبعة الى كمبردج واحتضنت المشروع ارملة غلوفر واسست اول مطبعة في المستعمرات وبدأت المطبعة عملها سنة ١٦٣٩ م . وقد فتحت ارملة غلوفر دكاناً لادارة المطبعة وكان ذلك خروجاً على التقاليد الاوربية التي خصت الذكور بمثل

هذه الاعمال . ولقد اسمت السيدة غلوفر مطبعتها باسم مطبعة كمبردج . ولعل ولدي ستيفن داي وهما ماتيو وستيفن ، هما اللذان باشرا الطباعة في المطبعة ، اما ابوهما ستيفن فهو الميكانيكي الذي ركب المطبعة وشغلها .

هذا وان اول قطعة معروف انها صدرت عن مطبعة كمبردج هي منشور معروف باسم يمين الرجل The Oath of a Free Man . واول كراس طبع هو تقويم عام ١٦٣٩ م ، ولكن لم يبق ولانسخة واحدة من كلا العملين .

لقد كانت التوراة والتقاويم اكثر الكتب انتشاراً ووجوداً في بيوت اوائل المستوطنين . فقد كانت الاعمال الزراعية من حرث وبذر وحصاد . . . تتم حسب ما هو وارد في التقاويم . ولذا كان من الطبيعي البدء بطبع التقويم .

اما اول كتاب طبع في المستعمرات التي عرفت فيها بعد باسم الولايات المتحدة الامريكية فهوكتاب المزامير The Whole Booke of Psalmes الذي طبع سنة ١٦٤٠ م في مطبعة كمبردج المذكورة آنفاً . يتألف هذا الكتاب من ١٤٧ ورقة مطبوعة بشكل خشن مع صفحة عنوان . ولم يبق من هذا الكتاب سوى عشر نسخ ست منها غير كاملة . ويسمى ايضاً هذا الكتاب غالباً باسم Bay Psalm Book . ولقد ادارت اسرة داي المطبعة حتى سنة ١٦٤٩ م عندما توفي ماتيو فحل محله في المطبعة صامويل غرين الذي ظل يعمل بها حتى سنة ١٦٩٢ م . ولقد صدر عن هذه المطبعة حتى هذا التاريخ .اكثر من مائتي كتاب وكراسة ، وبعض هذه الموضوعات تقاويم وبعضها اشياء لها علاقة بجامعة هافارد ـ ذلك ان ارملة غلوفر تزوجت من هنري دانستر Dunster اول رئيس لكلية هافارد التي تأسست سنة ١٦٣٩ م ـ وبعضها كتب دينية وكراسات دينية كثيرة .

هذا وان ثاني كتاب مهم تم طبعه في المستوطنات الامريكية هو كتاب توراة الهنود او التوراة الهندية . ذلك ان جون اليوت ، وهو مبشر ورجل دين من انكلترا ، امضى فترة من حياته بين هنود امريكا الحمر يبشر بالديانة النصرانية على المذهب الانكليكاني ، ولاحظ ان عملية التبشير قد تسير بشكل افضل لو وجد توراة باللغة الهندية ، ولذلك بدأ بنقل التوراة كلها الى اللغة الهندية ، وطلب مساعدة لذلك من انكلترا ومن حاكم مستعمرة ماساشوستيس فاجيب الى طلبه

وشكلت لجنة خاصة لمساعدته . ولما تم العمل قرر طبع الكتاب وبدأ الطبع في مطبعة كمبردج سالفة الذكر ، ولكن يبدو ان الطابع صمويل غرين لم يستطع ان يقوم بعمل مرض في هذا المجال ، فاستحضر طابع بارع من انكلترا اسمه مارمادوك جونسونMarmaduke Johnson لانجاز العمل ، وتمكن جونسون هذا ان ينجز العمل سنة ١٦٦٣ م . ويوجد نسخة من هذه التوراة في مكتبة جمعية العاديات الامريكية في دورسيستر من ولاية ماساشوستيس ؛ وهي نسخة كان قد اشتراها آنذاك شخص اسمه اسحاق توماس بسبعة دولارات ، وهو ثمن خيالي آنذاك . ولقد امتلكت مدينة بوسطن في سنة ١٦٧٥ م اول مطبعة لها واصبح جون فوستر اول طابع فيها . وكان فوستر يمارس الحفر على الخشب وقام هو نفسه بتزويد مطبوعاته بوسائل الايضاح المحفورة على الخشب .

وتعتبر ولاية بنسلفانيا هي الولاية الثانية في المستعمرات الامريكية التي تأسست فيها مطبعة ، وكان ذلك سنة ١٦٨٥ م . فقد مول حاكم المستعمرة وليم بين Penn واسس مطبعة هناك ، وقام بالطباعة فيها الشاب وليم برادوفوردBradford . واول كتاب اصدرته هذه المطبعة هو تقويم بعنوان : **رسالة امريكا ، هو تقويم للسنة ١٦٨٦ من تاريخ سيدنا** . وبعد فترة انتقل برادوفورد الى نيويورك واسس فيها اول مطبعة سنة ١٦٩٣ م . واول ما صدر عن مطبعته هذه هو بيان هاجم فيه زعماء بنسلفانيا الذين عارضوه . وقد ظل برادوفورد في نيويورك يعمل في الطباعة حتى وفاته سنة ١٧٥٢ م ، وقد طبع اكثر من ٤٠٠ كتاب وكراسة خلال حياته . وقد اشتهر انه من ابرز طابعي عهد الاستعمار ، وانه اول من طبع العملة الورقية المتداولة في نيويورك ، وانه اول من طبع كتب الصلوات العامة واول من طبع تاريخ نيويورك واول من طبع خريطة محفورة على النحاس لنيويورك ، كما وانه ساهم في تأسيس اول مصنع للورق في امريكا سنة ١٦٩٠ م ، واسس اول مطبعة في ولاية نيوجرسي سنة ١٧٢٣ م . وقد تابع ابناؤه واحفاده عمل الاسرة الطباعي حتى اواخر القرن التاسع عشر .

ولقد تأسست مطبعة في فرجينيا سنة ١٦٨٢ م لفترة قصيرة ثم ألغيت ، ولم تمتلك فرجينيا مطبعة بشكل دائم إلا سنة ١٧٣٠ م عندما أسس وليم باركس

Parks مطبعة وليامسبورغ Williamsburg . كذلك تأسست في ولاية ساوث كارولينا مطبعة سنة ١٧٣١ م في مدينة تشارلستون ، وقد أصبحت هذه المطبعة حتى الثورة الامريكية من أنشط المراكز الطباعية في امريكا .

كان تقدم الامريكيين نحو الغرب الموحش بطيئاً ، ولذلك ظلت الطباعة في مستوى منخفض ضيقة الانتشار ضعيفة التقنية . ولكن لم يلبث ان ظهر اتجاه طباعي جديد في امريكا هو طبع الجرائد . وتعتبر جريدة بوسطن ويوميات انكلترا الجديدة اول الجرائد طباعة في امريكا سنة ١٧٢١ م . ولقد كان الحاكم الانكليزي يسرع الى فرض غرامة باهظة او معاقبة اي طابع ينشر شيئاً يشتم منه رائحة عدم الولاء .

ولم تتأسس في كندا مطبعة حتى سنة ١٧٥٢ م عندما اسس بارثولوميوغرين ، وهو احد احفاد صامويل غرين من اوائل الطابعين في مطبعة كمبردج المطبعة الاولى التي اسست في الولايات المتحدة ، اول مطبعة في هاليفاكس من مقاطعة نوفاسكوشياNova Scotia . وصدرت في هاليفاكس بعد سنة من هذا التاريخ اول جريدة في كندا على يد جان بوشلBushell .

بنيامين فرانكلين واعماله في حقل الطباعة :

لعل ابرز الطابعين الامريكان في العهد الاستعماري هو بنيامين فرانكلين . ولد بنيامين في بوسطن في اوائل القرن الثامن عشر ، واشتهر في التاريخ الامريكي كسياسي ورجل دولة وفيلسوف ومخترع وعالم وصحافي ، ولكن عمله الاول كان الطباعة وظل يوقع حتى آخر ايامه اسمه متبوعاً بكلمة الطباع . وقد اشتغل بنيامين منذ صغره في مطبعة اخيه جيمس وظل يعمل فيها مدة تسع سنوات بدون اجر ، ولكن اخاه القاسي كان يطعمه ويكسوه ، وكثيراً ما كان يضربه ويجبره على الوقوف ساعات طوالاً وهو يعمل في صف الحروف يدوياً . ولقد صبر بنيامين على هذه المعاملة القاسية . وكان يحب المطالعة منذ صغره وكان يستعير الكتب ويقرؤها ، وغالباً ماكان يتلصص من تحت الباب الذي كان اخوه يعمل داخله في طبع بعض الموضوعات الخاصة ويتسمع ويسجل بعض الملاحظات .

ولقد كان الاخ الاكبر يقوم بطبع جريدة بوسطن لمدير البريد في بوسطن وليم بروكر Brooker ، ولكن بعد فترة اتى مدير آخر وانتزع الجريدة من جيمس ، فاصدر يوميات انكلترا الجديدة وهي معتبرة اول جريدة تصدر في المستعمرات الامريكية ليس لها صفة رسمية . ولقد كان جيمس ، يعاونه اخوه فرانكلين ، طابع ومحرر هذه الجريدة ، وكان شخصاً ضد الملكية وذا طبع حاد .

ولقد اعتقل حاكم الولاية جيمس ، بعد عدة تحذيرات ، بسبب طبعه ونشره في جريدته اقوالاً هجومية ضد الحكومة الانكليزية . ولقد تمكنت زوجة جيمس من اصدار الجريدة بمساعدة بنيامين الذي كان قد نضج آنذاك وبرزت شخصيته وتعلم فن الطباعة .

واخيراً ضاق بنيامين بتحكم اخيه فيه وسوء معاملته عنه ، ولذلك تركه الى غير رجعة وتمكن ان يوجد عملاً عند طابع من فيلادلفيا هو وليم برادوفورد . ولقد تمكن ان يوجد عملاً جيداً ومناسباً في فيلادلفيا واثبت نفسه خلال هذه الفترة واصبح له صلات طيبة مع عدد من الناس من بينهم الحاكم الانكليزي . ولقد جمع مبلغاً من المال وفكر ان يعود الى بوسطن ويؤسس له مطبعة هناك ، ولكنه عجز عن تنفيذ المشروع ، واخيراً ادرك انه لكي يرتقي بفن الطباعة فان عليه ان يرحل الى لندن ويتعلم فن الطباعة فيها ، لان ذلك الفن كان ارقى بكثير مما كان عليه في المستعمرات . وقد فعل ذلك وارتحل الى لندن واوجد عملاً لدى طابع شهير من طابعي لندن اسمه صامويل بالمر Palmer . ولكنه بعد فترة اوجد عملاً افضل لدى طابع آخر . ولقد لبث فرانكلين في لندن حوالي سنتين واكتسب خبرة ممتازة . ثم رجع الى فيلادلفيا واشتغل عند عدد من الطابعين ، ولكنه بعد فترة بدأ يعمل لحسابه الخاص فتشارك مع زميل له اسمه هيو ميريديث Hugh Meredith وطلب تجهيزات طباعية من لندن ، ولما وصلت التجهيزات فتحا مطبعة وبدءا العمل . وقد نجحا اول الامر وحققا بعض الارباح . ولكن ما ان ووجهت الشركة باول ازمة اقتصادية لها حتى انسحب منها ميريديث واستلم فرانكلين العمل كله ، وكان عمره آنذاك ٢٣ سنة . ومنذ ذلك الزمن اصبح يعمل منفرداً وكان يوقع جميع اعماله باسم B. Franklin Printer . ولقد

اصدرت تلك المطبعة خلال الاربعين سنة التي تلت ماينوف على ٧٠٠ عنوان باستثناء الاوراق النقدية والمنشورات والجرائد . فقد بدأت سنة ١٧٢٩ م في اصدار وطبع مجلة بنسلفانياPennsylvania Gazetteوهي ثاني مجلة اسبوعية تصدر في بنسلفانيا . وقد نجحت المجلة بشكل جيد مما ادى بفرانكلين الى ان نشر كتابه التالي الرئيسي تقويم ريشارد الفقيرPoor Richard's Almanac . ويعتبر هذا التقويم اول كتاب من نوعه يطبع في المستعمرات ، وكان اكثر الكتب بيعاً في وقته وانتشر الكتاب ودخل الى كل بيت ، وكان يباع من كل طبعة عشرة الاف نسخة وكان الناس ينتظرون الطبعة الجديدة بلهفة .

ولقد تنوع واختلف انتاج فرانكلين عبر السنين ، وكان هو ، في نفس الوقت ، الطابع والمؤلف والمحرر والناشر للجريدة . ولكنه ، فيما بعد ، بعد ان تقدمت به السن وبعد ان تعددت واجباته ومهامه وانشطته ، تخلى عن اغلب هذه الاعمال واصبح هو المحرر فقط بينما اصبح غيره الطابع والناشر للجريدة . كذلك اعتاد على اصدار تقويم سنوي . وكان هذا النوع منتشراً في كل بيت في امريكا آنذاك ، ويأتي بعد التوراة مباشرة في كل بيت .

ولقد كانت المطبوعات الحكومية تشكل جانباً مهماً من مطبوعات المطابع . فقد كانت تطبع بها قوانين الضرائب والقوانين العامة ، ومشاريع القوانين والجرائد الرسمية والاشكال القانونية المختلفة والتشريعية التي تحتاجها حكومات الولايات . وبالمقابل ، فقد اضطهد حكام المقاطعات اوائل الطابعين وكانت مطبوعاتهم تخضع بعض الاحيان للرقابة . وكان الطابعون الرسميون محظوظين ولهم نفوذ في مقاطعاتهم ، وكانت الحكومة المحلية تتسامح معهم فيما يقومون بطباعته ، على حين كانت تتشدد مع غيرهم . وهناك عدد من الحالات في تاريخ القضاء في العهد الاستعماري ، اشهرها حالة الطابع بيتر زنجر . ومن قبله حالة اسحاق توماس . فقد اصدر توماس جريدة بعنوان جاسوس ماساشوستيس . وقد كان توماس وطنياً متحمساً ، وقد عبر بحماسة ووضوح تامين عن عزمه وتصميمه على تحرير المستعمرات من حكم الانكليز ، حتى ان الحاكم الانكليزي امره بترك بوسطن ، وفي جنح الظلام نقل توماس مطبعته الى وورسستر من ولاية

ماساشوستيس وتابع دعوته العلنية للتحرر من الحكم الانكليزي . ولقد لعبت جريدة الجاسوس هذه دوراً مهماً في التعجيل بحرب الثورة .

اما حالة بيتر زنجرZienger فهذه قضية شهيرة كل الشهرة في تاريخ القضاء في الولايات المتحدة في العهد الاستعماري . ذلك ان زينجر كان شريكاً لطابع شهير هو وليام برادوفورد وكان الشريكان يصدران جريدة في نيويورك باسم **جريدة نيويورك الاسبوعية** . وفي سنة ١٧٣٤ م شن زينجر هجوماً عنيفاً في جريدته ضد الحاكم الانكليزي في نيويورك . لقد كانت حرية الطباعة والنشر اكثر انواع الحريات اعتسافاً وسوء استعمال في المستعمرات وثار حولها جدل عنيف ، ولم يكن لدى الطابعين حرية من اي نوع وكان مصيرهم السجن اذا طبعوا ما تعتبره الحكومة هجوماً او نقداً ضدها . ولقد وصل نضال الطابعين الامريكان من اجل الحصول على حرية النشر والطباعة ذروتها في قضية زينجر هذه . ذلك ان الحاكم الانكليزي استاء للهجوم الذي شن ضده ولذلك امر باعتقاله وشريكه بتهمة العصيان . ولقد طلب الحاكم الانكليزي محاكمة زينجر بتهمة العصيان ، ولقد جرت محاكمة شهيرة جداً ونوقش طلب الحاكم وتولى الدفاع عن زينجر احد كبار المحامين المشهورين بالفصاحة والبلاغة وهو الكسندر هاملتون ؛ وبعد عدة جلسات صاخبة رفض طلب الحاكم وثبتت براءة زينجر وشريكه من تهمة العصيان واطلق سراح زينجر وتوطدت حرية الصحافة والطباعة في المستعمرات ، ولم يعد باستطاعة الحكومة ان تراقب الصحف او تفرض عليها الغرامة ، وزاد ذلك في اشتعال نار العداوة ضد الانكليز والدعوة الى الاستقلال .

ولقد طبع الطابعون الامريكان في العهد الاستعماري ، الى جانب الجرائد والتقاويم ومطبوعات الحكومة ، كثيراً من المنشورات الكراسات والكتب . وكانت الغالبية العظمى من المنشورات منشورات حكومية رسمية تعلن عن قوانين جديدة ، او تحوي ملخصات لقرارات المحاكم ، او تذيع بعض الانباء المهمة ، وهذه هي الصفة الغالبة عليها . كانت هذه المنشورات تطبع على وجه واحد من الورقة وتلصق في الاماكن العامة ليتمكن عامة الناس من قراءتها والاطلاع عليها . وكانت الكراسات سياسية او دينية المحتوى وقد طبع منها الكثير .

وكانت طباعتها هزيلة وتجليدها سقيم وكانت تقرأ وتنسى بسرعة . اما الكتب فقد فاز الدين بحصة رئيسية من مجموع مانشر وطبع في اغلب المستعمرات حتى ان هذه النسبة تصل الى حوالي الخمسين من مجموع ما تم نشره وطبعه في المستعمرات في العهد الاستعماري . كذلك طبعت كتب الاحتفالات ونصوص القوانين والكتب الحقوقية والمجلات التشريعية والحوليات الرسمية وتبلغ نسبتها حوالي الخمس من مجموع ما طبع ونشر آنذاك في المستعمرات . اما نسبة مانشر من الادب فهو قليل ، فقد كان اغلب ما طبع عبارة عن طبعات لاعمال كلاسيكية مع شروح عليها بقلم كتاب اوربيين او انكليز . اما الاعمال الامريكية فكانت نادرة كل الندرة . وان احد الاسباب التي جعلت عدد ومستوى ما طبع في المستعمرات الامريكية في العهد الاستعماري من الاعمال الادبية قليلاً ونادراً هوان تلك الاعمال كان من الممكن الحصول عليها من انكلترا بطبعات انكليزية ارخص كلفة مما يكلف اعادة طبعها في امريكا . ونفس الشيء ينطبق على التوراة التي لم تطبع الا قليلاً في المستعمرات . وتشكل المنشورات والمطبوعات في حقول التاريخ والاقتصاد والتربية والعلوم السياسية خمس مانشر وطبع من مطبوعات في العهد الاستعماري . اما المنشورات في حقلي العلوم (المحضة والتطبيقية) والفنون الجميلة فهزيلة كل الهزال لاتتجاوز نسبتها ٣٪ من مجموع مانشر وطبع .

على ان هناك بعض الاستثناءات في هذا المجال . فقد وجد عدد من الاعمال اعيد طبعها عدة مرات مثل كتاب the New England Primer الذي اعيد طبعه اكثر من ثلاثين مرة بين سنتي ١٦٣٠ و ١٨٣٠ م وطبع الوف النسخ من كل طبعة . كذلك لجأ بعض الطابعين الى الاعلان عن طبع كتاب مهم وفتحوا باب الاشتراك مسبقاً لمن يريد ان يشترك ؛ كما حدث عندما اريد طبع كتاب **تاريخ انكلترا الجديدة** الذي تم نشره في بوسطن سنة ١٧٣٦ م واشترك فيه مشتركون حجزوا ما مقداره ١٤٥٠ نسخة وذلك قبل ان يطبع .

ان اقدم جريدة طبعت في المستعمرات الامريكية في العهد الاستعماري هو عدد من جريدة اسمها Public Occurencesboth Foreign and Domestics . وقد قام باصدارها وطبعها في بوسطن بنيامين هاريس في ٢٥

٢٥ أيلول ١٦٩٧م . ولكن الحاكم الانكليزي للمقاطعة اعترض على محتويات الجريدة ومنع نشرها . ولم يتجرأ اي طابع على اصدار اية جريدة الا بعد اربعة عشر عاماً . فقد اصدر جون كامبيلCanpbell جريدة اسماهارسالة **انباء بوسطن**The Boston News Letter ، وذلك يوم ٢٤ نيسان سنة ١٧٠٤ م وبعد ان اخذ اذناً مسبقاً من الحاكم الانكليزي ، ولقد حوى العدد اخباراً رسمية الى جانب اخبار اخذت من جريدة لندنية قديمة ، واستمرت الجريدة في الصدور تحوي اخباراً واعلانات رسمية صادرة من حكومة لندن وحكومة المقاطعة ، وصدرت بعدها عدة جرائد في عدد من المدن الموجودة في عدد من المستعمرات .

كانت محتويات الجرائد سياسية في معظمها مع وجود بعض الاعمال الادبية التي كانت تنشر بشكل مسلسل . وكانت الاخبار قديمة ومأخوذة من صحف انكليزية . وكانت القوانين العامة تشغل بعض الاحيان معظم الفراغ في احد الاعداد ، وخصوصاً عندما يكون مجلس المقاطعة التشريعي بانعقاد . ولقد اصبحت الاعلانات ، فيما بعد في القرن الثامن عشر ، احد المصادر الاساسية المالية للصحف وساهمت في استقرارها المالي . كذلك لم تصدر صحف ادبية قبل الثورة الامريكية .

وتعتبر **المجلة الامريكية** التي قام بتحريرها ونشرها واصدارها اندرو برادفورد سنة ١٧٤١ م في فيلادلفيا اول مجلة امريكية تصدر وتطبع في امريكا . وقد استمرت في الصدور لمدة ثلاثة اشهر . وبعد فترة قصيرة اصدر بنيامين فرانكلين مجلته المشهورة والمعروفة باسم **المجلة العامة والحولية التاريخية** واستمرت في الصدور ستة اشهر . ولقد اصدر شخص في بوسطن اسمه جرمياجريدلي Gridley سنة ١٧٤٣ م مجلة اسمها **المجلة العامة والحولية التاريخية** واستمرت ثلاث سنوات . ولقد صدر في المستعمرات بين سنتي ١٧٤١ و ١٧٧٥ م مالايقل عن سبع عشرة مجلة ، غير ان اغلبها لم يلبث الا فترة قصيرة من الزمن ، ولم تعمر احداهن حتى تشاهد الثورة .

ولم تتغير المطابع في المستعمرات كثيراً عن تلك المطبعة التي اوجدها غوتنبرغ . فقد جلب واحضر اكثرها من انكلترا ، ولكن وجد في اواخر العصر الاستعماري نفر قليل من الطابعين تمكنوا ان يؤسسوا مطابعهم بانفسهم وان يصنعوا ادواتها محلياً . كما وان الاحرف كانت تستورد اما من انكلترا او المانيا . ولقد اسس جاكوب بي Bay ، وهو مهاجر من سويسرا ، اول مصنع لصب الحروف في فيلادلفيا سنة ١٧٧٣ م . كذلك بدأت صناعة الورق في المستعمرات منذ عهد ابكر ، فقد اسس الالماني وليم ريتنهاوس Rittenhouse وابنه كلوس Claus اول مصنع للورق في مدينة جرمانتاون Germantown سنة ١٦٩٠ م وذلك لحساب وليم برادفورد . ولقد تمت صناعة الورق في المستعمرات ببطء وكانت نوعية الورق سيئة هزيلة . ولقد تمكنت المستعمرات ، اعتباراً من سنة ١٧٧٥ م ، ان تكفي نفسها بنفسها من الورق وخصوصاً في فيلادلفيا .

لقد كان مركز الطابع في المستعمرات مهماً ، فقد كان شخصاً ذا نفوذ في مستعمرته وقد جمع بعض الطابعين ثروة لابأس بها وإذا ذكرنا بنيامين فرانكلين كمثل على الطابعين ، فإننا يجب أن نذكر أن فرانكلين لم يكن طابعاً عادياً وإنما كان شخصاً متميزاً كل التميز وذا مواهب فائقة في كثير من الحقول كالطباعة والفلسفة والسياسة والتربية وغيرها . وكان كثير من الطابعين أشخاصاً أذكياء وعندهم تنوع في المواهب والمشاريع من أمثال فرانكلين وجوستوس فوكس من فيلادلفيا الذي مارس إلى جانب الطباعة صب الحروف والحفر والطب والصيدلة والجراحة . وكان كثير من الطابعين زعماء محليين في مدنهم وذلك بسبب جرائدهم وقد ثقف كثير منهم أنفسهم بأنفسهم .

وعندما نشبت الثورة الامريكية لعب الطابعون في المستعمرات دوراً بالغ الاهمية . فعندما نشبت ازمة قانون الطوابع وما رافقها من احداث كان الطابعون في صحفهم وجرائدهم هم الذين دأبوا على تغذية الشعب باستمرار بادق وآخر الاخبار عن تطور الموضوع . وكانت انباء المجالس القارية والمقاطعات وقراراتها ، وأنباء قرارات البرلمان الانكليزي المعاكسة أنباءً مثيرة انتشرت بسرعة البرق مابين ولايتي ماين وجورجيا .

ولقد استخدمت اللجان الثورية واستعملت اجمل استخدام واستعمال الكلمة المطبوعة واستغلتها في توزيع الانباء وايصالها الى كل انسان من مستعمرة الى مستعمرة . ولقد كانت الكراسة السياسية ، خاصة ، مهمة في تحريك رجال المستعمرات ودفعهم للثورة . وان من الصعب تخيل ثورة امريكية ناجحة بدون مساعدة الطابع في المقاطعات .

ولقد تألم الطابعون خلال حرب الثورة سواء اكانوا موالين للانكليز ام للثورة الامريكية . فقد فقد الورق وهدم عدد من المطابع . واخيراً اعترفت حكومة الولايات باهمية الطابع وما ينتجه . وعندما اجري اول تعديل على دستور الولايات المتحدة سنة ١٧٨٩ م ، ذلك التعديل الذي تناول بالتغيير والتبديل عشر مواد اساسية من الدستور ، نصت المادة الاولى بحزم على ضمان حرية الطباعة بشكل ثابت ودائم .

الفصل الرابع عشر

صناعة وتجارة الكتاب
حتى مطلع القرن العشرين

لقد حدث في العالم ، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حتى نشوب الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ م ، تطورات وتغيرات رهيبة عميقة كبيرة تركت اثاراً بارزة كل البروز في كل المجالات السياسية والاقتصادية والفنية والتقنية والثقافية والتربوية .

فقد شاهد القرن الثامن عشر الثورة الفرنسية الكبرى سنة ١٧٨٩ م وما رافقها وتبعها من احداث ، ولقد تعاصر معها في نفس القرن وسبقها بقليل الثورة الامريكية التي ادت الى ولادة الولايات المتحدة الامريكية وزوال الاستعمار الانكليزي عن تلك البقعة من القارة الامريكية . كذلك شاهدت السنوات الاولى من القرن التاسع عشر حروب نابليون وما رافقها من احداث وماتبعها من تغيرات وتطورات غيرت بشكل جذري ملامح المجتمع الاوربي في القرن التاسع عشر . ولقد تابعت شعوب اوربا نضالها ضد حكامها وضد المستعمرين حتى تمكنت اغلب هذه الشعوب من تحررها من الحكم الاستبدادي او تحقيق وحدتها الوطنية كما هو الحال في المانيا وايطاليا . ولقد انصرفت اوربا خلال القرن التاسع عشر الى الاستعمار ،وقاد هذه العملية الدولتان الاستعماريتان انكلترا وفرنسا ، حتى تمكنت اوربا من استعمار قسم كبير جداً من افريقيا واسيا . ولقد قاد التنافس الاستعماري وغليان الشعور الوطني والمنافسة الاقتصادية ، مع عوامل اخرى ، الى نشوب الحرب العالمية الاولى التي كان لها نتائج بعيدة المدى .

كذلك رافق هذه التطورات السياسية تطورات اقتصادية لاتقل اهمية واثارة عن التطورات السياسية . فقد ظهر في اواخر القرن الثامن عشر وحدث ما يسمى

باسم الثورة الصناعية التي بدأت في انكلترا ثم انتقلت الى ارجاء اوربا وامريكا . وهدفها احلال الآلة في العمل محل الانسان . وقد ادى ذلك الى مضاعفة الانتاج بشكل هائل لم يسبق له مثيل ، والى توفير وقت انفقه العامل في راحته او ثقافته . كذلك نمت التجارة الداخلية والخارجية بشكل لم يعرف من ذي قبل وتعددت وسائل المواصلات وانتشرت ، وظهرت النظريات الاقتصادية المختلفة .

وفي نفس الوقت ازداد عدد السكان في ارجاء اوربا وامريكا ، فقد قدر عدد سكان اوربا في حدود سنة ١٧٠٠ م ب ١٢٥ مليون انسان ، وصل في حدود سنة ١٨٠٠ م الى حوالي ١٩٠ مليون وفي حدود ١٩٠٠ م الى حوالي ٣٠٠ مليون . وكان اغلب السكان ريفيين خلال القرن الثامن عشر ولكن الثورة الصناعية لم تلبث ان جذبت سكان الريف الى المدن الى المصانع فتوسعت المدن وظهرت مشاكل العمال والعمل وما رافقها من تغيرات اجتماعية واقتصادية ضخمة . كذلك بدأت تظهر العناية بالصحة العامة والنظافة مما ادى الى رفع مستوى السكان الصحي ، وبدأت المدن تزدحم بالسكان . وبدأت العناية بالثقافة والتربية والتعليم تزداد وانتشرت المدارس في القرن التاسع عشر وزاد عدد السكان وزاد بالتالي عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة ، وزاد عدد رواد الجامعات وفتحت جامعات اخرى كثيرة واشتد الطلب على الكلمة المطبوعة والمقروءة .

كل هذه التطورات والتغيرات تركت آثارها ، ان سلباً او ايجاباً ، على الكتاب وصناعته وتجارته خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن .

صناعة الكتاب في انكلترا :

لم يصادف فن الطباعة في انكلترا في القرنين السادس عشر والسابع عشر الا نجاحاً ضئيلاً ، فبعد جهود كاكستون الاولى وخلفائه في هذا المجال ، سقط فن الطباعة الانكليزية تحت وطأة الرقابة والشروط السياسية والاقتصادية المتغيرة لمدة قرن ونصف . ذلك انه وجد كثير من الطابعين ولكن كانت الحكومة والمراقبون الدينيون يراقبون انتاجهم ، ولم يحدث تقدم يذكر في هذا المجال الا بعد عودة

اسرة ستيوات سنة ١٦٦٠ م حيث زادت كمية المطبوع وارتفع مستواه . كان الطبع في انكلترا تجارياً ولم يكن فنياً وحتى مسرحيات شكسبير كان طبعها هزيلاً ، فقد كانت الاحرف الاولى غالباً قديمة ومتآكلة ، وكانت الهوامش ضيقة وتصميم صفحة العنوان هزيلاً ؛ وكانت وسائل الايضاح تصنع بطريقة مهملة حتى ان كثيراً من الناس لم يكن يفهمها .

ولقد دخل فن الطباعة في انكلترا بعد سنة ١٦٩٤ م في حياة جديدة ، ولم يأت منتصف القرن الثامن عشر حتى اصبح واحداً من أبدع وأجود فنون الطباعة في اوربا ، فقد بدأ حوالي سنة ١٧٢٠ م وليام كاسلون Caslon ، وهو مصمم حروف طباعية ، يطور ويوجد حروفاً طباعية جديدة تناسب خاصة الالفباء الانكليزية ، وقد استعان كاسلون في عمله هذا باعمال اشهر الطابعين الهولنديين وانتج شكلاً طباعياً للحروف الانكليزية امتاز بوضوحه ودقته ، وقد استعمل واستخدم في عمله مزيجاً من الزوايا والمنحنيات مما جعل منظرها مسراً للقلب . ولقد فاقت حروف كاسلون الرومانية الحروف الكلاسيكية التي ابتكرت فيما بعد ، وذلك بما امتازت به من رقة ، فضلاً عن تخلصها من اي صلابة وتكلف . هذا وتشترك حروف كاسلون هذه ، مع حروف جنسون وغارامون Garamond الرومانية ، في قيامها بالدور الرئيسي في الطباعة في الوقت الحاضر ، لم تشاركها فيه غير امريكا في ايامنا هذه ، اذ صار لانكلترا بفضلها مكانة ممتازة في هذا الميدان .

ولقد اخذ في اواخر القرن الثامن عشر جون باسكرفيل Baskervilleشكل وتصاميم حروف كاسلون وادخل عليها تصليحات كثيرة واستعملها في طباعة عدد من الاعمال التي تعتبر من اجمل الكتب التي تم طبعها في انكلترا مدى العصور . ولقد طبع باسكرفيل ، الذي كان اول امره معلماً للخطوط ، حوالي ٦٧ كتاباً مختلفاً ، ولعل اجمل واشهر كتاب طبعه هو كتاب اعمال فيرجيل . ولقد كانت كتب باسكرفيل غالية الثمن حتى في زمانه هو . ويبدو انها صممت من اجل هواة جمع الكتب الجميلة النادرة بالدرجة الاولى . ومع ذلك فقد وضعت اساساً لمعايير الكمال والاناقة في الطباعة بحيث اصبح لها تأثير دائم ومستمر في عالم الكتب منذ ذلك الحين .

ان القسم الاكبر من ثمرات المطابع الانكليزية ، في عهودها الاولى يتألف من كتب دينية وكراسات سياسية وكتب التراث الكلاسيكي على الرغم من ان كتب التراث لم تطبع في انكلترا بنفس الكثرة التي طبعت بها في اوربا . وقد صدر في اوائل القرن السابع عشر اشهر كتاب طبع في انكلترا حتى ذلك العهد وهو توراة الملك جيمس . ونشرت بعيد ذلك اول جريدة في انكلترا وقام بنشرها جون ارشر Archer سنة ١٦٢١ م وهي اولى المحاولات . ولقد الغى الملك شارل سنة ١٦٢٥ م جميع نشرات الانباء وظلت نادرة كل الندرة خلال القرن السابع عشر . كذلك صدرت في اواخر نفس القرن اوائل الدوريات ، وكانت تتألف من اربع الى ثمان صفحات وتحوي آخر الانباء السياسية والعسكرية مع بعض الادب المعاصر واراء المحرر في عدد من الموضوعات المختلفة . ولقد كان اغلب هذه الدوريات يعيش حياة قصيرة لفترة من الزمن مالم تتمتع بدعم سياسي او حكومي . ولقد اصبحت الدوريات عامة في حدود سنة ١٧٨٠ م في انكلترا ومنتشرة هي والصحف والمجلات والحوليات بين الطبقات العليا المثقفة في المجتمع . كان هناك مجلات عامة ومجلات انباء مثل مجلة جنتلمان ، ودوريات ادبية مثل مجلة ريشيارد ستيل تاتلر Tatler ، ومجلة جوزيف اديسون المسماة Spectator ، وكتب حولية مهمة مثل السجل السنوي The Annual Register .

ولقد جرى طبع عدد من الكتب المخصصة للاطفال ويعتبر كتاب العالم في صور The World in Pictures اول كتاب مصور للاطفال طبع في انكلترا سنة ١٦٥٨ م . وقد اصبح سنة ١٧٥٠ م جان نيوبيري John Newbery اول ناشر تخصص كلياً في نشر كتب الاطفال . وقد طبع ونشر نيوبيري اكثر من مائة كتاب صغير للناشئة ، وقام هو نفسه بتأليف قسم كبير منها .

ان ظهور الموسوعات في القرنين السابع عشر والثامن عشر في عدد من دول اوربا وبخاصة في كل من انكلترا وفرنسا والمانيا ، والذي تم بجهود مدرسة من الكتاب هو في الحقيقة امتداد وتكامل لمحاولات العصور القديمة والوسطى في جمع جميع المعارف المتاحة في كتاب او سلسلة من الكتب . فقد نشر في سنة ١٦٣٠ م

جوهان هنريخ الستد Alsted في سويسرا ما يمكن اعتباره اول موسوعة حديثة . وفي اواخر نفس القرن قام الفرنسيان بيير سايل Sayle ولويس موريري Moreri بتأليف موسوعة . واصدر سنة ١٧٠٤ م جون هاريس Harris قاموساً انكلزياً للعلوم والفنون بعنوان Lexicon Technicum,or, an Universal English Dictionary of arts and Sciences وقد رتب مواده الفبائياً . وقام افرايم تشامبرز Chambers سنة ١٧٢٨ م باصدار موسوعة بمساعدة عدد كبير من البحاثة الانكليز واعتبر هذا العمل اوثق وادق من عمل من سبقه . وعندما قام ديدرو وصديقه دالامبير في فرنسا في اصدار دائرة المعارف الشهيرة بين سنتي (١٧٥١ ـ ١٧٧٢ م) استعانا بترجمة فرنسية لموسوعة تشامبرز آنفة الذكر . وقد صدرت هذه الموسوعة بعد تأخير طويل ومكافحة شديدة ضد حكومة فرنسا وتدخلاتها وساعدت كل المساعدة على تمهيد الطريق لافكار الثورة الفرنسية . ثم تبعها في الصدور موسوعة اضخم منها بكثير هي (الموسوعة الموضوعية) ولم تقل مجلداتها عن ١٦٦ مجلداً وقام بتأسيسها الناشر الكبير بانكوك Panckoucke ولكنها لم تتم الا بعد وفاته بزمن طويل ، ونشر في لاينبرغ اكبر ناشر الماني هو زدلر اول قاموس عالمي في اربعة وستين مجلداً ضخماً ولازال معتبراً ذا قيمة حتى اليوم .

وصدرت في انكلترا لاول مرة الموسوعة البريطانية سنة ١٧٧٤ م في ثلاثة اجزاء واشترك في هذا العمل عدد كبير من العلماء والخبراء واصبح هذا العمل رائداً ونموذجاً يحتذى حذوه ولاتزال تصدر حتى اليوم . وقد اخذت الموسوعة في نهاية القرن الثامن عشر شكلها الحديث واضيفت اليها وسائل الايضاح مع مقالات طويلة بقلم ثقات وترتيب الفبائي مع احالات واحالات معترضة . . .

كذلك استمرت وسائل الايضاح المحفورة على الخشب في البقاء والظهور في انكلترا واستعملت بها حتى نهاية القرن الثامن عشر ، هذا على الرغم من ان الحفر على النحاس دخل الى انكلترا منذ سنة ١٥٨٨ م وتغلب على الحفر على الخشب . ولكن ظهر فنان حقيقي في القرن الثامن عشر احيا الحفر على الخشب واوصله الى درجة عالية من الكمال . هذا الفنان هو توماس بوييك Bewick . كما ظهر فنان آخر ، وان يكن اقل شأناً من بوييك في هذا المجال هو الطابع وليام بالمر Bulmer .

كان بوييك رساماً بارعاً ، وكان خاصة ماهراً في رسم الحيوان ، واروع آثاره هي بضع مؤلفات كبيرة عن الثدييات والطيور ، وهي غنية بالصور وتمتاز بدقة التعبير عن المظهر الخارجي للحيوانات ؛ كما تمتاز بقوة الفهم لطبيعة كل حيوان على حدة . ولقد انتشر فن مدرسة بوييك في الحفر على الخشب خارج انكلترا ، اذ ادخله الفنانون الانكليز الى القارة الاوربية وامريكا . وقد ظل الحفر على الخشب مستعملاً حتى حل محله التصوير الآلي الفوتوغرافي في القرن التاسع عشر .

تصنيع الكتاب وادخال الآلة الى المطابع :

لقد حدثت تغيرات وتطورات في عالمي الطباعة ووسائل الايضاح منذ عهد غوتنبرغ حتى اواخر القرن الثامن عشر ، ولكن قضية الطباعة وعمليتها لم تتغير كثيراً . فقد بدأت عملية احلال الالات محل الاعمال اليدوية القديمة ، كما حدث في كافة ميادين الصناعة الاخرى ، وقد ابتدأ هذا التقدم باختراع آلة لصنع الورق وتعزى الى الفرنسي روبير سنة ١٧٩٩ م . كذلك اوجد الالماني فريدريك كونيغ Konig المكبس الآلي سنة ١٨١٠ م . ومن قبله ادخل الى انكلترا ستانهوب سنة ١٧٩٨ م آلة ضاغطة حديدية ، وقد اضاف هذا قوة ضاغطة عظيمة لعمل القلاووظ الذي يرفع ويخفض الآلة الضاغطة اوالمكبس وهذا سارع في عملية الطباعة بشكل ملحوظ . وقد اخترع في الولايات المتحدة جورج كليمر مطبعة جديدة هي مطبعة كولومبيا استعمل فيها النوابض ليزيد من قوة الضغط . وقد استعملت جريدة لندن تايمز اختراع كونيغ المذكور آنفاً وزودت المطبعة بمحرك بخاري وتمكنت ان تطبع في الساعة الواحدة ١١٠٠ طبقاً . وقد تأسس في نيويورك سنة ١٨٥٠ م اول مطبعة اسطوانية وقد حسنها فيها بعد الفرنسي مارينوني . ثم اتى بعد ذلك اختراع الاطباق التي عليها الحروف وهي تستعمل الحروف المتحركة ويصب عنها اطباق صلبة كثيرة بسهولة . واتت بعد سنة ١٨٣٠ م اختراعات كثيرة وجديدة في عالم الطباعة جعلت عملية طباعة الكتب

والكراسات اسرع بكثير مما كانت . وقد ادى ذلك الى نمو الانتاج نمواً هائلاً . فبينما كان الانتاج السنوي في المانيا مثلاً ، يقرب من ثلاثة الاف وثلاثمائة مطبوع ، اذا به يقفز في اواسط القرن التاسع عشر الى عشرة الاف ، ثم يناهز الخمسة وعشرين الفاً في نهاية القرن .

وعلى الرغم مما حدث من تقدم في عملية الطباعة ، الا ان عملية صف الحروف ظلت يدوية طوال القسم الاكبر من القرن التاسع عشر . ولقد اخترع وليام شورش Church سنة ١٨٢٢ م طريقة لصف الحروف آلياً ولكن لم ينتشر اختراعه واحتاج الامر الى اكثر من ثلاثين سنة اخرى حتى ينتشر هذا الاختراع . وقد استعمل هذا الاختراع او مشابه له لاول مرة سنة ١٨٥٣ م وتم ذلك على يد وليام ميتشل Mitchell في نيويورك في مطبعة تروى . ثم اتى اختراع اللينوتايب Linotype سنة ١٨٨٥ م الذي تم على يد الالماني اوتومار مرجنتالر Mergenthaler . وكانت جريدة نيويورك هيرالد تريبيون اول من استعمل هذه الطريقة سنة ١٨٨٦ م .

كانت هذه الآلة ـ جامعة الحروف ـ كما كان غيرها من الالات التي صنعت فيما بعد (مثل مونولاين وتيبوغراف Monoline & Typograph) مصنوعة بطريقة تسمح بصهر الحروف وجمعها في اسطر في آن واحد . وكان جمع الحروف يتم بطريق الضغط على ازرار ، كما يحدث بالضبط في الكتابة على الآلة الكاتبة . وقد امكن بفضل آلة اللينوتايب هذه ـ وهي التي يمكنها جمع كل سطر في كتلة مستقلة واحدة ـ اداء عملية الطبع في ثلث او ربع الوقت الذي تستغرقه نفس العملية بطريق الجمع اليدوي .

وقد امكن بفضل هذه الاختراعات طبع اعداد كبيرة جداً من الكتب الشعبية الرخيصة وساهمت في نشر الكتاب وجعلته ارخص بكثير من ذي قبل . على ان هواة الكتب الجميلة ظلوا يفضلون الكتب التي تستخدم طريقة جمع الحروف باليد . كما استعمل في طباعة انواع من الكتب مثل الكتب المدرسية والمسرحيات الناجحة الات طابعة اسطوانية هي ما يسمى باسم Rotative .

وقد بدا للبعض ان عملية صف الحروف آلياً وهي اللينوتايب وعملية الطباعة بالصفحة الواحدة وهي ما تسمى باسم Plate Printing وكأنه رجوع الى الطباعة اللوحية الاولى . وطبعاً ليس الامر كذلك .

ان عملية الطباعة ذات السرعة الفائقة احتاجت الى ورق قوي في شكل ملفات بحيث انه يجب تزويد المطبعة الدوارة السريعة بتيار مستمر متدفق من الورق . وبسبب تزايد نشر الكتب والجرائد باعداد وفيرة فقد اصبح الورق مطلوباً كل الطلب واضطر صانعوا الورق لزيادة انتاج الورق وتحسين نوعيته حتى يقابل احتياجات السوق وتقنية المطابع . فقد تحسنت عملية انتاج الورق وحدثت في صناعة الورق اختراعات مهمة ادت الى تحسين نوعيته وانتاجه بكميات كبرى آلياً . كذلك اكتشفت في القرنين التاسع عشر والعشرين مواد اولية اخرى اضافية لاستعمالها في صناعة الورق . فقد اصبح القطن والكتان نادرين وغاليي الثمن ، وبعد كثير من التجارب امكن صنع الورق من نشارة الخشب . وقد تطورت صناعة الورق كماً وكيفاً وبسرعة مذهلة في الولايات المتحدة الامريكية حتى انه وجد فيها سنة ١٨٨٢ م ٧٤٢ مصنعاً للورق منتشرة في ٢٨ ولاية . وقد تزايد الطلب على الورق في القرن الحالي وبدأ التفتيش على مصادر جديدة لاستعمالها في صناعة الورق .

تطور وسائل الايضاح :

استعمل الطابعون حتى القرن السابع عشر ، طريقتين من اجل انتاج وسائل الايضاح : الحفر على الخشب والحفر على النحاس . وقد ازدهر اول الامر الحفر على الخشب ثم اتى بعده وتفوق عليه الحفر على النحاس ولكن اكتشفت طريقة جديدة في اواخر القرن الثامن عشر من اجل انتاج وسائل الايضاح وهو ما يسمى باسم الطبع على الصخر او الحجر Lithography .

تعزى هذه الطريقة الى الشاعر المسرحي الالماني ألويس سنفلدر Aloys Senefelder اثناء محاولات قام بها بين عامي ١٧٩٨ - ١٧٩٩ م لطبع مؤلفاته الخاصة .

كان النص يكتب ـ على حجر جيرى مبلل بمحلول صمغي ـ بمداد دهني . فعندما كان هذا الحجر يغطى بحبر الطباعة ، كان الحبر لايعلق الا بالكتابة ولايعلق بباقي الحجر . وهكذا نشأت طريقة جديدة لاخراج نسخ عديدة ، لاهي بالطبع على البارز كما هي الحال في الحفر على الخشب ، ولاهي بالطبع على الاجزاء المحفورة كما هي الحال في الحفر على النحاس ، وانما كانت طباعة مستوية للصور او الخطوط ، ذلك لان الجزء الذي كان يقوم بعملية الطبع كان في نفس مستوى الجزء الذي لم يكن ليقوم بهذه العملية . وعلى الرغم من الصعوبات التي تفرضها هذه الطريقة ، الا ان استعمالها شاع في كل مكان وبشكل خاص من اجل طبع الاوراق المستقلة ، وكذلك في تصوير الكتب وطبع وسائل الايضاح فيها . ولقد وصلت طريقة الطبع على الصخر في اواسط القرن التاسع عشر الى درجة قريبة من الكمال .

على ان الطبع على الصخر او الحجر عانى بعد فترة منافسة انتصرت عليه بعد فترة وهي طريقة الأكليشيهات او الحفر بالتصوير الشمسي . وقد كانت هذه الاكليشيهات تحفر مرة او مرات ، وبذلك استطاعت ان تظهر في الصور بالالوان وانصاف الالوان .

وقد توصل الفرنسيون ـ بعد سلسلة من التجارب والكشوف ـ الى استخدام التصوير الشمسي في فن طبع الصور خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ويعتبر الالماني مايزنباخ Meisenbach اول من نجح فيها بين سنتي ١٨٨٠ و ١٨٩٠ في القيام بعمل صور شمسية ورسوم مظللة . ومالبثت هذه الطريقة ان انتقلت الى امريكا وتحسنت على يد ماكس ليفي Levy .

كذلك استعملت طرق اخرى حديثة لطباعة الصور بطريقة التصوير الشمسي الآلي منها (الحفر بالخطوط)(والحفر الزنكوغرافي) الذي استخدم في تصوير الكتب والدوريات وكذلك طريقة (شبه الحفر) و (الحفر الشمسي) او (الحفر بالتصوير الشمسي الغائر)(والتصوير الشمسي الطباعي)(والتصوير الطباعي الملون) .

ولقد اتى في اواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين التصوير الشمسي الملون والاوفست (الطباعة التصويرية عن السطح الاملس) وغيرها من الطرق . وقد اشتركت الكيمياء والتصوير الشمسي والالكترون والتقنية الحديثة المطبقة في ابحاث الفضاء في انتاج عدد من اساليب التصوير والاساليب التي تنقل الصور او النصوص من مسافات شاسعة جداً وتطبعها او تظهرها وتصورها آنياً فور استلامها .

على ان تغلب استخدام الآلات في انتاج الكتب كان له ردود فعل عنيفة من قبل عدد من الدوائر ، ذلك ان استخدام الالات ، اول الامر ، لم يشجع على جودة الانتاج وانما عمل على الهبوط بالمستوى الفني للكتاب ، وان يكن عمل على مضاعفة الانتاج عدداً كبيراً من المرات . ولكن رد الفعل هذا ، الذي قاده الفنانون المهتمون بشؤن الكتب وتصويرها ، لم يبد واضحاً إلا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

ويعتبر وليام موريس انشط هؤلاء الفنانين الطابعين المصورين الذين ناضلوا ضد استعمال الآلة في انتاج الكتب بشكل مبالغ فيه .

قام موريس بطبع عدد من الكتب في مطبعته الخاصة في لندن حيث بلغ عددها حوالي اربعين كتاباً ، كلها في طبعات صغيرة الحجم . وقد استخدم في الطباعة حروفاً رومانية سميت الحروف الذهبية . كما استخدم الزخارف والتزيينات في عمل الاطارات . وتعتبر الطبعةالكبيرة التي اصدرها لاشعار تشوسر أروع إنتاجه . هذا وعلى الرغم من اعتماده في انتاجه على منتجات العهود السابقة ، الا ان ذلك الانتاج لايدخل في مصاف السرقات . ولاشك في ان عمله هذا كان يحمل بين طياته نواة طراز متكلف لم يستطع كثير من مقلديه ان يتجنبوه .

هذا ولاشك ان حروب نابليون اثرت على ظروف الكتاب الانكليزي في انكلترا . فقد ارتفعت اسعار الكتب المستوردة من اوربا ، وبشكل خاص من هولندا ، حتى وصلت الى حد عجيب ، وذلك بسبب الحصار القاري الذي فرضه نابليون على انكلترا .

ولقد زخر القرن التاسع عشر بهواة جمع الكتب الذين كان همهم شراء الكتب النادرة والكتب الفنية الجميلة ، كذلك انتشرت المزاودات العلنية في طول البلاد وعرضها ودفعت اثمان خيالية من اجل الكتب .

واثر الانتاج الغزير في ميدان المؤلفات المطبوعة والاهتمام بنشر المعرفة بين اكبر عدد ممكن من الناس ، تأثيراً رائعاً وعظيماً في تجارة الكتب .

وقد ظهر هنا ايضاً التخصص الذي استمر في ازدياده شيئاً فشيئاً ، وهذا ما يفسر مثلاً ، كيف ان بعض الناشرين يفضلون نشر كتب الطب ، بينما يميل آخرون الى نشر كتب القانون ، وغيرهم الى نشر الكتب الفنية .

ولقد سارت متاجر الكتب الانكليزية على طريقة (الحساب الثابت) . ومع هذا ففي وسعهم ان يطلبوا من الناشرين الكتب التي يرغبون هم انفسهم او عملاؤهم بفحصها ، على ان تعاد هذه الكتب الى الناشر في مدى قصير جداً .

ويتعامل كبار الناشرين الانكليز من امثال لونغمان Longmansوموري Murray ومكميلان Macmillan وستانلي انوين Unwin بنظام البيع على آجال قصيرة . ويعمل هؤلاء الناشرون على بيع طبعات كتبهم وفقاً لنظام (الحساب الثابت) السريع الاداء ، الى الوسطاء وتجار الكتب الرئيسيين . اما الكتب التي لايمكنهم بيعها بهذه الطريقة فيبيعونها بسعر مخفض الى بقية التجار المشتغلين بتصفية الكتب غير المباعة .

وخلال تاريخ الطباعة فقد لعبت الكتب الانكليزية وبقية اشكال الكلمة المطبوعة دوراً رئيسياً في نشر التعليم ورفع مستواه ، وبشكل خاص فقد كانت انكلترا في اواخر القرن التاسع عشر سوقاً رئيسية للكتب ومعلماً من عوالم الادب . كذلك انتشرت اللغة الانكليزية مع توسع الامبراطورية البريطانية في العالم . وهكذا فقد وجدت المطابع الانكليزية سوقاً واسعاً في كل مكان . ولقد كانت مطبوعات القرن التاسع عشر في كميتها ومستواها سلفاً صالحاً (للانفجار الاخباري الاعلامي) الذي حدث في القرن العشرين . ولم تظهر قوة الطباعة كوسيلة حية فعالة من وسائل التربية والاتصال وايصال المعرفة الى الجمهور في مكان كما ظهرت في انكلترا خلال القرون القليلة الاخيرة .

صناعة الكتاب في الولايات المتحدة :

لقد شعرت الولايات المتحدة الامريكية بشخصيتها المميزة لها عن اوربا وانكلترا خلال حروب الثورة وما بعدها . وبشكل خاص فان استقلال الولايات المتحدة ادى الى ولادة امة جديدة كانت تسعى لاستكمال مقومات وجودها وشخصيتها .

ولقد رأينا سابقاً كيف توطدت حرية الطباعة والنشر في الولايات المتحدة منذ اواخر العهد الاستعماري ، ولقد زاد العهد الاستقلالي من هذا الاتجاه . ولقد كان اغلب الادب الذي تم طبعه في الولايات المتحدة اول الامر ادباً اوربياً كلاسيكياً . ولكن الاتجاه الذي تغلب في القرن التاسع عشر هو الاتجاه الوطني المحلي ، اذ اتجه القوم نحو انتاج وطبع مؤلفات المؤلفين والكتاب الامريكان ؛ وما ان انتصف القرن التاسع عشر حتى تغلب التيار الوطني المحلي على التيار الاوربي الكلاسيكي وفاق عدد المؤلفين الامريكان الذين ولدوا في امريكا في حقول التاريخ والاداب والعلوم ، عدد اولئك المؤلفين الاوربيين واصبحت المطابع الامريكية تنتج اعداداً متزايدة من مؤلفات الكتاب الامريكان وتقلص عدد المؤلفات الاوربية في تلك المطابع .

كذلك ظهرت اشكال جديدة للطباعة مثل الموسوعات المؤلفة من عدد كبير من الاجزاء ، والاعمال الجمعية وكتب الهدايا الموضحة والحوليات . وبرز بائع الكتب الذي كان سابقاً مشتركاً مع الطابع كمؤسس لمهنة جديدة ومنفصلة عن مهنة الطبع . وقد ارسل الناشرون وبائعوا الكتب وكلاءهم في طول البلاد وعرضها للدعايةلبضائعهم ولزيادة مبيعاتهم منها . وظلت عادة نشر الكتب باعداد كبيرة على اساس الاشتراك سائدة . ولقد اصبحت في اواسط القرن التاسع عشر عملية نشر الكتب المدرسية التي تحتاجها المدارس بانواعها والكليات عملاً ضخماً وذلك بسبب انتشار معاهد التعليم بالعدد والحجم .

ولقد ظهرت بعد سنة ١٨٥٠ م الكتب المؤلفة خاصة للاطفال ، وهي مزينة بالصور ، واصبح الكتاب المخصص للاطفال في حدود سنة ١٩٠٠ م مشروعاً

تجارياً مربحاً ومعترفاً به لدى الناشر وتاجر الكتب . وظهرت بعد الحرب الاهلية (١٨٦٦ م) القصة ذات الجلد الورقي والتي لايزيد ثمنها على عشر سنتات Dime Novel . كذلك بيعت كتب المخاطرات العنيفة بمئات الالوف من النسخ . ولقد طغى الانتاج الغزير على نوعية الانتاج في اواخر القرن التاسع عشر ، ولكن كان هناك رواج لجميع انواع ومستويات القراءة .

ولايزال حتى ايامنا هذه موجوداً عدد قليل من شركات ودور النشر الكبرى التي بدأت اعمالها في اوائل القرن التاسع عشر . فمثلاً شركة ماثيو كاري واولاده Matthew Carey & Sons كانت شركة اسسها وادارها اقتصادي وسياسي معروف هو ماثيو سنة ١٨٢٢ م . فقد اسس ماثيو الاب الشركة وسماها باسم كاري اندلي Carey & Lea . ونفس الشركة لاتزال حتى الان موجودة تحت اسم Lea and Febiger . ويوجد ايضاً عدد من الشركات الاخرى .

وبدأت بعض دور النشر الكبرى في اواخر القرن التاسع عشر تجربة نشر الكتب والمجلات معاً . فمثلاً لم تقتصر شركة هاربر Harper على نشر مجلة شهرية باسم هاربر الشهري Harper,s Monthly وانما نشرت في اوقات مختلفة عدداً من النشرات الاسبوعية والدورية مثل Harper,s Weekly , Harper,s Bazaar Harper,s Young People وفعلت نفس الشيء عدة شركات اخرى .

كذلك تخصص بعض الناشرين باعادة طبع الكتب النادرة او المفقودة وطبعوها طبعات شعبية رخيصة . وظهر منذ سنة ١٩٣٠ م ناشرو الافلام المصغرة الذين اصدروا في شكل افلام مصغرة او بطاقات مصغرة او مطبوعات مصغرة تلك الكتب النادرة او الكتب الطويلة . كذلك ظهرت منشورات بيبليوغرافية همها ضبط وحصر مايصدر في البلاد من مطبوعات ، وهي مايسمى عادة باسم البيبليوغرافيا الوطنية . واشهر ممثل لهذا النوع من المنشورات ذلك المنشور المتكامل الذي تصدره شركة ويلسون تحت اسم Cumulative Book Index ويرمز اليه بالاحرف الاولى الثلاثة من اوائل الكلمات الثلاث المكون منها العنوان . C . B . I

وهناك ايضاً منشور آخر يهدف لنفس الغاية يصدر عن شركة Bowkerباسم Bookes in Print .

ومما لاشك فيه ان بائع الكتب هو حلقة الوصل بين المشتري والناشر . وقد انتشر بائعو الكتب في كل مكان ، وانتشرت محال بيع الكتب باعداد غفيرة في كل بلدة وقرية في الولايات المتحدة ؛ ولعبوا دوراً مهماً في عملية ايصال المعلومات . ولقد ووجه بائعو الكتب في القرن العشرين بمنافسة نوادي الكتب لهم ، تلك النوادي التي استطاعت ان تحقق مبيعات متزايدة في طول البلاد وعرضها . وقد وجد في الولايات المتحدة سنة ١٩٦٨ م اكثر من ١٢٢ نادياً مختلفاً للكتب تبيع جميع انواع الكتب من كتب الاطفال الى الكتب محدودة التوزيع وعرضت اسعار مخفضة لمبيعاتها ، وهذا ادى الى بيع عدد كبير من الكتب ، ولكن ذلك انقص بشكل ملحوظ مبيعات بائعي الكتب .

ولقد اصبح عمل نشر الكتب عملاً اقتصادياً ضخماً له اصوله وله اسواقه وله معامله وعماله . فقد تطور عمل نشر الكتب من عمل قليل من الطابعين المتفرقين في المستعمرات الثلاث عشرة في سنة ١٧٧٥ م حتى اصبح صناعة امريكية ضخمة عملاقة هائلة تستخدم الوف العمال وتنتج في السنة الواحدة اكثر من مليون نسخة من الكتب . ولقد حققت تجارة الكتب ، باستثناء الكتب المدرسية والكتب ذات الجلد الورقي رقماً قياسياً في البيع سنة ١٩٦٨ م وتجاوز عدد مبيعاتها الالف مليون نسخة .

صناعة وتجارة الكتب في فرنسا :

أخذ الحفر على النحاس مكانة أعظم من ذي قبل في زخرفة الكتاب وزينته . فلم تعد زخرفة الكتب قاصرة على الرسوم الحقيقية فحسب بل تعدى الأمر ذلك إلى الأكثار من زخرفة الصفحات بالزخارف الصغيرة والأفاريز الزخرفية والأزهار في بدء كل فصل من فصول الكتاب . وقد أوصل هذا الأتجاه الفني في فرنسا في عصر **لويس الخامس عشر** إلى الكمال عدد من الفنانين ،من

اشهرهم كلود جيلو Gillot الذي كان ذا عبقرية شاملة ، وبوشيه Boucherالذي اوصل هذا الفن الى اوج بهائه وذلك عندما قام سنة ١٧٣٤ م بطبع مؤلفات موليرِ وزينها باكثر من مائتي زخرفة صغيرة . وعلى الرغم من انه قام بطبع عدد من الكتب الاخرى ذات القيمة الفنية ، الا ان طبعة موليرِ المذكورة آنفاً تعتبر اروع اعماله .

ومن الصفات المميزة لفن الكتاب الفرنسي في القرن الثامن عشر التعاون الوثيق بين الناشر والطابع والمصور . واذا كنا نجد بوجه عام في كتاب **الصور الصغيرة** انسجاماً كهذا في جميع التفصيلات من حيث الورق الجيد وحروف الطباعة والحروف المزخرفة والزخارف الصغيرة لنهايات الفصول والاشكال ، فان هذه النتيجة ترجع دون شك الى التعاون الموفق .

ولقد استعمل بوجه خاص في مطبعة اللوفر الملكية حرف رسمه فيليب غرانجان Grandjean ويسمى الحرف الروماني الملكي . ثم ظهرت حروف رومانية رسمها حوالي منتصف القرن الثامن عشر فورنيه الصغير .

واخيراً ظهر في اواخر القرن الثامن عشر اسرة كبيرة من الطابعين هي اسرة ديدو Didot التي ابتكرت حروفاً صارت من احسن ماعرف في عصرها . ومن اجَلّ رجال هذه الاسرة فرانسوا ـ امبرواز ديدو Francois – Ambroise Didot (١٧٣٠ ـ ١٨٠٤ م) الذي لم يشتهر فقط بحروفه الرومانية ، وانما نال ايضاً شهرة واسعة ، بابتكاره نظاماً جديداً للحروف ، اي لطريقة خاصة بقياس جسم الحروف الطباعية . وبمقتضى نظام ديدو هذا ، تصف الحروف في وحدات بحيث يكون كل ٢٦٦٠ حرفاً ما يبلغ طوله متراً واحداً . ولقد آلت مطبعة ديدو سنة ١٧٨٩ م الى بيير ابن فرانسوا ـ امبرواز الذي اشتهر بابتكاره لسلسلة كاملة من الحروف الرومانية (الكلاسيكية) التي كثر الاقبال عليها . كما اعلنت هيئة تحكيم المعرض الوطني الذي اقيم في عام ١٨٠١ م ان طبعاته الكبيرة التي في حجم النصف لمؤلفات فرجيل وهوراس ، وكذلك طبعته المصورة لمؤلفات راسين هي احسن مطبوعات في العالم .

ولقد استعاد الحفر على الخشب في فرنسا ، شيئاً من مجده السابق واهميته في مطلع القرن التاسع عشر . ذلك ان اوائل القرن التاسع عشر شاهدت حكم نابليون لفرنسا وحروبه في اوربا ، وهي فترة لم تكن مناسبة لتطور فن الكتاب والتأليف بشكل عام في اوربا .

ولقد ظل الحفر على الخشب سائداً في فرنسا فترة طويلة امتدت حتى عام ١٨٧٠ م وذلك بفضل الفنان غوستاف دوريه 'Dore الذي امتد انتاجه العظيم من رابليه حتى التوراة ، ومن دانتي حتى ادجارالان بو . وقد فضل هذا الفنان الحفر المظلل على الخشب ، اي الخشب الذي لاتقتصر (الصور الصغيرة) فيه على اللونين الاسود والابيض ، وانما تعبر عن ادق الالوان المظللة . وتعتبر (القصص العجيبة) لبلزاك (١٨٥٨ م) اروع ما صوره دوريه .

وقد اصدرت الحكومة الفرنسية عدة تشريعات من اجل تنظيم تجارة الكتب . ذلك ان اقرار مبدأ الحرية الصناعية في عهد الثورة قاد الى تعديل ظروف تجارة الكتب . وقد انتهى عهد تنظيم نقابات الحرف ، بالحالة التي كانت عليها الى ذلك الحين ، بالنسبة لتجارة الكتب وطباعتها ، وصار منذ ذلك الوقت من حق اي فرد ان يزاول هاتين المهنتين . غير ان مرسوماً صدر سنة ١٨١٠ م اشترط بمقتضاه لحق مزاولة مهنة الطباعة ، الحصول على تصريح واداء يمين خاصة ، كما حدد في نفس الوقت عدد الطابعين في باريس بستين طابعاً ، زيد بعد قليل الى ثمانين . غير ان هذا المرسوم الغي سنة ١٨٧١ م مع غيره من القوانين التي تقيد الحرية . غير انه لما صدر سنة ١٨٨١ م قانون المطبوعات تقررت بعض القيود من جديد . واخيراً صيغ قانون الايداع الاجباري صياغة جديدة واتخذ في النهاية طابعه ومداه بالقانون الصادر عام ١٩٢٥ م .

ولقد تمركز الناشرون الفرنسيون في باريس ، وهم يبيعون الكتب للمكتبات التجارية رأساً ، بل وحتى للافراد . ويتم هذا البيع لتجار الكتب ، اما عن طريق (الحساب الثابت) او عن طريق (الايداع التأميني) . ويشبه نظام الايداع التأميني هذا نظام (البيع بالشرط) الالماني .

ويسري في فرنسا ايضاً عرف اعطاء التاجر نسخة بالمجان ، من كل ثلاث عشرة نسخة ، كما يوجد بها وسطاء في تجارة الكتب ، وكلهم تقريباً يقيمون في باريس ، وان يكن عددهم محدوداً . وينحصر دورهم الرئيسي في ان يجمعوا على حدة ، طلبات متجر الكتب الواحد من عدة ناشرين مختلفين ليجعلوا منها طلباً واحداً او ارسالية واحدة ، وهذا يسمح لتاجر الكتب ان يوفر جانباً كبيراً من نفقات النقل التي تنتج من الارساليات والمبيعات الصغيرة المتفرقة ، مع اعتبار اجر الوسيط .

اما(الحسابات المقسطة) التي يفتحها الناشرون الفرنسيون للوسطاء وتجار التجزئة فانها قصيرة الاجل بشكل عام ، بحيث تتراوح بين ثلاثة اشهر وستة اشهر .

ولقد ازدهر الكتاب الفرنسي الفني منذ عام ١٨٨١ تقريباً ازدهاراً كبيراً بفضل الاقبال الشديد الذي يلقاه اليوم الكتاب المصور . قد استمر هذا الازدهار حتى اليوم ، بحيث لم يعد تفضيل صنع الصور قاصراً على الكتب (الكلاسيكية) فحسب ، وانما تعداها الى كتب الادب المعاصر ايضاً ، بحيث صار الكتاب يقدم في شكل خلاصة جامعة للروح الادبية والفنية في عصرنا .

ومع ذلك فالمظهر الذي يبدو فيه هذا الفن مظهر متنوع الى درجة يتعذر معها في الغالب تمييز نزعاته العامة . ولقد ظهر منذ عام ١٨٩٦ م ناشر يدعى بلتان Pelletan كان لنشاطه اثر واضح في فتح مجال كبير للانتاج الفني امام طائفة كبيرة من الرسامين . وكان لايفتأ يقوم بتجارب مستمرة ، وحاول التوفيق بانسجام بين النص والرسوم . كذلك حاول تطبيق برنامجه القائل بان (تصوير الكتاب انما هو تفسير للنص وزخرفة لصفحاته) . وهكذا اتصف هذا الناشر بعقله المثقف المشبع بحب النظام والمنطق . وقد استطاع خلال عمله الذي انتهى سنة ١٩١٢ ان ينشر مايقارب سبعين مجلداً ولوحة ، امتازت كلها بالعناية التامة واتقان المظهر وجمال الاخراج الفني . اضف الى ذلك انه ساعد بروحه النقدية ونظريته الخاصة في (الدلالة التعبيرية للحرف الطباعي) على خلق نماذج جديدة من الحروف ، ممهداً بذلك الى التقدم العظيم الذي عرفته المسابك الطباعية في

فرنسا منذ نهاية القرن الماضي . وقد اجتازت آراؤه حدود فرنسا واعتبرها هواة الكتب المعاصرون قاعدة معترفاً بها .

صناعة وتجارة الكتب في المانيا :

كثر الطلب في المانيا خلال القرن الثامن عشر على كتب الجيب الصغيرة والتقاويم ، وخاصة تلك التي كانت محلاة بالصور الصغيرة المحفورة على النحاس والتي حاكى فيها الفنانون الالمان الفنانين الفرنسيين . وقد ظهر عدد من هؤلاء الفنانين يعتبر دانيل شودوفيكي ابرعهم اذ استطاع ان يظهر قدرة ابتكارية خاصة ، فنجد في رسومه توضيحاً للحياة البورجوازية الالمانية في بعض الحالات ، او مايمكن ان يسمى ايضاً (الحياة في المدينة الصغيرة) .

ولقد هيأ الميل الى للقراءة في المانيا ، وقاد الى تسهيلات جديدة لتجارة الكتب وزاد في انتاج الكتب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر زيادة ضخمة فوصل عدد المؤلفين الى الضعف في هذه الفترة الزاهرة من فترات الادب الالماني .

ولقد ازدادت حقوق المؤلفين وضوحاً ومع ذلك لم يكن المؤلفون ، في اغلب الاحيان ، على صلات طيبة مع الناشرين ، لان هؤلاء الاخيرين دأبوا على اصدار طبعات جديدة دون مشاركة المؤلفين بالارباح . وقد لجأ بعض المؤلفين الى نشر كتبهم بانفسهم ، كما فعل ليسينغ Lessing او الى انشاء مؤسسات تعاونية بالاشتراك مع زملائهم لنشر كتبهم .

ولقد ادت عدة عوامل ، منها زيادة حقوق المؤلفين ، ومنها تحسن طبع الكتاب بوجه عام ، الى ارتفاع اثمان الكتب . وقد ادى هذا الامر ، مغ مؤثرات اخرى ، الى نشاط سوق تقليد الطبعات الجيدة حتى تحولت سوق فرانكفورت تدريجياً الى سوق للكتب المقلدة ، مما جعل عدداً من كبار الناشرين يحاول مكافحتها ، واخيراً تدخلت حكومة سكسونيا لصالح الناشرين سنة ١٧٧٣ م . ولكن ذلك لم يؤد الى نتيجة مرضية ، اذ انتقل التقليد الى جنوبي المانيا . ولم تبدأ حملة حقوق المؤلف في المانيا الا في سنة ١٧٩١ م حينما نص القانون البروسي عن

اول تنظيم مفصل لقانون الناشرين ، واصبح المقلدون عرضة لعقوبة مباشرة سريعة . وهكذا فتح مجال جديد سار على نهجه بقية المقاطعات الالمانية الاخرى مما قضى على التقليد قضاءً مبرماً .

ولقد كان تنظيم تجارة الكتب في المانيا في القرن الثامن عشر بطيء التقدم ايضاً ، فبينما التزم الناس في جنوب المانيا طويلاً بنظام التبادل ، كف تجار شمال المانيا عن هذا النظام ولجأوا الى نظام الدفع نقداً . وحوالي نهاية هذا القرن ادى انشاء بورصة الكتب في لايبزغ الى قيام التركيز الذي كان ضرورة ملحة لتجارة الكتب الالمانية .

ولقد نمت في هذا القرن الرقابة السياسية وبدأت الرقابة الدينية تتوارى قليلاً ، الا انه ، في مقابل ذلك ، اشتدت الرقابة السياسية اكثر من ذي قبل .

ولقد ظل الحفر على الخشب في المانيا خلال القرن التاسع عشر اكثر نضارة وحيوية مما كان عليه في الاقطار الاخرى ، غير انه لم يقم من جديد بدور كبير هنا ايضاً الا حوالي نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر . ولقد تأثر فن الحفر على الخشب بمدرسة بويك الفنية ، ولكن لم يلبث هذا الفن ان اتخذ صفة مبتكرة في درسدن بعد ذلك تجلت في رسوم عدد من الفنانين اشهرهم ريختر Richter الذي تمتع باكبر شعبية بين كافة طبقات المجتمع وذلك برسومه العديدة عن الحياة الشعبية ورسومه للقصص التي امتازت بانسجام وثيق مع الروح البورجوازية .

واشهر ما امتازت به الصور الالمانية المحفورة على الخشب ، هو انها كانت تتحرى تماماً اظهار خطوط الفنان اظهاراً تاماً ، كما امتازت باقترابها ، بصفة عامة من الحفر الالماني في القرن السادس عشر . ولذا تجدها تخالف الفن الفرنسي الذي امتاز بحرية اكبر في معالجته لخطوط الفنان .

ولقد تطور فن الطباعة في المانيا في اواخر القرن التاسع عشر تحت تأثير عدد من المؤثرات الفنية ، ولعل اشهرها حركة موريس التي ظهرت في انكلترا وما اثارته من نشاط وردود فعل . فقد قلد الالمان بين سنتي ١٨٨٠ و ١٨٩٠ م فن عصر النهضة الذي ساد في القرن السادس عشر . ولقد اكثروا من استعمال حروف

شواباخ وذلك بغية اعطاء الكتاب مظهراً المانياً قديماً . غير ان الحروف التي سادت بصفة عامة كانت هي الحروف الانكسارية التي لاطعم لها والتي ينعدم فيها الابتكار الفني ، وكانت مصحوبة بالافاريز والزخارف الوردية الشكل التي لاطعم لها والتي بطل استعمالها . ولكن لم يلبث الاثر الانكليزي ان ظهر تدريجياً منذ اواخر القرن التاسع عشرحينما زاد استعمال حروف قوية مسكوبة في قوالب قديمة ، فضلاً عن الانتقال من جمع الحرف الواسع الى الجمع الذي زاد فيه الترابط والضيق مما يزيد الاحساس بالمتانة .

لم تستيقظ متاجر الكتب الالمانية وتنتبه الى ماتعانيه من تجزؤ وتفرقة الا في اوائل القرن التاسع عشر ، وبدأت الجهود تبذل من اجل التوحيد والتنظيم وكان من بين نتائجها انشاء بورصة لايبزغ سنة ١٨٢٥ م .

الا ان العصر لم يكن قد نضج بعد لانشاء تشريع يقاوم التزوير ويحمي حقوق الناشرين وقد مضت العقود الاولى من القرن التاسع عشر وهي مليئة بالمناقشات والمحاولات في هذا الميدان . وقد تمكنت جماعة اتحاد بورصة الكتاب في لايبزغ من اصدار لائحة ثابتة لحمايةحقوق المؤلف وذلك سنة ١٨٨٦ م .

ولقد عقد سنة ١٨٤٠ م اول اتفاق أدبي بين دولتين هما فرنسا والاراضي المنخفضة ، وكان هذا الاتفاق نواة لاتفاق برن Berne ، ثم ما لبثت اتفاقية برن هذه ان عدلت ونقحت عدة مرات حتى انضمت اليها في الوقت الحالي الغالبية العظمى من دول العالم المتحضر ، بحيث صار لكل مؤلف من هذه الدول حق حماية ملكيته الادبية في جميع الدول الموقعة على الاتفاقية .

ولقد امكن تنظيم متاجر الكتب الالمانية تنظيماً جيداً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وذلك بفضل جهود اتحاد البورصة الالمانية وتحت رعايته . كما كان لهذا الاتحاد فضل انشاء قوائم الكتب الجديرة بالاعجاب لمتاجر الكتب ، والفهارس نصف السنوية والفهارس التي تصدر كل خمس سنوات .

ومركز تنظيم تجارة الكتب كان لايبزغ التي هي مقر نقابة الناشرين ومقر نقابة تجار الكتب الالمان ومركز نشر الصحف المهنية واهمها صحيفة البورصة التي كانت تصدر في جميع ايام العمل ويعلن فيها عن جميع الكتب الالمانية الجديدة .

كذلك كان يوجد ، ولايزال ، دور هامة للنشر ، ليس فقط في المراكز الكبرى مثل برلين ولايبزغ وميونيخ ، وانما ايضاً في عدد كبير من المدن الصغرى وبشكل خاص المدن الجامعية مثل هايدلبرغ وغوتنجن وغيرهما .

هذا وكان يوجد لجميع الناشرين الالمان ـ ممن هم على جانب من الاهمية وان لم يكن لهم مقر في لايبزغ ـ (مستودع عام) للمطبوعات التي يصدرونها لدى وسيط خاص بهم في تلك المدينة ، كما ان التجار الالمان في المدن الاخرى عدا لايبزغ ، يشتركون مع التجار الاجانب ، في تعيين وسيط لهم مكلف ان يشتري لحسابهم الكتب التي ينشرها سائر الناشرين ، حيث ان معظم هؤلاء الاخيرين يرفضون البيع لهم مباشرة .

فهذا التركيز وهذا التنظيم لتجارة الكتب في لايبزغ يسهلان ويفسران ذلك الانتشار الواسع للمؤلفات الالمانية . ومن المبادىء المقررة في البيع النظام المعروف (بالنظام الشرطي) الذي يقضي بتسليم الوسيط وبعض تجار التجزئة عدداً معيناً من نسخ كل طبعة جديدة . اما النسخ المباعة (بحساب ثابت) اي التي يشترط فيها الا ترد الى الناشر فكانت تمنح تخفيضاً اكبر من تلك التي كانت تباع بالشرط .

هذا وان مهلة الدفع كانت قبل الحرب العالمية الاولى مهلة طويلة ولكنها اصبحت بعد تلك الحرب مهلة قصيرة لاتتعدى ثلاثة اشهر ، فضلاً عن ضرورة رد الكتب المرسلة بالشرط الى الناشر .

اما الآجال المتعاقبة والمتجددة كل ثلاثة اشهر والمعروفة بالعقود المجددة فهي غير معروفة في المانيا ، وان تكن مطبقة في فرنسا .

وهناك فئة خاصة من تجار الجملة تسمى اتحاد تجار الجملة الالمان لاتبيع الا لتجار الكتب فقط ، فتنتخب عملاءها من بين متاجر الكتب الصغيرة والدور الاجنبية ، وهم يشترون ، عادة ، عدداً كبيراً من النسخ ، كما يشترون مؤلفات تكون مطروحة (للبيع الجاري) ويحصلون بذلك على تخفيض استثنائي . على ان هذه الفئة من تجار الجملة لاتوجد الا في المراكز الكبرى مثل لايبزغ وبرلين وغيرهما . ومن اهمها شركة كوهلر وفولكمار وشركاهما ، وهي الشركة المشهورة

بقوائم كتبها وبمؤلفاتها الخاصة بعلم المكتبات .

هذا ولابد من ذكر ان التنظيم الذي عرضناه آنفاً ظل سائداً في المانيا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، ولقد اختلف التنظيم بعد تلك الحرب اثر هزيمة المانيا في تلك الحرب ودمارها واحتلالها من قبل الحلفاء وانقسامها الى قسمين غربي وشرقي ، الاول تحت النفوذ الامريكي والثاني تحت السيطرة الشيوعية .

بعد ان درسنا في الصفحات السابقة تطور الكتاب من اقدم العصور حتى اوائل هذا القرن وبعد ان لاحظنا التغيرات التي طرأت على شكل الكتاب ومهمته ، لابد لنا ان نلاحظ انه على الرغم من كل التطورات المثيرة التي تمت في عصرنا هذا بشكل خاص متميز ، في حقل ايصال المعلومات الى الجماهير واستخدام الحاسب الالكتروني والاساليب التقنية في هذه المجالات ، يبقى الكتاب ، في شكله الحالي ، الوسيلة الاساسية لحفظ وتوزيع المعرفة الانسانية والمعلومات . يمكن لوسائط اخرى من وسائط نقل المعرفة غير الكتاب ، كالافلام المصغرة والشرائح والاسطوانات وحتى (الكتب الالكترونية) ان تكمل الكتاب وتساعد في مهمته ، ولكن لايوجد في الافق اية دلائل تشير الى احتمال انقاص قيمة الكتاب في هذا المجال ، بل يبدو ان دور الكتاب ووجوده قد تدعما ، وسيبقى دور الناشر والطابع وبائع الكتب دوراً مهماً في المجتمع الانساني المتحضر .

المصادر العربية

١ ـ حداد ، جورج . **المدخل الى تاريخ الحضارة** . دمشق ، الجامعة السورية ، ١٩٥١ م ٢ج .

٢ ـ حمادة ، محمد ماهر . **مدخل الى علم المكتبات** . الطبعة الثانية . بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٨ م .

٣ ـ حمادة ، محمد ماهر . **المكتبات في الاسلام : نشأتها وتطورها ومصائرها** . الطبعة الثانية . بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٨ م .

٤ ـ دال ، سفند . **تاريخ الكتاب من اقدم العصور الى الوقت الحاضر** . تأليف سفند دال ، تعريب محمد صلاح الدين حلمي . القاهرة ، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع ، ١٩٥٨ م .

٥ ـ ديورانت ، ول . **قصة الحضارة** ، تأليف ول ديورانت ، تعريب احمد بدران وآخرين . القاهرة ، لجنة والتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠ م ـ الجزء الاول

٦ـ كريمر ، صمويل . **من الواح سومر** ، تأليف صمويل كريمر ، تعريب طه باقر . بغداد ، مكتبة المثنى .

٧ ـ هيسيل ، الفريد . **تاريخ المكتبات** ، تأليف الفريد هيسيل ، تعريب شعبان عبد العزيز خليفة . القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٧٣ م .

المصادر الاجنبية

1 – Chiera , Edward. **They Wrote on Clay**. Ed. by: G.Q. Cameron. Chicago, Phoenix Books, 1959

2 – **Encyclopedia of Library and Information Science**. Ed. by Allen Kent and Harold Lancour. New York Marcel Dekker, 1968

3 – Gates , Jean Key. **Introduction to Librarianship**. 2 ad. Ed. N.Y.,Megraw Hill Book Co., 1967.

4 – Hitti,K.P. **A History of The Arabes**. N.Y.,Macmillan, 1961. 3V.

5 – Jackson , S.L.**Libraries and Librarianship in the West**: A brif history. N.Y.,Mcgraw Hill Book Co., 1974.

6 – Johnson , E.D. **Communication...** 4 th. cd. Metuchen, N.J.,Scarecrow Press , 1973.

7 – Ogg, Oscar. **The 26 Letters.** N.Y.,The Thomas y., Crowell , 1961.

8 – Mc Murtrie, D.e. **The Book...**London , Oxford University Press, 1960

9 – Rider , A.D. A Story of Books and libraries. Metuchen, N.J., The Scarecrow Press , 1976.

10 – Steinberg, S.H. **Five hundred Years of Printing. Balti–more,**Penguin Press , 1961.

11 – Thompson ,J.W. **The Medieval library.** N.Y.,Hofmer Publishing Co., 1976.

12 – Ullman , B.L. **Ancient Writing and its influence** . N.Y., Cooper Square Publishers , 1963.

كشاف هجائي عام

- آ -

- ب -

ـ ت ـ

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ر -

- ز -

- س -

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

- غ -

ـ ف ـ

ـ ق ـ

- ك -

- ل -

- م -

المحتويات

المحتوى **الصفحة**

تطلب جميع منشوراتنا من:

الشركة المتحدة للتوزيع

بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة ☎ ٦٠٣٢٤٤٢ - ٨١٥١١٢ ✉ ٧٤٦٠

دمشق - الحلبوني - شارع سالم البارودي - بناء خولي وصلاحي ☎ ٢٢١٢٧٧٣ - ٢٢٤٤٤٣ ✉ ٦٦٢٥

برقياً: بيوشران

عمان - دار الفكر - العبدلي - مركز جوهرة القدس التجاري ☎ ٦٥٩٨٩١ - ٦٥٩٨٩٢ ✉ ١٨٢٠٧٧